الجامعة الاردنية
كلية الدراسات العليا
قسم أصول الدين
شعبة التفسير

سورة فاطر

(دراسة تحليلية وموضوعية مقارنة)

إعداد

وليد محمد حسن العمودي

إشراف

الدكتور : إبراهيم زيد الكيلاني

رسالة مقدمة لاستكمال متطلبات الحصول على درجة الماجستير في التفسير / قسم أصول الدين في كلية الدراسات العليا

١٤٠٧ - ١٤٠٨ هـ
١٩٨٧ - ١٩٨٨ م

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الإهـــــــــداء

إلى اللذيـن ربيانـي صغيـــــــــراً ..
ومتّعانـي بحبهما وحنانهما كبيـــــراً ..

إحسانـاً وبـــراً وعرفانـــاً
إلى والـــدَيّ الحنونَيـــن

أهـــــــدي هذه الرسالـــة .

وليد محمد حسن العمودي

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

المقدمـــــــــة

الحمد لله الذي فطر السموات والأرض وجعل الظلمات والنور ، تفـــــرد - سبحانـه - بالخلـق والرزق والقـدرة على تصريـف الأمور ، وأثبـــــت بالحجـة القاطعـة والبرهان الواضـح أنـه الخالـق المدبـر المستحـــــق للعبـــادة ،، ولا يستحقها أحـد سواه ، وأبطـل دعاوى كـل ما يدعـــون ألوهيتـه في الأرض والسمـاء ، لا إلـه إلا هو العزيـز الحكيـم .

وأصلـى وأُسـلم على من بعثـه الله بالحـق بشيـراً ونذيـراً ، ليخـرج النـاس مـن الظلمـات الى النور ، ويقربهـم من الظـل ويباعدهـم من الحـــرور، سيدنا محمد وعلى آلـه وصحبـه ومـن تبعهـم بإحسان إلى يوم الدين .

أما بعـد ،

فإن شرف العلم يشرف المعلوم ، وليس أشرف من كتاب الله علم أبـــداً ، فهو الأسـاس المتيـن الذي تبنـى عليه جميع العلـوم الإسلامية ، والنبـــع العذب الصافي الذي يتجـدد إعجازه ، ولا يخلق على كثرة الرد ، فكان هـــم العلمـاء أن يعرفوا أسراره وينهلوا من معين علومه ، فرغبت أن أكـــون من الدارسين لشيء مما في هذا الكتاب العظيم ، وتوجهت لدراسة ســـورة منـه وهي " سورة فـاطـر " دراسة تحليلية وموضوعيـة .

أسبـاب اختيـار الموضـوع :

١- إن المتخصص في علم التفسير لابد له أن يبرز حصيلته العلمية فـــي دراسـة سورة من سور القرآن الكريم بإشراف أساتذته يجلي فيهـــا منهجه في التفسير ، كما يبرز ملكاته في فهم الكتاب العزيز مقيـــداً بأصـول التفسيـــر .

٢- ولما كان موضوع السور المكية في القرآن الكريم هو بيان أصول العقيدة ومنها وحدانية الله تعالى ، وإثبات عقيدة البعث والحساب ، وإثبـات النبوة وخلق الملائكة ، وإبطال الشرك ، ورد شبهات المنكرين ، فإننـــي رأيت أن أقوم بهذه الدراسة آملا أن أخلص الى بيان ما يلي :

أ) إبراز منهج القرآن الكريم في الاستدلال للعقيدة .
ب) إبراز مكانة العقل في التصور الإسلامي .
ج) بيان الالتقاء بين الإيمان والعلم .
د) إبراز مواضيع السورة .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أهمية البحث :

إنه يوضح المنهج الإسلامي في دعوة العقل للإيمان من خلال النظر في ملكوت السموات والأرض ، وعرض دلائل الوحدانية من خلال سنن الله - تعالى - في الخلق والإبداع ، والعناية والقصد .

ويوضح أيضاً أن منهج القرآن الكريم هو الذي يلائم الفطرة ويتفق مع العقول .

ويبين منهج القرآن العلمي في إثبات أصول العقيدة كالوحدانية ، والبعث ، والحساب ، والنبوة ، وخلق الملائكة ،وإبطال الشرك ، ورد شبهات المنكرين .

طبيعة البحث :

١- إبراز الوحدة الموضوعية في سورة فاطر .

٢- تفسير آيات السورة تفسيراً تحليلياً يعتمد على إظهار الجمال البياني والصور الفنية وترابط الآيات والجمل ، لإبراز أوجه الجمال في إعجاز القرآن الكريم .

٣- إبراز الموضوعات التي تعرضت لها السورة لتحقيق غرض موضوعها الرئيس .

ولتحقيق ذلك رجعت إلى ما يلي :

١) كتب التفسير .
٢) كتب أحكام القرآن .
٣) كتب علوم القرآن .
٤) كتب غريب القرآن .
٥) كتب إعراب القرآن .
٦) كتب القراءات والمشكل والمتشابه .
٧) كتب اللغة والإعجاز البياني والعلمي .
٨) كتب السنة .
٩) كتب السيرة .
١٠) كتب العقيدة والفلسفة .
١١) بعض الكتب الفكرية .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

هيكل البحث :

١- المقدمة .

٢- التمهيد : تعريف عام بسورة فاطر ، ويشمل ما يلي :

- أسماء السورة وعلاقتها بموضوعاتها .
- مكان نزول السورة وتاريخ نزولها والجو الذي نزلت فيه .
- علاقة السورة بالتي قبلها والتي بعدها .
- علاقة السورة بالسور المفتتحة بالحمد .

٣- الفصل الأول : التفسير التحليلي للسورة :

وقد قسمت السورة في هذا الفصل الى مقاطع عدة - حسب المعاني - ، واتبعت في تفسير المقاطع وشرحها منهجا كالتالي :

١) المعنى الإجمالي .
٢) التحليل اللفظي .
٣) وجه الارتباط بالآيات السابقة .
٤) سبب النزول .
٥) وجوه القراءات .
٦) الإعراب .
٧) البلاغة .
٨) اللطائف .
٩) الأحكام .

٤- الفصل الثاني : مباحث موضوعية ، ويشمل ما يلي :

١) أدلة الوحدانية في السورة .
٢) مبحث في الملائكة .
٣) مبحث في البعث .
٤) مبحث في العزة .

٥- الفصل الثالث : المتشابه اللفظي والمشكل في السورة :

وبينت فيه التشابه اللفظي بين آيات من السورة وآيات أخرى من سور أخرى ، ووضحت بعض الإشكال الحاصل في فهم بعض الآيات .

٦- الفصل الرابع : الصراع بين الحق والباطل في السورة ، ويشمل ما يلي :

- بيان معنى الحق والباطل لغة واصطلاحا .
- الحديث عن بداية الصراع بين الحق والباطل .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

- أسباب الصراع بين الحق والباطل كما يعرضها القرآن .
- تشخيص القرآن للنفسية الجاهلية المتكبرة عن قبول الحق ، والتي لا تؤمن بغير المادة ، وتوالي الشيطان الذي يزين لها سوء أعمالها .

ثم بيان ردود القرآن الكريم ومناقشاته شبهاتهم وضلالهم السخيف ويتضمن عرضا لأسلوب الجدل في القرآن ، وخاصة الجدل التصويري حيث إن التصوير هو الأداة المفضلة في أسلوب القرآن .

وتضمن الفصل - أيضاً - عرضا لأمثلة من الجدل في كل مما يلي :

- إثبات الوحدانية لله تعالى .
- إثبات البعث .
- عرض لمشاهد القيامة - النعيم والجحيم - .
- عرض لنقض إلهية ما يعبدون من دون الله .

وتضمن عرضاً لصفات أهل الحق كما تعرضها السورة ، وكذلك صفات أهل الباطل ، وتحدثت عند كل صفة بشيء من الاختصار خروجا من التكرار ، لأنني تحدثت عن تلك الصفات عند ورودها في الفصل الأول " التفسير التحليلي" وإنما استوفيت هنا ما رأيته ناقصا هناك .

٧- الخاتمة : وتشمل نتائج هذا البحث المتواضع .

ثم فهرس الموضوعات ، ثم ثبت بالمراجع .

وقد سرت على هذه الخطة مستمداً العون من الله العلي القدير ، مستلهما منه الرشاد ، آملا في التوفيق والسداد .

وقد بذلت قصارى جهدي لإتمام هذا البحث ، فتم بلا كمال ، فالكمال لله وحده ، وغاية ما أسعى إليه أن أحظى بالصواب ، فما كان فيه من الصواب فمن الله وحده ، وما كان فيه من زلل أو خطأ فمن نفسي ومن الشيطان ، وأسأل الله العفو والغفران ، انه على كل شيء قدير .

وأسأل الله أن يغفر لوالدي ويجزيهما عني خير الجزاء ، ويجزي كل من له علي فضل ، وأخص أستاذي الفاضل الدكتور إبراهيم زيد الكيلاني ، الذي أحسن توجيهي حيث كانت ملاحظاته في الصميم ، فلم أجد بداً ولا مناصا من الالتزام بها .

وأسأل الله أن يجزي أساتذتي في كلية الشريعة عني خير الجزاء . وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

وليد محمد العمودي

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

تعريف عام بسورة فاطر

للسورة اسمان ، سورة فاطر ، وسورة الملائكة (١) .

وتسمى سورة " فاطر " لذكر هذا الاسم الجليل والنعت الجميل في طليعتها . وتسمى سورة "الملائكة" لما جاء فيها من خلق الملائكة وجعلهم ذوي أجنحة متنوعة في العدد الدال على عجيب صنع الله وباهر قدرته (٢).

متى نزلت سورة فاطر ؟ :

سورة فاطر ، عدد آياتها خمس وأربعون آية ، وهي السورة الخامسة والثلاثون في ترتيب المصحف ،والثالثة والأربعون في ترتيب النزول .

وكان نزول سورة " فاطر " في المرحلة السرية من الدعوة الإسلامية ؛ لأنها نزلت قبل سورة "الحجر" والتي نزل فيها قوله تعالى : ((فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين)) - الحجر / ٩٤ - ، وهي السورة الخامسة والخمسون في ترتيب النزول(٣) .

والمرحلة السرية في الدعوة الإسلامية استمرت ثلاث سنين من مبعث النبي - صلى الله عليه وسلم - ثم أمره الله - تعالى - بالجهر بالدعوة في آية سورة الحجر .

وقال ابن إسحاق : " وكان بين ما أخفى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أمره واستتر به الى أن أمره الله بإظهار دينه ثلاث سنين من

---

(١) انظر : محمد بن اسماعيل البخاري : الصحيح ج ٦ ص ٢٩ ، الطبعة التركية وسيشار الى هذا المصدر حين وروده فيما بعد هكذا: البخاري : الصحيح .
وانظر : أبو عيسى محمد بن عيسى بن سورة الترمذي : السنن ج ٥ ص ٣٦٣ باب ٣٦ ، الطبعة التركية ، وسيشار الى هذا المصدر حين وروده فيما بعد هكذا : الترمذي : السنن .

(٢) انظر : محمد جمال الدين القاسمي : محاسن التأويل ج ١٤ ص ٤٩٧١ ط مصطفى البابي الحلبي بمصر . وسيشار الى هذا المرجع حين وروده فيما بعد هكذا : القاسمي : محاسن التأويل .

(٣) انظر : الامام بدر الدين الزركشي : البرهان في علوم القرآن ج١ ص ١٩٣ ط ١ ١٩٥٧ م مصطفى البابي الحلبي بمصر . وسيشار الى هذا المرجع حين وروده فيما بعد هكذا : الزركشي : البرهان .
وانظر : جلال الدين السيوطي : الاتقان في علوم القرآن ج١ ص ٢٥ ط ٣ ١٩٥١م مصطفى البابي الحلبي بمصر . وسيشار الى هذا المرجع حين وروده فيما بعد هكذا : السيوطي : الاتقان .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

مبعثه ، ثم قال - تعالى - له : ((فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين)) - الحجر : ٩٤ - "(١) .

الجو الذي نزلت فيه السورة :

نزلت السورة في جو مليء بالشدائد والمحن ، ، إذ فيه كان الاضطهاد والإيذاء الذي حدث بسببه فَتْنُ بعض المسلمين عن دينهم ، وهذا الذي اضطر المسلمين للهجرة إلى الحبشة فيما بعد الجهر بالدعوة .

ويدلنا على طبيعة ذلك الجو أيضا ما قاله ابن إسحاق ، قال :" ثم إنهم عدوا على من أسلم واتبع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - من أصحابه ، فوثبت كل قبيلة على من فيها من المسلمين ، فجعلوا يحبسونهم ، ويعذبونهم بالضرب والجوع والعطش . وبرمضاء مكة إذا اشتد الحر من استضعفوه منهم ، ويفتنونهم عن دينهم ، فمنهم من يفتن من شده البلاء الذي يصيبهم ، ومنهم من يصلب لهم ويعصمه الله منهم "(٢).

في هذه المرحلة من المراحل التي مرت بها الدعوة الإسلامية نزلت سورة فاطر ، لذلك كان التركيز فيها على إثبات الوحدانية لله - تعالى - حيث إن المشركين لم ينكروا وجود الله - سبحانه - ، ولكنهم كانوا ينكرون أنه وحده المستحق للعبادة ، وينكرون - كذلك - أنه وحده الذي يملك النفع والضر .

ونزلت السورة أيضا لتعطي المسلمين الزاد الفكري على طريق الدعوة ولتجيب على أسئلة المشركين وشبهاتهم حول الملائكة والبعث ، فكان في السورة كما يقول صاحب التفسير الحديث : إنذار للناس ودعوة إلى الحق، ولفت نظر إلى الكون وتواميسه للبرهنة على ربوبية الله - تعالى - واستحقاقه وحده للعبادة ، وتنويه بالمؤمنين المخلصين ، وتنديد بالكافرين، وبيان مصير كل منهم وإشارة إلى تمني العرب بعثة رسول منهم ، والأسباب

---

(١) انظر : أبو محمد عبدالملك بن هشام : السيرة النبوية ج ١ ص ٢٧١ ط دار الجيل ، بيروت . وسيشار الى هذا المصدر حين وروده فيما بعد هكذا : ابن هشام : السيرة .

(٢) انظر : الامام أبو الفداء اسماعيل بن كثير : السيرة النبوية ج ١ ص ٤٩٢ ط ٢ ١٩٧٨ م دار الفكر - بيروت . وسيشار الى هذا المصدر حين وروده فيما بعد هكذا : ابن كثير : السيرة .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

التي جعلتهم يناوئون النبي - صلى الله عليه وسلم - حينما بعثه الله ، وقد تكررت في السورة تسلية النبي - صلى الله عليه وسلم - مما يلقاه من تكذيب قومه ، مما يدل على أنها نزلت في ظروف كان الرسول - صلى الله عليه وسلم - فيها حزيناً شديد الحسرة (١) .

أين نزلت سورة فاطر ؟ :

تبين مما سبق أن سورة فاطر نزلت بمكة .

قال مجد الدين الفيروزأبادي : السورة مكية إجماعاً (٢) .

وفي الدر المنثور : أخرج ابن الضريس والبخاري وابن مردويه والبيهقي في الدلائل عن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال : أنزلت سورة فاطر بمكة .

وأخرج عبدالرزاق وابن المنذر عن قتادة - رضي الله عنه - قال : سورة الملائكة مكية (٣) .

علاقة السورة بالتي قبلها :

السورة التي قبل سورة فاطر في ترتيب المصحف هي سورة سبأ ، وهي سورة مكية ، وأهم موضوع تدور حوله هو إثبات الوحدانية لله - تعالى - كما هو الحال في سورة فاطر .

وفي البحر المحيط : لما ذكر تعالى في آخر السورة التي قبلها هلاك المشركين أعداء المؤمنين ، وأنزلهم منازل العذاب تعين على المؤمنين حمده - تعالى - وشكره لنعمائه ووصفه بعظيم آلائه (٤) .

وفي غرائب القرآن : لما بين في آخر السورة المتقدمة انقطاع رجاء

---

(١) محمد عزت دروزة : التفسير الحديث ج ٣ ص ٥ ط مصطفى البابي الحلبي ١٩٦٢ . وسيشار الى هذا المرجع حين وروده فيما بعد هكذا . دروزة : التفسير الحديث .

(٢) انظر مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزابادي : بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز ج ١ ص ٣٨٦ ط المكتبة العلمية - بيروت . وسيشار الى هذا المصدر حين وروده فيما بعد هكذا : الفيروزابادي : البصائر .

(٣) جلال الدين السيوطي : الدر المنثور في التفسير بالمأثور ج ٧ ص ٣ ط ٢ ١٩٨٣ دار الفكر - لبنان . وسيشار الى هذا المصدر حين وروده فيما بعد هكذا : السيوطي : الدر المنثور .

(٤) أبو عبد الله محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان الشهير بأبي حيان : التفسير الكبير المسمى بالبحر المحيط ج ٧ ص ٢٩٧ ط ١ ١٣٢٨ هـ مطبعة السعادة بمصر . وسيشار الى هذا المصدر حين وروده فيما بعد هكذا : أبو حيان : البحر المحيط .

٣٥٧٩٠٤

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الشاك وعدم قبول توبته في الآخرة ، ذكر في أول هذه السورة حال الموفق المؤمن ، وبشر بإرسال الملائكة إليهم مبشرين . وبين أنه يفتح لهم أبواب الرحمة (١) .

وفي مجمع البيان : لما ختم الله سبحانه السورة المتقدمة بالرد على أهل الشرك والشك والعناد ، افتتح هذه السورة بذكر كمال قدرته ووحدانيته ودلائل التوحيد (٢) .

فالسورة مرتبطة ارتباطاً وثيقا بالتي قبلها ، وهذا شأن سور القرآن كلها وحدة متصلة بعضها ببعض .

علاقة السورة بالتي بعدها :

السورة التي بعد سورة فاطر في ترتيب المصحف هي سورة " يس " وهي سورة مكية أيضاً ، وموضوعها هو الموضوع العام للسور المكية ، وهو التوحيد .

وفي مجمع البيان : لما ذكر سبحانه في آخر السورة أنهم أقسموا بالله ليؤمنن إن جاءهم نذير ، افتتح هذه السورة - أي سورة " يس " بأنهم لم يؤمنوا وقد جاءهم النذير (٣) .

---

(١) نظام الدين الحسن بن محمد بن حسين القمي : تفسير غرائب القرآن ورغائب الفرقان بهامش جامع البيان للطبري ج ٢٢ ص ٧٣ ط ١ المطبعة الكبرى الأميرية ببولاق - مصر ١٣٢٩ هـ . وسيشار الى هذا المرجع حين وروده فيما بعد هكذا : نظام الدين القمي : غرائب القرآن .

(٢) الشيخ ابو علي الفضل بن الحسن الطبرسي : مجمع البيان في تفسير القرآن ج ٨ ص ٦٢٤ ط دار المعرفة . وسيشار الى هذا المرجع حين وروده فيما بعد هكذا : الطبرسي : مجمع البيان .

(٣) المرجع نفسه ج ٨ ص ٦٤٨ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

علاقة سورة فاطر بالسور المفتتحة بالحمد :

في القرآن الكريم خمس سور مكية افتتحت بتقرير حقيقة أن الحمد لله وحده ، وكان لكل سورة منها منهج خاص في بيان ذلك ، كما قال القرطبي: " فان قيل : قد افتتح غيرها - أي سورة الأنعام - بالحمد لله فكان الاجتزاء بواحدة يغني عن سائره ؟ فيقال : لأن لكل واحدة منه معنى في موضعه لا يؤدى عن غيره من أجل عقده بالنعم المختلفة ، وأيضاً فلما فيه من الحجة في هذا الموضع على الذين هم بربهم يعدلون "(١) .

وأولى هذه السور هي سورة الفاتحة ، حيث قال تعالى : ((الحمد لله رب العالمين)) .

فالحمد لله وحده ، لأنه ربى العالم تربية خِلْقية أساسها الإيجاد والتصوير ، ورباه تربية عقلية أساسها منح قوى التفكير والإدراك ، ورباه تربية تشريعية قوامها الأحكام التي أوحى بها إلى رسله ، هذا كله منتظم في الحمد لله بربوبيته للعالمين ، وهي الربوبية المطلقة .

وثانيتها : سورة الأنعام : والتي فصلت نوعاً خاصاً من التربية ، وهو التربية الخِلْقية التي أساسها الخلق والإيجاد والتسوية والتصوير الحقيقي .

وثالثتها : سورة الكهف : والتي فصلت التربية التشريعية التي تهذب الروح وتهدي الفكر .

ورابعتها : سورة سبأ : فصلت أنواع التربية المطلقة التي تتجلى في إرساء مظاهر علم الله الشامل ، وملكه المطلق ، وتدبيره المحكم وقدرته النافذة التي تجعله أهلاً لكل حمد وثناء .

وخامستها سورة فاطر : وهي تهتم بإثبات أن الحمد لله وحده عن طريق الجمع بين التربيتين : الخِلْقية ، والتشريعية ، فهي تذكر خلق السموات والأرض والجبال،وتصريف الليل والنهار والشمس والقمر ، كما تذكر أنواع الناس في الانتفاع بوحي الله وبهدي أنبيائه ورسله (٢) .

---

(١) أبو عبد الله محمد بن احمد الانصاري القرطبي : الجامع لأحكام القرآن جـ ٦ ص ٣٨٤ ط ٢ ١٩٥٩ م ، دار الكتب المصرية . وسيشار الى هذا المصدر حين وروده فيما بعد هكذا : القرطبي : التفسير . ط ٢ .

(٢) انظر : د . محمد السيد طنطاوي : تفسير سورة الأنعام ص ٣٩ - ٤٠ ط ٣ ١٩٨٣ م مطبعة السعادة بمصر . وسيشار الى هذا المرجع حين وروده فيما بعد هكذا : طنطاوي : تفسير سورة الأنعام .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وللبقاعي في هذا المقام كلام لطيف ، حيث قال عند تفسيره لسورة الأنعام : " وهذه السورة أول السوز الأربع المشيرة إلى جميع النعم المندرجة تحت النعم الأربع ، فقوله : (خلق السموات والأرض ٠٠ الاية) ثم (خلقكم من طين) ثم (وما من دابة في الأرض ٠٠ الاية) متكفل بتفصيل نعمة الايجاد الأول لجميع العالمين من السموات والأرض وما بينهما وما فيهما من آدمي وغيره المشار اليه في الفاتحة بـ (رب العالمين)"(١).

وبعد أن بين كيفية تفصيل سورة الأنعام لنعمة الإيجاد الأول ، بين - عند تفسيره لسورة الكهف - كيف بينت نعمة الإبقاء الأول ، فينقل كلاماً للعلامة سعد الدين التفتازاني الشافعي ، وهو قوله : " وفي هذه السورة (إشارة) إلى الإبقاء الأول ، فإن نظام العالم وبقاء النوع الإنساني يكون بالنبي والكتاب ٠ انتهى " (٢) .

ثم يعقب البقاعي بقوله : " ويؤيد أنه في هذه السورة ذكر ، أنه انتظم بأهل الكهف أمر من اطلع عليهم من أهل زمانهم ، ثم بالخضر عليه السلام كثير من الأحوال ، ثم بذي القرنين أمر جميع أهل الأرض بما يسر له من الأسباب التي منها السد الذي بيننا وبين يأجوج ومأجوج ، الذين يكون بهم - اذا أخرجهم الله تعالى - فساد الأرض كلها "(٣) .

وأما في معرض الحديث عن سورة سبأ ، فقد نقل البقاعي كلاماً للتفتازاني فقال : " وأنه أشير في هذه السورة إلى الإيجاد الثاني لانسياق الكلام إلى إثبات الحشر ، والرد على منكري الساعة حيث قال - سبحانه - : ((وقال الذين كفروا لا تأتينا الساعة ، قل بلى وربي ٠٠)) ٠ انتهى "(٤).

---

(١) برهان الدين أبو الحسن ابراهيم بن عمر البقاعي : نظم الدرر في تناسب الآيات والسور ط ١/١٩٦٩ م ، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد - الدكن الهند ٠ وسيشار الى هذا المصدر حين وروده فيما بعد هكذا : البقاعي : نظم الدرر ٠

(٢) المرجع نفسه ج ١٢ ص ٤ ٠

(٣) المرجع نفسه ج ١٢ ص ٤ ٠

(٤) المرجع نفسه ج ١٥ ص ٤٤٠ ٠

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وفي نهاية المطاف تحدث عن ختام السور المفتتحة بالحمد ، وهي سورة فاطر ، وبين كيفية تفصيلها لنعمة الإبقاء الثاني - التي هي ختام النعم الأربع - فقال مستهلا كلامه على سورة فاطر : "هي ختام السور المفتتحة باسم الحمد التي تقدم عن الشيخ سعد الدين التفتازاني أنه فصلت فيها النعم الأربع التي هي أمهات النعم المجموعة في الفاتحة ، وهي: الإيجاد الأول ، ثم الإبقاء الأول ، ثم الإيجاد الثاني - المشار إليه بسورة سبأ - ثم الإبقاء الثاني الذي هو أنهاها وأحكمها ، وهو الختام المشار إليه بهذه السورة المفتتحة بالابتداء الدال عليه بأنهى القدرة وأحكمها ، المفصل أمره فيها في فريقي السعادة والشقاوة تفصيلاً شافياً على أنه استوفى في هذه السورة النعم الأربع "(١) .

ثم يربط البقاعي بين السور الخمس ربطاً تتضح من خلاله قوة الترابط وروعة التناسق بين سور القرآن كله ، مما يؤكد أن القرآن الكريم رتب على حسب الحوادث نزولاً ، وعلى حسب تناسب الموضوعات والسور والآي في المصحف ، فيقول عند تفسيره لسورة الكهف : " ولما كان إبقاء الأول يقتضي مهلة لبلوغ حد التكليف وإجراء القلم ، ثم مهلة أخرى يكون فيها العمل والاستعداد لما لأجله كان هذا الوجود من العرض على الرحمن للجزاء بالإساءة أو الإحسان، ومهلة أخرى يحبس فيها السابق من الخلائق إلى ورود مشرع الموت لانتظار اللاحق إلى بلوغ ما ضرب سبحانه من الآجال لأزمان الإمهال ، وقيام الناس أجمعين لرب العالمين ، وهو البرزخ ، وكان ما قبل التكليف شبيها بالعدم إلا في تعلم الكتاب والتوحيد والاجتماع على أهل الدين ، والوفاء بما تقدموا فيه بالعهد من الأحكام ودربوا عليه من الحلال والحرام ، أشير اليه بما بين الفاتحة والأنعام ، التي هي سورة الإيجاد الأول من السور الأربع ، وكأن سن الاحتلام كان أول الإيجاد من الإعدام ، وأشير إلى بقية العمر - وهو زمان التكليف - بما بين الأنعام وهذه السورة (الكهف) من السور التي ذكر فيها مصارع الأولين وأخبار الماضين ، تحذيراً من مثل أحوالهم لمن نسج على منوالهم ، وختمت بالتحميد مقترنا بالتوحيد إشارة إلى أنه يجب الاجتهاد

---

(١)البقاعي : نظم الدرر ج ١٦ ص ١ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

في آن يختم الأجل في أعلى ما يكون من خصال الدين ، وأشير إلى مهلة البرزخ بما بين هذه وسورة الإيجاد الثاني من السور التي ذكر في غالبها مثل ذلك ، وأكثر فيها كلها من ذكر الموت وما بعده من البرزخ الذي يكون لانقطاع العلائق باجتماع الخلائق ، لأجل التخلي في رد العظمة والكشف البليغ عن نفوذ الكلمة ، والتحلي بالحكم باستقرار الفريقين في دار النعيم أو غار الجحيم ، وأكثر فيما بين هذه وبين سبأ من أمر البعث كثرة ليست فيما مضى حتى صدر بعضها به ، وبناها عليه ، كسورتي "الأنبياء" ((اقترب للناس حسابهم ..)) "والحج" ((..ان زلزلة الساعة شيء عظيم)) ، ولما لم يكن بين البعث وما بعده مهلة لشيء من ذلك ، عقب سورة الإيجاد الثاني بسورة الإبقاء الثاني من غير فاصل ولا حاجز ولا حائل ... والله أعلم (١) .

ثم إنني وجدت الفخر الرازي - رحمه الله - قد تحدث في هذا الموضوع فأجاد وأفاد - وهو فارس هذا الميدان - فقال عند تفسيره لسورة سبأ :" السور المفتتحة بالحمد خمس سور ، سورتان منها في النصف الأول وهما الأنعام والكهف ، وسورتان في الأخير وهما هذه السورة ، وسورة الملائكة ، والخامسة وهي فاتحة الكتاب تقرأ مع النصف الأول ، ومع النصف الأخير . والحكمة فيها أن نعم الله مع كثرتها وعدم قدرتنا على إحصائها منحصرة في قسمين ، نعمة الإيجاد ، ونعمة الإبقاء ، فإن الله تعالى خلقنا أولاً برحمته ، وخلق لنا ما نقوم به ، وهذه النعمة توجد مرة أخرى بالإعادة ، فإنه يخلقنا مرة أخرى ويخلق لنا ما يدوم ، فلنا حالتان ، الابتداء والإعادة ، وفي كل حالة له علينا تعالى نعمتان ، نعمة الإيجاد ونعمة الإبقاء ، فقال في النصف الأول : ((الحمد لله الذي خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور...)) إشارة إلى الشكر على نعمة الإيجاد ويدل عليه قوله تعالى فيه : ((هو الذي خلقكم من طين)) إشارة إلى الايجاد الأول ، وقال في السورة الثانية وهي الكهف : ((الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجا .قيما ..)) إشارة إلى الشكر على نعمة الإبقاء ، فإن الشرائع بها البقاء ، ولولا شرع ينقاد له الخلق لاتبع كل واحد هواه ، ولوقعت المنازعات في المشتبهات ،

---

(١)البقاعي نظم الدرر ج ١٢ ص ٤ - ٦ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وأدى الى التقاتل والتفاني "(١) .

وقال عند تفسيره لسورة فاطر : وفي قوله في سورة سبأ : ((الحمد لله الذي له ما في السموات وما في الأرض ، وله الحمد في الآخرة ..)) إشارة إلى نعمة الإيجاد الثاني بالحشر ، واستدللنا عليه بقوله : ((يعلم ما يلج في الأرض)) من الأجسام ، ((وما يخرج منها وما ينزل من السماء)) من الأرواح ((وما يعرج فيها)) ، وقوله عن الكافرين : ((وقال الذين كفروا لا تأتينا الساعة ، قل بلى وربي ..)) وههنا الحمد إشارة إلى نعمة البقاء في الآخرة ، ويدل عليه قوله تعالى : ((جاعل الملائكة رسلاً)) ، أي يجعلهم رسلاً يتلقون عباد الله كما قال تعالى : ((وتتلقاهم الملائكة)) . ا هـ "(٢) .

ثم يربط الفخر الرازي بين سور الحمد ربطاً يجعل فيه مرجع الحمد في السور كلها الى قوله تعالى : ((الحمد لله رب العالمين)) من سورة الفاتحة ، ويوضح ذلك في الباب الثالث من الأسرار العقلية المستنبطة من الفاتحة ، في اللطيفة الثالثة من المسألة الأولى ، فقال : رحمه الله تعالى - : " إن هذه السورة مسماة بأم القرآن ، فوجب كونها كالأصل والمعدن، وأن يكون غيرها كالجداول المتشعبة منه ، فقوله ((رب العالمين)) تنبيه على أن كل موجود سواه فإنه دليل على إلهيته .

ثم إنه تعالى افتتح سوراً أربعة بعد هذه السورة بقوله (الحمد لله) فأولها سورة الأنعام ، وهو قوله : ((الحمد لله الذي خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور ..)) واعلم أن المذكور هنا قسم من أقسام قوله (رب العالمين) ،لأن لفظ العالم يتناول كل ما سوى الله ، والسموات والارض والنور والظلمة قسم من أقسام ما سوى الله ، فالمذكور في أول سورة الأنعام كأنه قسم من أقسام ما هو مذكور في أول الفاتحة ، وأيضاً فالمذكور في أول سورة الفاتحة كونه رباً للعالمين ، وقد بيّنا أنه متى ثبت أن العالم محتاج حال بقائه إلى إبقاء الله ، كان القول باحتياجه حال حدوثه إلى

---

(١) الامام الفخر الرازي : التفسير الكبير ج ٢٥ ص ٢٣٨ ط ٣ دار احياء التراث العربي - بيروت . وسيشار الى هذا المصدر حين وروده فيما بعد هكذا : الفخر الرازي : التفسير الكبير .

(٢) المرجع نفسه : ج ٢٦ ص ٢ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

المحدث أولى ، أما لا يلزم من احتياجه الى المحدث حال حدوثه احتياجه الى المبقي حال بقائه ، فثبت بهذين الوجهين أن المذكور في أول سورة الأنعام يجري مجرى قسم من أقسام ما هو مذكور في أول سورة الفاتحة .

وثانيها : سورة الكهف ، وهو قوله : ((الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ...)) والمقصود منه تربية الأرواح بالمعارف ، فإن الكتاب الذي أنزله على عبده سبب لحصول المكاشفات والمشاهدات ، فكان هذا إشارة إلى التربية الروحانية فقط ، وقوله في أول سورة الفاتحة (رب العالمين) إشارة إلى التربية العامة في حق كل العالمين ، ويدخل فيه التربية الروحانية للملائكة والإنس والجن والشياطين ، والتربية الجسمانية الحاصلة في السموات والأرضين ، فكان المذكور في أول سورة الكهف نوعاً من أنواع ما ذكره في أول الفاتحة .

وثالثها : سورة سبأ ، وهو قوله : ((الحمد لله الذي له ما في السموات وما في الأرض ...)) فبين في أول سورة الأنعام أن السموات والأرض له ، وبين في أول سورة سبأ أن الأشياء الحاصلة في السموات والأرض له ، وهذا أيضا قسم من الأقسام الداخلة تحت قوله ((الحمد لله رب العالمين)) .

ورابعها : قوله ((الحمد لله فاطر السموات والأرض ...))،والمذكور في أول سورة الأنعام كونه خالقا لها ، والخلق هو التقدير ، والمذكور في هذه السورة كونه فاطراً لها ومحدثاً لذواتها ، وهذا غير الأول ، إلا أنه أيضاً قسم من الأقسام الداخلة تحت قوله : ((الحمد لله رب العالمين)) ١٠ هـ [١] .

ونخلص من هذا الى تذكير الناس بهذه السور المفتتحة بالحمد بإنعام الله عليهم بنعمة الإيجاد وبنعمة الإمداد ، وما يعبد المشركون من دونه لا يغنون عنهم شيئاً [٢] .

---

(١) الفخر الرازي : التفسير الكبير ج ١ ص ١٨٠ - ١٨١ .

(٢) انظر : الشيخ محمد الطاهر بن عاشور : التحرير والتنوير ج ٢٢ ص ٢٤٨ ط الدار التونسية ، وسيشار الى هذا المرجع حين وروده فيما بعد هكذا: ابن عاشور : التحرير والتنوير .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

بسم الله الرحمن الرحيم

((الحمد لله فاطر السموات والأرض جاعل الملائكة رسلاً أولي أجنحة مثنى وثلاث ورباع ؛ يزيد في الخلق ما يشاء ، إن الله على كل شيء قدير . ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها ، وما يمسك فلا مرسل له من بعده ، وهو العزيز الحكيم . يا أيها الناس اذكروا نعمت الله عليكم ، هل من خالق غيرُ الله يرزقكم من السماء والأرض ، لا إله إلا هو فأنّى تؤفكون .)) فاطر : ١- ٣ .

المعنى الاجمالي :

بين الله - سبحانه - في هذه الآيات من السورة دلائل الأصل الأول من أصول الدين وهو توحيد الله - تعالى - ، واستدل لإثبات ذلك بمظاهر قدرته سبحانه في خلق السموات والأرض ، وخلق الملائكة وإرسال الرحمة وإمساكها ، وخلق الرزق من السماء والأرض ، وقسمته بين العباد .

فابتدأ المقطع بإثبات استحقاق الله للحمد دون سواه ، لأنه - سبحانه - هو الذي خلق السموات والأرض وحده ، خلق السموات التي فيها الملائكة وهم الذين جعل الله منهم الرسل إلى أنبيائه يبلغونهم رسالات الله لهداية البشر لما فيه حياة الدارين ، وهي أكبر نعمة أنعم بها الله على عباده ، نعمة الهداية والرشاد ، " وفي ذكره أنه جعل الملائكة رسلاً ولم يستثن منهم أحداً دليل على كمال طاعتهم لربهم وانقيادهم لأمره "(١) .

وأثبت سبحانه أنه قادر على كل شيء من خلق السموات والأرض والملائكة ، وزيادة ذلك حسبما تقتضيه حكمته وإرادته - سبحانه - .

وبين أنه مما يوجب استحقاقه للحمد دون سواه ، أنه : " ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ، وأنه لا مانع لما أعطى ولا معطي لما منع "(٢) بقوله : ((ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها ،

---

(١) عبدالرحمن بن ناصر السعدي : تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان ج ٦ ص ١٤٦ . وسيشار الى هذا المرجع حين وروده فيما بعد هكذا: ابن السعدي : تفسير كلام المنان .

(٢) ابن كثير : التفسير ج ٣ ص ٥٥٤ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وما يمسك فلا مرسل له من بعده وهو العزيز الحكيم)) .

وعن المغيرة بن شعبة : (إني سمعت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول إذا انصرف من الصلاة : لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير ، اللهم لا مانع لما أعطيت ولا معطي لما منعت ، ولا ينفع ذا الجد منك الجد)[١] .

وعن أبي سعيد الخدري - رضي الله عنه - قال : (إن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - كان إذا رفع رأسه من الركوع ، قال : ربنا لك الحمد ملء السماء والأرض ، وملء ما شئت من شيء بعد ، أهل الثناء والمجد ، أحق ما قال العبد ، وكلنا لك عبد ، اللهم لا مانع لما أعطيت ولا معطي لما منعت ، ولا ينفع ذا الجد ، منك الجد)[٢] .

والجد : الغنى والبخت ، أي لا ينفع المبخوت والغني حظه وغناه ، لأنهما منك ، إنما ينفعه الإخلاص والعمل بطاعتك [٣] .

ثم عبر عن إرسال الرحمة بالفتح إيذاناً بأنها أنفس الخزائن التي يتنافس فيها المتنافسون وأعزها منالاً [٤] .

---

(١) أخرجه البخاري : الصحيح : كتاب الدعوات باب (١٨) الدعاء بعد الصلاة ج ٧ ص ١٥١ .

(٢) أخرجه مسلم : الصحيح : كتاب الصلاة ، حديث (٢٠٥) ج١ ص ٣٤٧ .

(٣) علاء الدين علي بن محمد بن ابراهيم البغدادي المعروف بالخازن: التفسير المسمى (لباب التأويل في معاني التنزيل) ج٣ ص ٤٩٥ ط دار الفكر. وسيشار الى هذا المرجع حين وروده فيما بعد هكذا : الخازن : التفسير.

(٤) أبو السعود : التفسير ج ٧ ص ١٤٢ . وقال الزمخشري :" فان قلت : فما تقول فيمن فسر الرحمة بالتوبة وعزاه الى ابن عباس - رضي الله عنهما - ؟ قلت : ان أراد بالتوبة الهداية لها والتوفيق فيها وهو الذي أراده ابن عباس - رضي الله عنهما - ان قاله فمقبول ، وان أراد أنه ان شاء أن يتوب العاصي تاب وان لم يشأ لم يتب فمردود ، لأن الله - تعالى - يشاء التوبة أبدا ، ولا يجوز عليه أن لا يشاءها". الكشاف ج ٣ ص ٢٩٩. وهذا التفسير على طريقة الاعتزال ، وتحقيق المسألة : أن منشأ الضلال من التسوية بين المشيئة والارادة ، وبين المحبة والرضى .
فأهل السنة يفرقون بين المشيئة الكونية (كن فيكون) وبين الارادة ، وهي المشيئة التشريعية أي : الأمر والتكليف، بينما يقول المعتزلة : " ان العبد يخلق أفعال نفسه ، فهو يشاء الهداية والكفر، والله يحاسبه على مشيئته . فكان ضلالهم من ترتيبهم الجزاء على مشيئة الله لا على ارادة العبد .
ويقولون ايضا : ليست المعاصي محبوبه لله ولا مرضية له ، فليست مقدرة ولا مقضية ، فهي خارجة من مشيئته وخلقه ، اذ كيف يريد الله أمرا ولا يرضاه ولا يحبه ؟ وكيف يشاؤه ويكونه ؟ وكيف يجمع ارادته له =

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وما أدعى هذه الآية الى الإنقطاع إلى الله والإعراض عما سواه - عز وجل - وإراحة البال عن التخيلات الموجبة للتهويش وسهر الليال (١) .

ومعنى هذا أن على المؤمن أن لا ييأس من روح الله مهما ضاقت الحلقات ، وأيضا عليه أن لا يأمن المخبآت والمفاجآت ، حتى ولو أقبلت الدنيا عليه بكاملها (٢) .

وقد أخرج ابن المنذر عن عامر بن عبدقيس - رضي الله عنه - قال :(أربع آيات من كتاب الله إذا قرأتهن فما أبالي ما أصبح عليه وأمسي : ((ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها ، وما يمسك فلا مرسل له من بعده)) - فاطر : ٢ - ، ((وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو ، وإن يردك بخير فلا راد لفضله)) - الأنعام : ١٧ ، ((سيجعل الله بعد عسرٍ يسراً)) - الطلاق:٧ -

---

= وبغضه وكراهته ؟ .

والجواب : أن المراد نوعان : مراد لنفسه ، ومراد لغيره ، فالمراد لنفسه محبوب لذاته وما فيه من الخير ، فهو مراد ارادة الغايات والمقاصد ، والمراد لغيره قد لا يكون مقصودا لما يريد ، ولا فيه مصلحة له بالنظر الى ذاته ، وان كان وسيلة الى مقصوده ومراده ، فهو فيه الأمران : بغضه وارادته ، ولا يتنافيان ، لاختلاف متعلقهما .

ودخل عبدالجبار الهمذاني - أحد شيوخ المعتزلة - على الصاحب ابن عباد ، وعنده أبو اسحاق الاسفراييني - أحد أئمة السنة - فلما رأى الأستاذ قال : سبحان من تنزه عن الفحشاء ، فقال الأستاذ فورا : سبحان من لا يقع في ملكه الا ما يشاء ، فقال القاضي : أيشاء ربنا أن يعصى ؟ قال الأستاذ : أيعصى ربنا قهرا ؟ فقال القاضي : أرأيت ان منعني الهدى وقضى علي بالردى ، أحسن الي أم أساء ؟ فقال الاستاذ: ان منعك ما هو لك فقد أساء ، وان منعك ما هو له فهو يختص برحمته من يشاء .. فبهت القاضي ... انظر العلامة ابن ابي المعز الحنفي : شرح العقيدة الطحاوية ص ٢٧٨ وما بعدها ط ١ ١٩٨٣ م - المكتب الاسلامي . وسيشار الى هذا المصدر حين وروده فيما بعد هكذا : ابن ابي المعز : العقيدة الطحاوية .

(١) الألوسي : روح المعاني ج ٢٢ ص ١٦٥ .

(٢) محمد جواد مغنية : التفسير المبين (بهامش المصحف) ص ٧٥١ ط ٢ ، ١٩٨٣ ، مؤسسة عز الدين للطباعة والنشر - بيروت . وسيشار الى هذا المرجع حين وروده فيما بعد هكذا : محمد جواد مغنية : التفسير المبين .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

و ((وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها ...)) - هود : ٦ -)[١] .

" وفي الآية تنبيه على أنه لا إله إلا هو ، إذ لا يستطيع أحد إمساك ما فتح وفتح ما أمسك "[٢] ...

وكل ذلك يفعله - تعالى - بمقتضى الحكمة والعزة ، فهو - سبحانه - خلق الخلق ووهبهم العناية رحمة منه وفضلاً ، فهو الخالق وهو الرازق ، لذلك أمر الناس بذكر هذه النعم فقال : ((يا أيها الناس اذكروا نعمت الله عليكم ، هل من خالق غير الله يرزقكم من السماء والأرض)) . ثم رتب على ذكر الخالقيّة والرازقية وكمال القدرة والإرادة تفرده - سبحانه - بالإلهية ، فقال : ((لا إله إلا هو فأنى تؤفكون)) فكانت خاتمة هذا المقطع إثبات التوحيد ونفي الشرك وهذا هو أساس ما جاءت به الرسالات ، ومحور هذه السورة .

التحليل اللفظي :

الحمد : هو الثناء باللسان على الجميل الصادر عن اختيار من نعمة أو غيرها[٣] . والفرق بين الحمد والمدح والشكر من وجوه :

الأول : أن المدح قد يحصل للحي ولغير الحي ، ألا ترى أن من رأى لؤلؤة في غاية الحسن أو ياقوتة في غاية الحسن فانه قد يمدحها ويستحيل أن يحمدها فثبت أن المدح أعم من الحمد .

والوجه الثاني : أن المدح قد يكون قبل الإحسان ، وقد يكون بعده ، أما الحمد فإنه لا يكون إلا بعد الإحسان .

والوجه الثالث : أن المدح قد يكون منهياً عنه ، قال عليه الصلاة والسلام : (احثوا التراب في وجوه المداحين). أما الحمد فإنه مأمور به مطلقاً ، قال صلى الله عليه وسلم : (من لم يحمد الناس لم يحمد الله) .

والوجه الرابع : أن المدح عبارة عن القول الدال على كونه مختصاً بنوع من أنواع الفضائل ، وأما الحمد ، فهو القول الدال على كونه مختصاً بفضيلة معينة وهي فضيلة الإنعام

---

(١) السيوطي : الدر المنثور ج ٧ ص ٥ .
(٢) ابو الفرج عبدالرحمن بن علي بن محمد بن الجوزي : زاد المسير في علم التفسير ج ٦ ص ٤٧٣ ط ١٩٦٥ م ،المكتب الاسلامي للطباعة والنشر . وسيشار الى هذا المصدر حين وروده فيما بعد هكذا: ابن الجوزي: زاد المسير .
(٣) طنطاوي : تفسير سورة الأنعام ص ٣٨ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

والإحسان ، فثبت أن المدح أعم من الحمد .

وأما الفرق بين الحمد وبين الشكر ، فهو أن الحمد يعم ما إذا وصل ذلك الإنعام إليك أو إلى غيرك ، وأما الشكر ، فهو مختص بالإنعام الواصل اليك (١) .

(أل) : التي في الحمد هي للجنس في أي فرد من أفراده ، لا للاستغراق ولا للعهد المخصوص ، لأنه لا يُصار إلى كل منهما في فهم الكلام إلا بدليل ، وهو غير موجود في الآية ، ومعنى كون الحمد لله تعالى بأي نوع من أنواعه هو أن أي شيء يصح الحمد عليه فهو مصدره ، وإليه مرجعه ، فالحمد له على كل حال (٢) .

(اللام): في قوله (الحمد لله) تحتمل وجوهاً :

أحدها : الاختصاص اللائق .. كقولك : المفتاح للباب .

وثانيها : الملك ، كقولك : الدار لزيد .

وثالثها : القدرة والاستيلاء كقولك : البلد للسلطان .

واللام في قولك (الحمد لله) تحتمل هذه الوجوه الثلاثة ، فإن حملته على الاختصاص اللائق فمن المعلوم أنه لا يليق الحمد إلا به لغاية جلاله وكثرة فضله وإحسانه ، وإن حملته على الملك فمعلوم أنه تعالى مالك للكل ، فوجب أن يملك منهم كونهم مشتغلين بحمده ، وإن حملته على الاستيلاء والقدرة ، فالحق سبحانه وتعالى كذلك لأنه واجب لذاته ، وما سواه ممكن لذاته ، فالحمد لله بمعنى : إن الحمد لا يليق إلا به (٣) .

(فاطر): أصل الفطر : الشق طولاً (٤) .

والفاطر : فاعل الفطر ،وهو الخلق ، وفيه معنى التكون سريعا ، لأنه مشتق من الفطر وهو الشق ، ومنه (تكاد السموات يتفطرن من فوقهن) (إذا السماء انفطرت) (٥) .

---

(١) الرازي : التفسير الكبير ج١ص ١٦٩-١٧٠ط استانبول ١٣٠٧ هـ دار الطباعة العامرة .

(٢) محمد رشيد رضا : تفسير القرآن الحكيم والشهير بتفسير المنار ج ١ص ٤٩ ط٢ دار المعرفة للطباعة والنشر - بيروت . وسيشار الى هذا المرجع حين وروده فيما بعد هكذا . رشيد رضا : المنار .

وقال محمد السيد طنطاوي : (أل) في (الحمد) للاستغراق بمعنى ان المستحق لجميع المحامد ولكافة الوان الثناء هو الله - تعالى - ، وانما كان الحمد مقصورا في الحقيقة على الله ، لأن كل ما يستحق أن يقابل بالثناء فهو صادر عنه ومرجعه اليه ، اذ هو الخالق لكل شيء ، وما يقدم الى بعض الناس من حمد جزاء احسانهم فهو في الحقيقة حمد الله ، لأنه - سبحانه - هو الذي وفقهم لذلك وأعانهم عليه . تفسير سورة الأنعام ص ٣٨ .

(٣) انظر الرازي : التفسير الكبير ج ١ ص ١٧١ ط استانبول .

(٤) الراغب الأصفهاني : المفردات في غريب القرآن ص ٣٨٢ ط دار المعرفة . وسيشار فيما بعد اليه هكذا : الراغب : المفردات .

(٥) ابن عاشور : التحرير والتنوير ج ٢٢ ص ٢٤٩ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وقال الضحاك : كل شيء في القرآن فاطر السموات والأرض فهو خالق السموات والأرض [١] ، وعن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال : كنت لا أدري ما (فاطر السموات والأرض) حتى أتاني أعرابيان يختصمان في بئر ، فقال أحدهما : أنا فطرتها ، قال : ابتدأتها [٢] .

(ألو) : اسم جمع لـ (ذو) [٣] .

(مثنى وثلاث ورباع): قال ابن جرير : واختلف أهل العربية في علة ترك إجراء مثنى وثلاث ورباع ، وهي ترجمة عن أجنحة ، وأجنحة نكرة ، فقال بعض نحويي البصرة : ترك إجراؤهن ، لأنهن مصروفات عن وجوههن ، وذلك أن مثنى مصروف عن اثنين ، وثلاث عن ثلاثة ، ورباع عن أربعة ، فصرف نظير عمر وزفر إذ صرف هذا عن عامر إلى عمر ، وهذا عن زافر إلى زفر ، وأنشد بعضهم في ذلك :

ولقد قتلتكم ثناء وموحداً ∴ وتركت مرة مثل أمس المدبر

وقال آخر منهم : لم يصرف ذلك ، لأنه يوهم به الثلاثة والأربعة قال : وهذا لا يستعمل إلا في حال العدد ، وقال بعض نحويي الكوفة : هن مصروفات عن المعارف لأن الألف واللام لا تدخلها ، والإضافة لا تدخلها ، قال : ولو دخلتها الإضافة والألف واللام لكانت نكرة ، وهي ترجمة عن النكرة ، قال : وكذلك ما كان في القرآن مثل: أن تقوموا لله مثنى وفرادى ، وكذلك وحاد وآحاد ، وما أشبهه من مصروف العدد [٤] .

---

(١) ابو الفداء اسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي : تفسير القرآن العظيم ج ٣ ص ٥٥٤ ط ١ دار المعرفة - بيروت ١٩٨٦ م . وسيشار الى هذا المصدر حين وروده فيما بعد هكذا : ابن كثير : التفسير .

(٢) السيوطي : الدر المنثور ج ٧ ص ٣ .

(٣) القاضي أبو السعود محمد بن محمد العمادي : ارشاد العقل السليم الى مزايا القرآن الكريم ج ٧ ص ١٤١ ط دار احياء التراث العربي - بيروت . وسيشار الى هذا المصدر حين وروده فيما بعد هكذا : أبو السعود التفسير.

(٤) أبو جعفر محمد بن جرير الطبري : جامع البيان في تفسير القرآن ج ٢٢ ص ٧٦ ط ١ ١٣٢٩ هـ المطبعة الكبرى الاميرية ببولاق - مصر . وسيشار الى هذا المصدر حين وروده فيما بعد هكذا : الطبري : التفسير ، وقال الزمخشري : وانما لم تنصرف لتكرر العدل فيها ، وذلك أنها عدلت عن ألفاظ الأعداد عن صيغ الى صيغ أخر ، كما عدل عمر عن عامر،وحذام عن حاذمة ، وعن تكرير الى غير تكرير وأما الوصفية فلا يقترن الحال فيما بين المعدولة والمعدول عنها ، ألا تراك تقول : مررت بنسوة أربع وبرجال ثلاثة ، فلا يعرج عليها - الكشاف ج ٣ ص ٢٩٨ .

ورد ابو حيان على الزمخشري بقوله : المشهور أنها امتنعت من الصرف للصفة والعدل ، وأما قوله : الا تراك ... الخ . فانه قاس الصفة في هذا المعدول على الصفة في أفعل وفي ثلاثة ، وليس بصحيح ، لأن مطلق الصفة لم يعدوه علة ، بل اشترطوا فيه ، فليس الشرط موجودا في أربع ، لأن شرطه أن لا يقبل تاء التأنيث ، وليس شرطه في ثلاثة موجودا لأنه لم يجعل علة مع التأنيث ، فقياس الزمخشري قياس فاسد ، اذ غفل عن شرط كون الصفة علة - البحر المحيط ج ٧ ص ٢٩٨ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

(ما): شرطية ، أي اسم فيه معنى الشرط ، وأصلها : اسم موصول ضمن معنى الشرط ، فانقلبت صلته إلى جملة شرطية ،وانقلبت جملة الخبر جواباً واقترنت بالفاء لذلك ، فأصل (ما) الشرطية هو الموصولة (١) .

(الفتح) : إزالة الإغلاق والإشكال ، وذلك ضربان : أحدهما يدرك بالبصر كفتح الباب ونحوه ، ... والثاني يدرك بالبصيرة كفتح الهم .. وفتح عليه كذا إذا أعلمه ووقفه عليه ، قال تعالى: ((أتحدثونهم بما فتح الله عليكم)) ...((ما يفتح الله للناس)) (٢).

(الإمساك) حقيقته : أخذ الشيء باليد مع الشد عليه بها لئلا يسقط أو ينفلت ... والإرسال : ضد الامساك (٣) .

وجوه القراءات (٤) :

اختلف القراء في قوله تعالى : (غير الله) فقرأ أبو جعفر وحمزة والكسائي وخلف بخفض الراء ، وقرأ الباقون برفعها (٥) .

---

(١) ابن عاشور : التحرير والتنوير ج ٢٢ ص ٢٥٢ .

(٢) الراغب : المفردات ص ٣٧٠ .

(٣) ابن عاشور : التحرير والتنوير ج ٢٢ ص ٢٥٢ - ٢٥٣ .

(٤) قال الزمخشري : " قرئ (الذي فطر السموات والأرض وجعل الملائكة) الكشاف ج ٣ ص ٢٩٧ . قال أبو حيان : فمن قرأ (فطر) و (جعل) فينبغي أن تكون هذه الجمل اخباراً من العبد الى ما أسداه الينا من النعم ، كما تقول : الفضل لزيد ، أحسن الينا بكذا ، خولنا كذا ، يكون ذلك جهة بيان لفعله الجميل ، كذلك يكون في قوله (فطر) و (جعل) ، لأن في ذلك نعما لا تحصى - البحر المحيط ج ٧ ص ٢٩٧ .

(٥) محمد بن محمد بن يوسف الجزري : النشر في القراءات العشر ج ٢ ص ٣٥١ ط دار الكتب العلمية بيروت . وسيشار الى هذا المصدر حين وروده فيما بعد هكذا : ابن الجزري : النشر .

وانظر : ابن الجزري : تقريب النشر في القراءات العشر ص ١٦٤ ط ١ ١٩٦١ مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر - وسيشار الى هذا المرجع حين وروده فيما بعد هكذا . ابن الجزري : تقريب النشر .

وانظر ابن الجزري : تحبير التيسير في قراءات الأئمة العشرة ص ١٦٣ ط دار الوعي - حلب ١٩٧٢ م . وسيشار الى هذا المرجع حين وروده فيما بعد هكذا ابن الجزري : تحبير التيسير .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

والحجة لمن رفع : أنه أراد (هل غير الله من خالق) أو يجعلـه نعتـاً لخالق قبل دخول (من) أو يجعل (هل)بمعنى (ما) و (غيراً) بمعنى (إلا) كقوله (ما لكم من إله غيره) - الأعراف : ٥٩ .

والحجة لمن خفض : أنه جعله نعتاً لخالق . أراد : (هل مـن خالـق غير الله يرزقكم)[١] .

الإعـــــراب :

جاعـل : يطلق بمعنى مكون ، وبمعنى مصير . وعلى الاعتبارين يختلف موقع قوله (رسلاً) : بين أن يكون مفعولاً ثانياً لـ (جاعـل) أي جعل الله الملائكة ، أي ليكونوا رسلاً منه تعالى لمـا يريد أن يفعلوه بقوتهم الذاتية ، وبين أن يكون حـالاً من (الملائكة) ، أي جعل من أحوالهم أن يرسلوا.ولصلاحيـة المعنيين أوثـرت مادة الجعل دون أن يعطف على معمـول (فاطر)[٢] .

أولي أجنحة : يجوز أن يكون حالاً من (الملائكة) فتكون الأجنحة ذاتيـة لهم من مقومات خلقتهم ، ويجوز أن يكون حالاً من الضميـر في (رسلاً) فيكون خاصة بحال مرسوليتهم[٣] .

مثنى وثلاث ورباع : صفات لأجنحة ، والقصد بها التكثير واختلافهم في عـد الأجنحة لا الحصر ، وإلا فبعضهم له ستمائة جناح[٤] .

وعن أبي إسحاق الشيباني ، قال " : سألت زر بن حبيش عن قـول الله عز وجل : (فكان قاب قوسين أو أدنى) قال : أخبرني ابن مسعود أن النبي - صلى الله عليه وسلم - رأى جبريل له ستمائة جناح"[٥] .

---

(١) الامام ابن خالويه : الحجة في القراءات السبع ص ٢٧٠ ط دار الشـروق بيروت ١٩٧١ م تحقيق د . عبدالعال سالم مكرم . وسيشار الى هـذا المصدر حين وروده فيما بعد هكذا : ابن خالويه : الحجة .
(٢) ابن عاشور : التحرير والتنوير ج ٢٢ :ص ٢٤٩ .
(٣) المرجع نفسه ج ٢٢ ص ٢٤٩ .
(٤) صديق حسن خان : فتح البيان في مقاصد القرآن ج ٧ ص ٤٧٠ ط عبدالمحيي علي محفوظ . وسيشار الى هذا المرجع حين وروده فيما بعد هكـذا : صديق خان : فتح البيان .
(٥) أخرجه البخاري : الصحيح : كتاب بدء الخلق باب (٧) جـ٤ ص ٨٣ .
ومسلم : الصحيح : كتاب الايمان باب (٧٦) حديث (٢٨٠) ج ١ ص ١٥٨ .
والترمذي : السنن : كتاب التفسير باب (٥٤) ج ٥ ص ٣٩٤ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

يزيد في الخلق ما يشاء : مستأنفة مقررة لما قبلها من تفاوت أحوال الملائكة [١] .

وهذا التقرير لما يقع في النفوس من التعجب والاستغراب من خبر الملائكة ، أي ليس هذا ببدع في قدرة الله ، فإنه يزيد في خلقه ما يشاء ، والظاهر عموم الخلق [٢] .

جملة (إن الله على كل شيء قدير) تعليل لجملة (يزيد في الخلق ما يشاء) [٣] .

(ما) الشرطية محلها الابتداء ، وجواب الشرط أغنى عن الخبر [٤] .

وضمير (لها) وضمير (له) عائدان إلى (ما) من قوله (ما يفتح الله للناس من رحمة) [٥] .

وأنث الضمير الراجع إلى الاسم المتضمن معنى الشرط على معنى الرحمة ، ثم ذكره حملا على اللفظ المرجع إليه [٦] .

وقال الفراء : قوله : " وما يمسك فلا مرسل له) ولم يقل (لها) وقد قال قبل ذلك (ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها) فكأن التأنيث في (لها) لظهور الرحمة ، ولو قال : (فلا ممسك له) لجاز ، لأن الهاء انما ترجع على (ما) ولو قيل في الثانية (فلا مرسل لها) ،،

---

(١) صديق خان : فتح البيان ج ٧ ص ٤٧٠ .
وقال ابن عاشور : ويجوز أن تكون جملة (يزيد في الخلق ما يشاء) صفة ثانية للملائكة ، أي : أولي أجنحة مثنى وثلاث ورباع يزيد في خلقهم ما يشاء ، كأنه قيل : مثنى وثلاث ورباع وأكثر ، فما في بعض الاحاديث من كثرة أجنحة جبريل يبين معنى " يزيد في الخلق ما يشاء " وعليه ، فالمراد بالخلق ما خلق عليه الملائكة من أن لبعضهم أجنحة زائدة على ما لبعض آخر . التحرير والتنوير ج ٢٢ ص ٢٥١ .

(٢) ابو حيان : البحر المحيط ج ٧ ص ٢٩٩ .

(٣) ابن عاشور : التحرير والتنوير ج ٢٢ ص ٢٥١ .

(٤) المرجع نفسه ج ٢٢ ص ٢٥٢ .

(٥) المرجع نفسه ج ٢٢ ص ٢٥٣ .

(٦) أبو البركات عبد الله بن احمد بن محمود النسفي : تفسير القرآن الجليل المسمى بمدارك التنزيل وحقائق التأويل ج ٣ ص ١١١ط وزارة التربية والتعليم - بمصر - القاهرة - الهيئة العامة لشئون المطابع الاميرية ١٩٦٢ م . وسيشار الى هذا المصدر حين وروده فيما بعد هكذا . النسفي: التفسير .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

لأن الضمّير على الرحمة جاز ، ولكنها لما سقطت الرحمة في الثاني ذكر على (ما) (١) .

(هل من خالق غير الله يرزقكم من السماء والأرض) استفهام على جهة التقرير معناه النفي ، ليقروا بأنه لا خالق إلا الله يرزق من السماء والأرض(٢) .

والاهتمام بهذا الاستثناء أي (غير) تقدم في الذكر قبل ما هو في قوة المستثنى منه ، وجعل صفة لـ (خالق) ؛ لأن (غير) صالحة للاعتبارين ؛ولذلك جرت القراءات المشهورة على اعتبار (غير) هنا وصفاً لـ (خالق) فجمهور القراء قرأوه برفع (غير) على اعتبار محل (خالق) المجرور بـ (من) لأن محله رفع بالابتداء وانما لم يظهر الرفع للاشتغال بحركة حرف الجر الزائد (٣) .

---

(١) أبو زكريا الفراء : معاني القرآن ج ٢ ص ٣٦٦ ط الدار المصرية . وسيشار الى هذا المصدر حين وروده فيما بعد هكذا . الفراء : معاني القرآن .

قال الزمخشري : (من بعده) ... أي من بعد هدايته .. الكشاف ج ٣ ص ٢٩٩ .

قال أبو حيان : وهو تقدير فاسد لا يناسب الآية ، جرى فيه على طريقة الاعتزال . البحر المحيط ج ٧ ص ٢٩٩ .

ويقول المعتزلة : الهدى من الله : بيان طريق الصواب . والاضلال : تسمية العبد ضالا . وحكمه تعالى على العبد بالضلال ، عند خلق العبد الضلال في نفسه .

وهذا مبني على أصلهم الفاسد : ان أفعال العباد مخلوقة لهم ،والدليل على أن الهدى والضلال بمشيئة الله ، قوله تعالى : (انك لا تهدي من احببت ، ولكن الله يهدي من يشاء) ـ القصص : ٥٦ . ولو كان الهدى بيان الطريق لما صح هذا النفي عن نبيه ، لأنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ بين الطريق لمن أحب وأبغض ... ولو كان الهدى من الله البيان ـ وهو عام في كل نفس ـ لما صح التقيد بالمشيئة .
انظر العقيدة الطحاوية . ص ١٥٥ وما بعدها .

(٢) أبو حيان : البحر المحيط ج ٧ ص ٢٩٩ ـ ٣٠٠ .
والطبرسي : مجمع البيان ج ٨ ص ٦٢٨ .

(٣) ابن عاشور : التحرير والتنوير ج ٢٢ ص ٢٥٤ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وجملة (يرزقكم) يجوز أن تكون وصفاً ثانيا لـ (خالق) ويجوز أن تكون استئنافاً بيانياً[١] .

(لا إله إلا هو): جملة مفصولة ، لا محل لها من الإعراب [٢] .

(أنى) : اسم استفهام يجيء بمعنى استفهام عن الحالة أو عن المكان أو عن الزمان والاستفهام عن حالة انصرافهم هو المتعين هنا وهو استفهام مستعمل في التعجيب من انصرافهم عن الاعتراف بالوحدانية تبعاً لمن يصرفهم ، وهم أولياؤهم وكبراؤهم .

و(تؤفكون): مبني للمجهول من أفكه من باب ضربه ، إذا صرفه وعدل به ، فالمصروف مأفوك . وحذف الفاعل هنا ، لأن آفكيهم أصناف كثيرون [٣] .

البلاغة :

في قوله تعالى : ((ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها)) استعارة تمثيلية ، شبه إرسال النعم بفتح الخزائن للإعطاء ، وكذلك حبس النعم بالإمساك ، واستعير الفتح للإطلاق والإرسال . كما استعير الإمساك للمنع [٤] .

وبين قوله (يفتح ... ويمسك) طباق [٥] .

لطيفة : قال القاسمي : وإنما قال : (هل من خالق غير الله) وإن كان أحدنا يخلق الشيء ، لأن هذه الصفة لا تطلق إلا عليه تعالى ، فأما غيره فإنها تقيد له ، وأيضا فقد فسر ما أراد ، وهو أنه هل من خالق رازق للخلق من السموات والأرض غير الله ، أي لا خالق على هذه الصفة إلا هو [٦] .

---

(١) ابن عاشور التحرير والتنوير ج ٢٢ ص ٢٥٤ .

(٢) الزمخشري : الكشاف ج ٣ ص ٣٠٠ ، وأبو حيان : البحر المحيط ج ٧ ص ٣٠٠ .

(٣) ابن عاشور : التحرير والتنوير ج ٢٢ ص ٢٥٦ .

(٤) الزمخشري : الكشاف ج ٣ ص ٢٩٨ وأبو حيان : البحر المحيط ج ٧ ص ٢٩٩ ، وابن عاشور : التحرير والتنوير ج ٢٢ ص ٢٥٢ ، ومحمد علي الصابوني : صفوة التفاسير ج ٢ ص ٥٧٠ ط ٤ ١٩٨١ . دار القرآن الكريم - بيروت ، وسيشار الى هذا المرجع حين وروده فيما بعد هكذا : الصابوني : الصفوة .

(٥) الصابوني : الصفوة ج ٢ ص ٥٧٠ .

(٦) القاسمي : محاسن التأويل ج ٨ ص ٤١٣ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

((وإن يكذبوك فقد كُذبت رسل من قبلك ، وإلى الله ترجع الأُمور)) فاطر : ٤ .

وجه الارتباط بالآيات السابقة :

لما بين سبحانه - في الآيات السابقة أدلة وحدانيته ، بين في هذه الآية أن نتيجة ما عرضه عليهم من الأدلة هو ما جاء به الرسول - صلى الله عليه وسلم - ولما كذبوه - صلى الله عليه وسلم - جاء في هذه الآية تسلية له بعموم البلية والإشارة إلى الوعد والوعيد (١) .

قال ابن عاشور : وإذ قد أبان لهم الحجة على انفراد الله تعالى بالإلهية حين خاطبهم بذلك نقل الإخبار عن صدق الرسول - صلى الله عليه وسلم - فيما أنكروا قبوله منه ، فإنه لما استبان صدقه في ذلك بالحجة ناسب أن يعرض إلى الذين كذبوه بمثل عاقبة الذين كذبوا الرسل من قبله ، وقد أدمج من خلال ذلك تسلية الرسول - صلى الله عليه وسلم - على تكذيب قومه إياه بأنه لم يكن مقامه في ذلك دون مقام الرسل السابقين (٢) .

المعنى الإجمالي :

هذه الآية خطاب لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - وتسلية له ، أي إن حدث منهم تكذيب بعد ما قرع أسماعهم من البراهين الدامغة ، فلا يحزنك تكذيبهم ، إذ قد كذبت رسل من قبلك ذوو عدد كثير وأولو آيات ونذر وأهل أعمار طوال ، وأصحاب صبر وعزم ، فاصبر كما صبر الرسل من قبلك ، وإلى الله ترجع الأحوال كلها يتصرف فيها كيف يشاء ، فيجازي - سبحانه - كلاً منك ومنهم بما يليق به .

---

(١) ابو السعود : التفسير ج ٧ ص ١٤٣ .

(٢) ابن عاشور : التحرير والتنوير ج ٢٢ ص ٢٥٦ .

(٣) محمد بن علي بن محمد الشوكاني : فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير ج ٤ ص ٣٣٨ ط محفوظ العلي - بيروت ،وسيشار الى هذا المرجع حين وروده فيما بعد هكذا : الشوكاني : فتح القدير .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الإعـــــــراب :

قال الزمخشري : فإن قلت : ما وجه صحة جزاء الشرط ومن حـــــق الجزاء أن يتعقب الشرط ، وهذا سابق له ؟ قلت : معناه : وإن يكذبوك فتأس ، بتكذيب الرسل من قبلك ، فوضع (فقد كذبت رسل من قبلك) موضع فتأس ، استغناء بالسبب عن المسبب ، أي بالتكذيب عـــــن التأسي (١) .

البلاغـــــــــة :

قال أبو السعود : وفي الاقتصار على ذكر اختصاص المرجـــع بالله تعالى مع ابهام الجزاء ثوابا وعقابا من المبالغة في الوعـــد والوعيد ما لا يخفى (٢) .

---

(١) الزمخشري : الكشاف ج ٣ ص ٣٠٠ .

(٢) ابو السعود : التفسير ج ٧ ص ١٤٣ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

((يا أيها الناس إن وعد الله حق ، فلا تغرنكم الحياة الدنيا ، ولا يغرنكم بالله الغَرور . إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدواً ، إنما يدعوا حزبه ليكونوا من أصحاب السعير . الذين كفروا لهم عذاب شديد ، والذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم مغفرة وأجر كبير . أفمن زين له سوء عمله فرءاه حسنا فإن الله يضل من يشاء ويهدي من يشاء ، فلا تَذهب نفسُك عليهم حسرات إن الله عليم بما يصنعون . فاطر : ٥ - ٨ .

المعنى الاجمالي :

يبين الله - سبحانه وتعالى - في هذه الآيات البينات أن وعده بوقوع البعث واليوم الآخر وعد حق ، متحقق لا محالة ، فقال : (يا أيها الناس ان وعد الله حق) ونهى عباده عن الاغترار بالدنيا وزخرفها والركون إليها (فلا تغرنكم الحياة الدنيا) ، ثم حذرهم من اتباع الشيطان والاغترار بتزيينه لسوء العمل (ولا يغرنكم بالله الغرور) .

ثم يقرر - سبحانه - أن الشيطان عدو دائم للناس ، ويجب عليهم أن يتخذوه عدواً ويناصبوه العداء أبداً ، ولا يأخذوا شيئا منه قط ، فإنه لا يهدي أبداً إلا إلى الشر الموصل إلى نار جهنم - والعياذ بالله - فقال : (إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدواً ، إنما يدعوا حزبه ليكونوا من أصحاب السعير) .

وبعد أن بين لهم حقيقة الشيطان وكشف زيفه ، بين مصير من يتبعه ومصير من يتخذه عدواً (الذين كفروا لهم عذاب شديد ، والذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم مغفرة وأجر كبير) فكان العذاب الشديد جزاء من اتبع الشيطان وحارب الرحمن ، والمغفرة والأجر الكبير جزاء المؤمنين المطيعين لرب العالمين .

وبعد أن بين عاقبة كل فريق من المؤمنين والكافرين ، بين - سبحانه - الحال التي كانوا عليها ، أو التي بسببها آل كل منهم إلى عاقبته ، فقال: (أفمن زين له سوء عمله فرءاه حسنا) وفي الكلام اختصار وهو (كمن لم يزين له سوء عمله) ، كلا ليس المؤمن كالكافر ، فكل له جزاء على ما قدم من عمل ، فمن عمل صالحاً لقي الحسنى ، ومن عمل سوءاً لقي السوء - والعياذ بالله - ثم يسلي - سبحانه - رسوله محمداً - صلى الله عليه وسلم - وينهاه عن إهلاك نفسه حسرة وندماً وغماً على ما فات من عدم إيمانهم ، وكفرهم بالله العزيز الحميد ، ويبين له أن الهداية والضلال أمران بيد

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الله وحده ، وليس عليه إلا دعوتهم وتبليغهم الرسالة ، فإن الله يزيد من أصر على الضلال ضلالاً ، ويثبت من اهتدى ويزيده هدى ، ثم تنتهي الآيات بالوعيد من العزيز الجبار بإمهاله لهم ، وأنه سيعاقبهم بما يستحقون ، فقال : (إن الله عليم بما يصنعون) وفيها تسلية لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - .

التحليل اللفظي :

الوعد : مصدر ، وهو الإخبار عن فعل المخبر شيئاً في المستقبل، والأكثر أن يكون فيما عدا الشر ، ويخص الشر منه باسم الوعيد ، وهو هنا مستعمل في القدر المشترك ...وإضافته إلى الاسم الأعظم توطئة لكونه حقاً ، لأن الله لا يأتي منه الباطل ،والحق هنا مقابل الكذب ، والمعنى : إن وعد الله صادق (١) .

الغرور : بضم الغين ، ويقال : التغرير : إيهام النفع والصلاح فيما هو ضر وفساد . يقال : غررت فلاناً ، أصبت غرته ونلت منه ما أريده (٢) .

والغرور بفتح الغين : هو الشديد التغرير ، وهو كل ما يغر الإنسان من مال وجاه وشهوة ، وقد فسر بالشيطان إذ هو أخبث الغارّين (٣) .

اللام : في قوله (لكم) لام الاختصاص ، وهي التي تتضمنها الإضافة ، فلما قدم ما حقه أن يكون مضافاً إليه ، صرح باللام ليحصل معنى الإضافة (٤) .

اللام : في قوله (ليكونوا من أصحاب السعير) يجوز أن تكون لام العلة ، فإن الشيطان قد يكون ساعياً لغاية إيقاع الآدميين في العذاب نكاية بهم ، وهي علة للدعوة مخفية في خاطره الشيطاني، وإن كان لا يجهر بها ، لأن إخفاءها من جملة كيده وتزيينه ، ويجوز أن تكون اللام لام العاقبة والصيرورة ، مثل : (فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدواً وحزناً) (٥) .

السعير : النار الشديدة ،وغلب في لسان الشرع على جهنم (٦) .

التزيين : تحسين ما ليس بحسن بعضه أو كله ، وقد صرح هنا بضده في قوله (سوء عمله) أي صورت لهم أعمالهم السيئة بصورة حسنة ليُقْدِموا عليها بِشَرَه (٧) .

---

(١) ابن عاشور : التحرير والتنوير ج ٢٢ ص ٢٥٨ .
(٢) المرجع نفسه ج ٢٢ ص ٢٥٨ . وانظر : الراغب : المفردات ص ٣٥٨ .
(٣) ابن عاشور : المرجع نفسه ج ٢٢ ص ٢٥٩ . وانظر الراغب :المرجع نفسه ص ٣٥٩ .
(٤) ابن عاشور : المرجع نفسه ج ٢٢ ص ٢٦٠ .
(٥) ابو حيان : البحر المحيط ج ٧ ص ٣٠٠ . وابن عاشور:المرجع نفسه ج ٢٢ص ٢٦٢ .
(٦) ابن عاشور : المرجع نفسه ج ٢٢ ص ٢٦٢ .
(٧) المرجع نفسه ج ٢٢ ص ٢٦٤ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الحسرة : الغم على ما فاته والندم عليه (١) .

وجه الارتباط بالايات السابقة :

بعد ذكر الأدلة والبراهين على وحدانيه الله تعالى ،وبيان أن ما جاء به الرسول - صلى الله عليه وسلم - هو نفسه ما أنتجته البراهين ، يأتي الخطاب في هذه الآيات بإنذار المكذبين المنكرين لحقيقة الوحدانية وما جاءت به الرسالة ، إنذاراً بأن وعد الله الذي وعدهم - وهو عقاب المكذبين في يوم البعث - وعد واقع لا يتخلف .

وقال ابن عاشور : أعيد خطاب الناس إعذاراً لهم وإنذاراً بتحقيق أن وعد الله الذي وعده من عقابه المكذبين في يوم البعث هو وعد واقع لا يتخلف ، وذلك بعد أن قدم لهم التذكير بدلائل الوحدانية المشتملة عليها ، مع الدلالة على نعم الله عليهم ليعلموا أنه لا يستحق العبادة غيره ، وأنه لا يتصف بالإلهية الحق غيره .

وبعد أن أشار إليهم بأن ما أنتجته تلك الدلائل هو ما أنبأهم به الرسول - صلى الله عليه وسلم - فيعلمون صدقه فيما أنبأهم من توحيد الله ، وهو أكبر ما قرع آذانهم وأحرج شيء لنفوسهم ، فإذا تأيد بالدليل البرهاني تمهد السبيل لتصديق الرسول - صلى الله عليه وسلم - فيما أخبرهم به من وعد الله ، وهو يوم البعث ، لأنه لما تبين صدقه في الأولى يعلم صدقه في الثانية بحكم قياس المساواة (٢) .

---

(١) الراغب : المفردات ص ١١٨ .
(٢) ابن عاشور : التحرير والتنوير جـ ٢٢ ص ٢٥٧ - ٢٥٨ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

القـــــــراءات :

(فلا تذهب نفسك) قرأ أبو جعفر بضم التاء وكسر الهاء ونصب السين ، وقرأ الباقون بفتح التاء والهاء ورفع السين من (نفسك) (١).

الإعـــــــراب :

البـــاء : في قوله (بالله) للملابسة ، وهي داخلة على مضاف مقدر، أي بشأن الله ، أي يتطرق الى نقض هدى الله ، فإن فعل غرّ يتعدى إلى مفعول واحد ، فإذا أُريد تعديته إلى بعض متعلقاته عدي إليه بواسطة حرف الجر ، فقد يعدى بالباء ، وهي باء الملابسة كقوله - تعالى - : (يا أيها الإنسان ما غرك بربك الكريم) ، وقوله في سورة الحديد (وغركم بالله الغرور) وذلك إذا أريد بيان من الغرور ملابس له على تقدير مضاف ، أي بحال من أحواله . وتلك ملابسة الفعل للمفعول في الكلام على الإيجاز . وليست هذه باء السببية (٢)

(الذين كفروا) و (الذين آمنوا) : مبتدآن(٣) .

(مـن) : مبتدأ موصول ، وخبره محذوف ، فالذي يقتضيه النظر أن يكون التقدير كمن لم يزين له كقوله : أفمن كان على بينه من ربه كمن زين له سوء عمله (٤) .

البلاغـــــــة :

في قوله تعالى : (فلا تغرنكم الحياة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور) إطناب بتكرار الفعل .

في قوله تعالى : (الذين كفروا لهم عذاب شديد ، والذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم مغفرة وأجر كبير) مقابلة بين جزاء الأبرار والفجار .

وفي قوله تعالى : (أفمن زين له سوء عمله فرآه حسناً) اختصار بحذف الجواب لدلالة اللفظ عليه . فحذف منه ما يقابله ، أي (كمن لم يزين له سوء عمله) ؟ (٥) .

---

(١) ابن الجزري : النشر جـ٢ ص ٣٥١، والتقريب ص ١٦٤، والتحبير ص ١٦٣ .
(٢) ابن عاشور : التحرير والتنوير جـ ٢٢ ص ٢٥٩ .
(٣) ابو حيان : البحر المحيط جـ ٧ ص ٣٠٠ .
(٤) المرجع نفسه جـ ٧ ص ٣٠٠ .
(٥) الصابوني : الصفوة جـ ٢ ص ٥٧٠ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ودل على المحذوف قوله (فإن الله يضل من يشاء ويهدي من يشاء).

وفي قوله تعالى : (فلا تذهب نفسك عليهم حسرات) كناية عن الهلاك ؛ لأن النفس إذا ذهبت هلك الإنسان (١) .

لطيفة :

قال ابن عاشور : "وإنما أمر الله باتخاذ العدو عدواً ولم يندب إلى العفو عنه والإغضاء عن عداوته كما أمر في قوله (فمن عفا وأصلح فأجره على الله) ونحو ذلك مما تكرر في القرآن وكلام الرسول - صلى الله عليه وسلم - ؛ لأن ما ندب إليه من العفو إنما هو فيما بين المسلمين بعضهم مع بعض رجاء صلاح حال العدو ، لأن عداوة المسلم عارضة لأغراض يمكن زوالها ، ولها حدود لا يخشى معها المضار الفادحة كما قال تعالى : (ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم) ولذلك لم يأمر الله تعالى بمثل ذلك مع أعداء الدين فقال (لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء) الآية ، بل لم يأمر الله تعالى بالعفو عن المحاربين من أهل الملة لأن معاداتهم غير عارضة بل هي لغرض ابتزاز الأموال ونحو ذلك ، فقال : (إلا الذين تابوا من قبل أن تقدروا عليهم) فعداوة الشيطان لما كانت جبلية لا يرجى زوالها مع من يعفو عنه ، لم يأمر إلا باتخاذه عدواً ، لأنه إذا لم يتخذ عدواً لم يراقب المسلم مكائده ومخادعته ، ومن لوازم اتخاذه عدواً العمل بخلاف ما يدعو إليه لتجنب مكائده ولمقته بالعمل الصالح .

فالايقاع بالناس في الضر لا يسلم منه أولياؤه ولا أعداؤه ، ولكن أولياءه يضمر لهم العداوة ويأنس بهم ، لأنه يقضي بهم وطره ، وأما أعداؤه فهو مع عداوته لهم يشمئز وينفر وتفتاظ من مقاومتهم وساوسه إلى أن يبلغ حد الفرار من عظماء الأمة "(٢)

لطيفة :

قال الفخر الرازي : " ثم قال تعالى : (إنما يدعوا حزبه ليكونوا من أصحاب السعير) إشارة إلى معنى لطيف ، وهو أن من يكون له عدو فله في أمره طريقان ، أحدهما : أن يعاديه مجازاة له على معاداته .

---

(١) الصابوني : الصفوة ج ٢ ص ٥٧٠ .

(٢) ابن عاشور : التحرير والتنوير ج ٢٢ ص ٢٦١ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

والثاني : أن يذهب عداوته بإرضائه . فلما قال الله تعالى : (إن الشيطان لكم عدو) أمرهم بالعداوة وأشار إلى أن الطريق ليس إلا هذا ، وأما الطريق الآخر ، وهو الإرضاء فلا فائدة فيه ، لأنكم إذا راضيتموه واتبعتموه فهو لا يؤدي بكم إلا إلى السعير .

واعلم أن من علم أن له عدواً لا مهرب له منه ، وجزم بذلك فإنه يقف عنده ويصبر على قتاله ، والصبر معه الظفر ، فكذلك الشيطان ، لا يقدر الإنسان أن يهرب منه ، فإنه معه ، ولا يزال يتبعه إلا أن يقف له ويهزمه ، فهزيمة الشيطان بعزيمة الإنسان ، فالطريق الثبات على الجادة ، والاتكال على العبادة (١) .

---

(١) الفخر الرازي : التفسير الكبير ج ٢٦ ص ٥ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

((والله الذي أرسل الرياح فتثير سحاباً فسقناه إلى بلد ميّت فأحيينا به الأرض بعد موتها ، كذلك النشور . من كان يريد العزة فلله العزة جميعاً ، إليه يصعد الكَلِمُ الطيب والعمل الصالح يرفعه ، والذين يمكرون السيئات لهم عذاب شديد ، ومكر أولئك هو يبور .)) فاطر : ٩ - ١٠ .

المعنى الإجمالي :

يبين سبحانه دليلاً آخر من مظاهر قدرته على وحدانيته ، فهو - سبحانه - خلق الكون ومن فيه وما فيه ، وأحاط بعنايته ورعايته جميع مخلوقاته ، فالله - تعالى - أرسل الرياح مسخرة بأمره ، تكوّن السحاب وتحركه وتنقله من مكان إلى آخر حسبما تقتضيه الحكمة الإلهية ، وينزل الماء من السحاب على الأرض التي يريد الله إحياءها ، وإنبات الزرع وإيجاد الرزق فيها ، بعد أن لم تكن فيها الأرزاق ، والآية مثال حي على إمكانية البعث والإحياء بعد الممات ، إذ أن الأرض تكون ميتة قاحلة قبل نزول المطر عليها ، ثم تصبح خضرة نضرة بعد نزوله عليها ، فظهور الحياة في الميت أمر هين ومشاهد من قدرة الله تعالى .

وبعد هذا البيان من الاستدلال على الوحدانية ، يبين سبحانه أنه وحده العزيز ولا عزة لغيره إلا به ومنه ، فمن أراد العزة فليتعزز بالله ، لا بالاصنام ولا بغيرها ، قال ابن جرير الطبري : " والذي هو أولى الأقوال بالصواب عندي ، قول من قال : من كان يريد العزة فبالله فليتعزز ، فلله العزة جميعاً دون كل ما دونه من الآلهة والأوثان ، وإنما قلت : ذلك أولى بالصواب ، لأن الآيات التي قبل هذه الآية جرت بتقريع الله المشركين على عبادتهم الأوثان ، وتوبيخه إياهم ووعيده لهم عليها ، فأولى بهذه أيضا أن تكون من جنس الحث على فراق ذلك ، فكانت قصتها شبيهة بقصتها ، وكانت في سياقها "(١) .

ثم بين - سبحانه - الطريق الموصل إلى العزة ، فقال : (إليه يصعد الكلم الطيب ، والعمل الصالح يرفعه) فبالإيمان والعمل الصالح تنال العزة والكرامة ، وقال البغوي : " قال الحسن وقتادة : الكلم الطيب : ذكر الله ، والعمل الصالح : أداء فرائضه ، فمن ذكر الله ولم يؤد فرائضه رد كلامه على عمله ، وليس الإيمان بالتمني ولا بالتحلي ، ولكن ما وقر في القلب وصدقته الأعمال ، فمن قال حسناً وعمل غير صالح رد الله عليه قوله ، ومن قال حسناً وعمل صالحاً يرفعه العمل "(٢) .

---

(١) ابن جرير : التفسير ج ٢٢ ص ٨٠ .
(٢) أبو محمد الحسين بن مسعود الفراء البغوي : التفسير المسمى : معالم التنزيل ج ٣ ص ٥٦٦ ط دار المعرفة - بيروت . وسيشار الى هذا المرجع حين وروده فيما بعد هكذا : البغوي : التفسير .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ثم بين - سبحانه - مصير الذين يتعززون بغير الله ، ويحاولون إلحاق الضرر بأولياء الله بأنهم لهم عذاب شديد ، وأن كل محاولاتهم فاشلة للقضاء على دين الله أو صد الناس عن الإيمان به ، فأمر الله نافذ لا محالة ، لأنه العزيز الغالب على كل شيء .

التحليل اللفظي :

العزة : (أل) تعريف الجنس و (العزة) : الشرف والحصانة من أن ينال بسوء[١] .

الصعود : الإذهاب في مكان عال .

الرفع : نقل الشيء من مكان إلى مكان أعلى منه [٢] .

المكر : تدبير إلحاق الضرر بالغير في خفية لئلا يأخذ حذره ، وفعله قاصر ، وهو يتعلق بالمضرور بواسطة الباء التي للملابسة ، يقال: مكر بفلان ، ويتعلق بوسيلة المكر بباء السببية ، يقال : مكر بفلان : بقتله [٣] .

يبور : أي يفسد ويهلك دون مكر الله بهم [٤] .

وجه الارتباط بالآيات السابقة :

لما قدم سبحانه في أول السورة الاستدلال على الوحدانية بخلق السموات والأرض والرزق ، عاد إلى سوق الأدلة بما بين السماء والأرض ، وبما هو من أعظم الأسباب في توفر الرزق .

وبعد ما بين أن الاغترار بالدنيا واتباع الشيطان سبب الكفر والطغيان ، بين للكافرين والمؤمنين أن العزة لا تكون إلا بالله ومنه ، وهي له - سبحانه - وما يوهم الشيطان به من العزة بالمال والرياسة وغيره باطل ، فالآية تأكيد على عدم الاغترار الذي سبق في الآيات السابقة .

وقال الفخر الرازي : " لما بين برهان الإيمان أشار إلى ما كان يمنع الكفار منه وهو العزة الظاهرة التي كانوا يتوهمونها من حيث إنهم ما كانوا في طاعة أحد ، ولم يكن لهم من يأمرهم وينهاهم ، فكانوا ينحتون الأصنام وكانوا يقولون : إن هذه آلهتنا ثم إنهم كانوا ينقلونها مع أنفسهم ، وأية عزة فوق المعبة مع المعبود ، فهم كانوا يطلبون العزة وهي عدم التذلل للرسول وترك الاتباع له ، فقال : إن كنتم

(١) ابن عاشور : التحرير والتنوير ج ٢٢ ص ٢٧١ .
(٢) المرجع نفسه ج ٢٢ ص ٢٧٢ .
(٣) المرجع نفسه ج ٢٢ ص ٢٧٤ .
(٤) ابو حيان : البحر المحيط ج ٧ ص ٣٠٤ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

تطلبون بهذا الكفر العزة في الحقيقة فهي كلها لله ، ومن يتذلل له فهو العزيز ، ومن يتعزز عليه فهو الذليل " (١) .

القراءات :

قرأ الجمهور (الرياح) بصيغة الجمع ، وقرأ حمزة والكسائي (الريح) بالإفراد والمعرف بلام الجنس يستوي فيه المفرد والجمع (٢) .

الإعراب :

الكاف : في (كذلك) في محل رفع على الخبرية . و (النشور) مبتدأ مؤخر (٣) .

من : شرطية ، وجعل جوابها (فلله العزة جميعا) ، وليس ثبوت العزة لله بمرتب في الوجود على حصول هذا الشرط ، فتعين أن ما بعد فاء الجزاء هو علة الجواب أقيمت مقامه ، واستغني بها عن ذكره إيجازاً (٤) .

جميعاً : منصوب على الحال من العزة (٥) .

الهاء : في قوله تعالى : (والعمل الصالح يرفعه) فيها وجهان: أحدهما : أنها عائدة إلى الكلم الطيب ، أي العمل الصالح هو الذي يرفعه الكلم الطيب ، والثاني : هي عائدة إلى العمل الصالح (٦) .

---

(١) الفخر الرازي : التفسير الكبير ج ٢٦ ص ٨ .
(٢) ابن عاشور : التحرير والتنوير ج ٢٢ ص ٢٦٩ .
(٣) ابو حيان : البحر المحيط ج ٧ ص ٣٠٢ .
(٤) ابن عاشور : المرجع السابق ج ٢٢ ص ٢٧٠ .
(٥) المرجع نفسه ج ٢٢ ص ٢٧١ .
(٦) الفخر الرازي : التفسير الكبير ج ٢٦ ص ٨ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وجملة (إليه يصعد الكلم الطيب) مستأنفة استئنافاً ابتدائياً[١] .

العمل : مبتدأ وخبره (يرفعه) [٢] .

والذين يمكرون السيئات : السيئات : صفة لمحذوف ، وليس مفعولاً به ليمكرون لأن (مكر) لازم ، وجوز أن يكون مفعولاً على تضمين يقصدون أو يكسبون ، والموصول مبتدأ ، وجملة (لهم عذاب شديد) خبره .

ومكر : مبتدأ خبره جملة (هو يبور) وهو : مبتدأ ، ويبور : خبره [٣] .

والضمير المتوسط بين (مكر أولئك)وبين (يبور) ضمير فصل ، إذ لا يحتمل غيره [٤] .

البلاغة :

في قوله : (أرسل الرياح فتثير سحاباً فسقناه) التفات من الغيبة إلى التكلم إشعاراً بالعظمة ، واستحضاراً للصورة ، ودلالة على التحقق في التعبير بالماضيين بعد المضارع [٥] .

---

(١) ابن عاشور : التحرير والتنوير ج ٢٢ ص ٢٧٢ .

(٢) ابو حيان : البحر المحيط ج ٧ ص ٣٠٣ . وابن عاشور : التحرير والتنوير ج ٢٢ ص ٢٧٣ .

(٣) أبو حيان : البحر المحيط ج ٧ ص ٣٠٤ . الألوسي : روح المعاني ج ٢٢ ص ١٧٦ - ١٧٧ .

(٤) ابن عاشور : التحرير والتنوير ج ٢٢ ص ٢٧٥ .

(٥) أبو حيان : البحر المحيط ج ٧ ص ٣٠٢ . وانظر : الشوكاني : فتح القدير ج ٤ ص ٣٤٠ .

قال الفخر الرازي : قال تعالى : (والله الذي أرسل) بلفظ الماضي وقال : (فتثير سحابا) بصيغة المستقبل ، وذلك لأنه لما أسند فعل الارسال الى الله ، وما يفعل الله يكون بقوله (كن) فلا يبقى في العدم لا زمانا ولا جزءً من الزمان ، فلم يقل بلفظ المستقبل لوجوب وقوعه وسرعة كونه ،كأنه كان ، وكأنه فرغ من كل شيء ، فهو قدر الارسال في الأوقات المعلومة الى المواضع المعينة ، والتقدير كالارسال ، ولما أسند فعل الاثارة الى الريح ، وهو يؤلف في زمان فقال : (تثير) أي على هيئتها . التفسير الكبير ج ٢٦ ص ٧ .

قال أبو حيان : وهذا الذي ذكر من الفرق بين أرسل وفتثير لا يظهر، ألا ترى الى قوله تعالى في سورة الروم : (الله الذي يرسل الرياح فتثير سحابا) الروم : ٤٨ وفي الأعراف : (وهو الذي يرسل الرياح بشرا بين يدي رحمته) الأعراف : ٥٧ ، كيف جاء في الارسال بالمضارع ، وانما هذا من التفنن في الكلام ، والتصرف في البلاغة . البحر المحيط ج ٧ ص ٣٠٢. وقد بينت هذا الأمر في الفصل الثالث ، مبحث " المتشابه اللفظي " .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

واستعار الإحياء للنبات ، والموت لليبس ، أي : كذلك يحيي الله العباد بعد موتهم كما أحيا الأرض بعد موتها (١) .

والصعود مستعار للبلوغ إلى عظيم القدر ...

والصعود والرفع كناية عن القبول لديه - سبحانه - حيث شبه جانب القبول عند الله - تعالى - بمكان مرتفع لا يصله إلا ما يصعد إليه (٢) .

ووضع اسم الإشارة موضع ضمير (هم) في قوله - سبحانه - (ومكر أولئك) للإيذان بكمال تميزهم بما هم عليه من الشر والفساد عن سائر المفسدين واشتهارهم بذلك ، وما فيه من معنى البعد للتنبيه على ترامي أمرهم في الطغيان وبعد منزلتهم في العدوان .

وأصل البوار : فرط الكساد أو الهلاك . واستعير هنا للفساد وعدم التأثير (٣) .

وفي قوله (والذين يمكرون السيئات) عبر بالمضارع في الصلة للدلالة على تجدد مكرهم واستمراره وأنه دأبهم (٤) .

وقال ابن عاشور أيضاً : " والبوار حقيقته : كساد التجارة وعدم نفاق السلعة ، واستعير هنا لخيبة العمل بوجه الشبه بين ما دبروه من المكر مع حرصهم على إصابة النبي - صلى الله عليه وسلم - بضر ، وبين ما ينمقه التاجر وما يخرجه من عيابه ويرصفه على مبناته وسط اللطيمة مع السلع لاجتلاب شره المشترين ، ثم لا يقبل عليه أحد من أهل السوق فيرجع من لطيمته لطيم كف الخيبة ، فارغ الكف والعيبة (٥) .

لطائف :

قال الزمخشري : كان الكافرون يتعززون بالأصنام كما قال عز وجل: (واتخذوا من دون الله آلهة ليكونوا لهم عزاً) والذين آمنوا بألسنتهم من غير مواطأة قلوبهم كانوا يتعززون بالمشركين كما قال تعالى: (الذين يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين ، أيبتغون عندهم العزة ، فإن العزة لله جميعاً) فبين أن لا عزة إلا لله ولأوليائه ، وقال: (ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين) والمعنى فليطلبها عند الله ، فوضع قوله: (فلله العزة جميعاً) موضعه استغناء به عنه لدلالته عليه ، لأن الشيء لا يطلب إلا عند صاحبه ومالكه (٦) .

---

(١) الشوكاني : فتح القدير جـ ٤ ص ٣٤٠ .
(٢) ابو حيان : البحر المحيط جـ ٧ ص ٣٠٣ . وابن عاشور : التحرير والتنوير جـ ٢٢ ص ٢٧٢ - ٢٧٣ .
(٣) الآلوسي : روح المعاني جـ ٢٢ ص ١٧٧ .
(٤) ابن عاشور : التحرير والتنوير جـ ٢٢ ص ٢٧٤ .
(٥) المرجع نفسه جـ ٢٢ ص ٢٧٥ .
(٦) الزمخشري : الكشاف جـ ٣ ص ٣٠٢ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الأحكـــــام :

قال ابن العربي : في قوله تعالى : (من كان يريد العزة ...الاية) فيها خمس مسائل :

المسألة الاولى : في قوله (يصعد) والصعود هو الحركة إلى فوق ، وهو العروج أيضاً ولا يتصور ذلك في الكلام ، لأنه عرض ، ولكن ضرب صعوده مثلاً لقبوله ، لأن موضع الثواب فوق وموضع العذاب أسفل ، والصعود رفعة ، والنزول هوان .

المسألة الثانية : في الكلم الطيب ثلاثة أقوال : الأول : أنه التوحيد الصادر عن عقيدة طيبة . الثاني : ما يكون موافقاً للسنة . الثالث: ما لا يكون للعبد فيه حظ ،وإنما هو حق لله سبحانه وتعالى .

المسألة الثالثة : قوله : (والعمل الصالح) هو الموافق للسنة .

المسألة الرابعة : قوله : (يرفعه) قيل : الفاعل في يرفعه مضمر يعود على الله ، أي هو الذي يرفع العمل الصالح ، كما أنه اليه يصعد الكلم الطيب .

وقيل : الفاعل في يرفعه مضمر يعود على العمل ، والمعنى : الى الله يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح هو الذي يصعد الكلم الطيب ، وقد قال السلف بالوجهين ، وهما صحيحان . فالأول حقيقة ، لأن الله هو الرافع الخافض ، والثاني مجاز ولكنه جائز سائغ ، وحقيقته أن كلام المرء بذكر الله إن لم يقترن به عمل صالح لم ينفع ، لأن من خالف قوله فعله فهو وبال عليه .

وتحقيق هذا ، أن العمل الصالح إذا وقع شرطاً في القول أو مرتبطاً به فإنه لا قبول له إلا به ، وإن لم يكن شرطاً فيه ولا مرتبطاً به فإن كلمه الطيب يكتب له وعمله الصالح يكتب عليه ، وتقع الموازنة بينهما ، ثم يحكم الله بالفوز والربح والخسران .

المسألة الخامسة : ذكروا عند ابن عباس : يقطع الصلاة الكلب ، فقرأ هذه الآية : (إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه) وهذا استدلال بعموم على مذهب السلف في القول بالعموم . وقد دخل هذا في الصلاة بشروطها فلا يقطعها عليه شيء إلا بثبوت ما يوجب ذلك من مثل ما انعقدت به من قرآن أو سنة (١) .

---

(١) أبو بكر محمد بن عبد الله المعروف بابن العربي : أحكام القرآن ج ٤ ص ١٦٠٥- ١٦٠٦ . ط دار الفكر ١٩٧٤م . وسيشار الى هذا المصدر حين وروده فيما بعد هكذا : ابن العربي : احكام القرآن .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

((والله خلقكم من تراب ثم من نطفة ثم جعلكم أزواجا ، وما تحمل من أنثى ولا تضع إلا بعلمه ، وما يعمر من معمر ولا ينقص من عمره إلا في كتاب ، إن ذلك على الله يسير . وما يستوي البحران هذا عذب فرات سائغ شرابه وهذا ملح أجاج ، ومن كل تأكلون لحماً طريا وتستخرجون حلية تلبسونها ، وترى الفلكَ فيه مواخر لتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون . يُولِج الليل في النهار ويُولِج النهار في الليل ، وسخر الشمس والقمر كل يجري لأجل مسمى ، ذلكم الله ربكم له الملك ، والذين تدعون من دونه ما يملكون من قطمير . إن تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم ، ولو سمعوا ما استجابوا لكم ، ويوم القيامة يكفرون بشرككم ، ولا ينبئك مثل خبير)) فاطر : ١١ - ١٤ .

المعنى الاجمالي :

يبين الله - سبحانه وتعالى - في هذه الآيات كمال قدرته ببيان مراحل خلق الإنسان ، من تراب ثم من نطفة أبويه ، ثم يجعل من النطفة الزوجين الذكر والأنثى .

ثم يبين كمال علمه - سبحانه - بأنه ما تحمل من أنثى ولا تضع شيئا إلا يعلمه الله ثم يبين كمال إرادته ، بأنه كل من يعمر أو ينقص من عمره فهو بإرادة الله وقدرته وذلك مسطور في كتاب عند الله - تعالى - وفي علمه ، وليس ذلك بأمر يصعب على الله ، فكل أمر هين عنده ، وكمال القدرة والعلم والإرادة هي أخص خصائص صفة الوحدانية .

ثم يستأنف الاستدلال على الوحدانية بما خلق وسخر لهذا الإنسان على هذه الأرض ، فخلق البحار ، منها عذب (الأنهار والبحيرات العذبة) ومنها الملح (البحار والمحيطات) وجعل من فوائدها للإنسان أنه يستخرج منه السمك وهو غذاء طيب ومفيد جداً ، وكثير من الناس يعتمد على صيد السمك كمصدر معيشة ، وكذلك استخراج اللؤلؤ والمرجان ، ثم تسخير السفن التي تشق البحار وتنقل الناس وحاجياتهم إلى ما يشاؤون من البلدان، وكذلك استخدامها في صيد السمك ، كل ذلك من فضل الله - تعالى -، وعرض لنا ذلك لنشكره بعبادته وطاعته ، ثم سخر لنا الشمس والقمر ، والليل والنهار لمعرفة السنين والحساب ، وجعل فترة للعمل وأخرى للراحة ، كل ذلك بأق وسائر إلى يوم القيامة .

ثم بعد هذا العرض لهذه المخلوقات ، وهذه النعم ، وهذا النظام العجيب في الكون ، يبين سبحانه أن الخالق والمصرف والمالك لهذه المخلوقات

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

هو الله وحده لا شريك له ، وأن ما يدعون أنهم شركاء لله لا يملكون أي شيء ألبتة ، حتى ولا القشرة الرقيقة التي تلف النواة ، وأنهم لا يسمعون الدعاء ، وعلى فرض أنهم سمعوا فإنهم لا يملكون استجابته ، لأنهم لا يملكون شيئاً ، وأكثر من ذلك كله أنهم يوم القيامة يتبرأون من شرك الذين أشركوهم بالله ويجحدون الشرك .

وهذا هو الخبر الحق اليقين ، ولا يستطيع أحد أن يخبر به غير عالم خبير به وهو الله الواحد الأحد ، لا إله إلا هو .

التحليل اللفظي :

النطفة : الماء الصافي ، ويعبر بها عن ماء الرجل (١) .

الأزواج : جمع زوج ، وهو الذي يصير بانضمام الفرد إليه زوجاً ، أي شفعا ، وقد شاع إطلاقه على صنف الذكور مع صنف الإناث لاحتياج الفرد الذكر من كل صنف إلى أنثاه من صنفه ، والعكس (٢) .

التعمير : جعل الإنسان عامراً ، أي باقياً في الحياة ، فإن العمر مدة الحياة ، يقال : عمر فلان كفرح ونصر وضرب ، إذا بقي زماناً ، فمعنى عمره بالتضعيف : جعله باقياً مدة زائدة على المدة المتعارفة في أعمار الأجيال ، ولذلك قوبل بالنقص من العمر ، ولذلك لا يوصف بالتعمير صاحبه إلا بالمبنى للمجهول ، فيقال : عُمِّر فلان فهو مُعَمَّر ، وقد غلب في هذه الأجيال أن يكون الموت بين الستين والسبعين ، فما بينهما فهو عمر متعارف ، والمعمّر الذي يزيد عمره على السبعين ، والمنقوص عمره ، الذي يموت دون الستين (٣) .

البحر : كل مكان واسع جامع للماء الكثير (٤) .

---

(١) الراغب : المفردات ص ٤٩٦ .

(٢) ابن عاشور : التحرير والتنوير ج ٢٢ ص ٢٧٦ .

(٣) المرجع نفسه ج ٢٢ ص ٢٧٧ .

(٤) الراغب : المفردات ص ٣٧ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

العذب : الطيب ، الحلو حلاوة مقبولة في الذوق [١] .

الملح : الشيء الموصوف بالملوحة بذاته لا بإلقاء ملح فيه ، فأما الشيء الذي يلقى فيه الملح حتى يكتسب ملوحة ، فإنما يقال له : مالح [٢] .

فرات : كاسر للعطش ومزيله [٣] .

سائغ شرابه : سهل انحداره لخلوه مما تعافه النفس . وهو مشتق من الإساغة وهي استطاعة ابتلاع المشروب دون غصة ولا كره ، قال عبدالله بن يعرب :

فساغ لي الشراب وكنت قبلاً .·. أكاد أغص بالماء الحميم [٤] .

أجاج : شديد الملوحة والمرارة [٥] .

لحما طريا : أي غضاً جديداً ، وهو السمك [٦] .

حلية : اللؤلؤ والمرجان [٧] .

الفُلْك : السفن [٨] .

مواخر : يقال : مخرت السفينة تمخر إذا شقت الماء [٩] .

الولوج : الدخول في مضيق ، وهو في الآية تنبيه على ما ركب الله - عز وجل - عليه العالم من زيادة النهار في الليل ، وذلك بحسب مطالع الشمس ومغاربها [١٠] .

القطمير : لفافة النواة ، وهي القشرة الرقيقة الملتفة عليها [١١] .
وقيل : الذي بين قمع التمرة والنواة ، وقيل قشرة الثوم ، وأياً ما

---

(١) الألوسي : روح المعاني جـ ٢٢ ص ١٧٩ . وابن عاشور : التحرير والتنوير: جـ ٢٢ ص ٢٨٠ .
(٢) ابن عاشور : المرجع نفسه جـ ٢٢ ص ٢٨٠ .
(٣) الألوسي : المرجع السابق جـ ٢٢ ص ١٧٩ .
(٤) المرجع نفسه جـ ٢٢ ص ١٧٩ ، وابن عاشور : المرجع السابق جـ ٢٢ ص ٢٨٠ .
(٥) الالوسي : المرجع السابق جـ ٢٢ ص ١٧٩ .
(٦) المرجع نفسه جـ ٢٢ ص ١٧٩ .
(٧) الزمخشري : الكشاف جـ ٣ ص ٣٠٤ .
(٨) الالوسي : المرجع السابق جـ ٢٢ ص ١٨٠ .
(٩) الشوكاني : فتح القدير جـ ٤ ص ٣٤٣ .
(١٠) الراغب : المفردات ص ٥٣٢ .
(١١) الزمخشري : الكشاف جـ ٣ ص ٣٠٤ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

كان فهو تمثيل للقليل . وقال الشاعر :

وأبوك يخصف نعله متوركاً ... مايملك المسكين من قطمير (١)

المثل : المساوي : إما في قدر فيكون بمعنى ضعف ، وإما المساوي في صفة فيكون بمعنى شبيه ، وهو بوزن فعل بمعنى فاعل ، وهو قليل ، ومنه قولهم : شبه ، وند ، وخدن (٢) .

وجه الارتباط بالآيات السابقة :

بعد الاستدلال على وحدانية الله - تعالى - بخلق السموات والأرض وتصريف الأحوال بينهما من رياح وسحاب ، يستأنف الاستدلال على الوحدانية بما على الأرض من مخلوقات ، ويبدأ بأشرفها وهو الإنسان ، ثم ما سخر الله - عز وجل - له من منافع في خلق البحار وما فيها ، وسخر الشمس والقمر وجعل الليل والنهار ، واستأنف بنتيجة الأدلة بعد تفصيلها بأن الله وحده المالك لهذه المخلوقات وأما ما يشركون من دونه لا يملكون شيئا ألبتة ، ويوم القيامة يجحدون بإشراك الكفار لهم بالله .

القراءات :

اختلفوا في قراءة قوله تعالى : (ولا ينقص) فقرأ الجمهور ولا ينقص مبنياً للمفعول وقرأ يعقوب وسلام وعبدالوارث وهارون كلاهما عن أبي عمرو ، ولا ينقص مبنيا للفاعل واختلفوا في قراءة قوله تعالى : (والذين تدعون) فقرأ الجمهور (تدعون) بتاء الخطاب ، وقرأ عيسى وسلام ويعقوب بياء الغيبة (٣) .

الإعراب :

وما تحمل : الجملة حال من الفاعل ، و (من) زائدة (٤) .

---

(١) أبو حيان : البحر المحيط ج ٧ ص ٣٠٥ .
(٢) ابن عاشور : التحرير والتنوير ج ٢٢ ص ٢٨٤ .
(٣) ابو حيان : البحر المحيط ج ٧ ص ٣٠٤ - ٣٠٥ . وانظر : ابن الجزري: النشر ج ٢ ص ٣٥٢ . والتقريب ص ١٦٤ ، والتحبير ص ١٦٣ .
(٤) الالوسي : روح المعاني ج ٢٢ ص ١٧٧ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

إلا بعلمه : الاستثناء مفرغ من عموم الأحوال ، والباء للملابسة ، والمجرور في موضع الحال (١) .

من : في (من معمر) زائدة ، والضمير في (من عمره) عائد على معمر (٢) .

وسخر الشمس والقمر : عطف على يولج (٣) .

ذلكم : مبتدأ . و (الله ربكم له الملك) أخبار مترادفة ، أو (الله ربكم) خبران ، و (له الملك) جملة مبتدأة واقعة في قران قوله (والذين تدعون من دونه ما يملكون من قطمير) (٤) .

إن تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم : استئناف مقرر لمضمون ما قبله كاشف عن جلية حال ما يدعونه ، بأنه جماد ليس من شأنه السماع (٥) .

وجملة (إن تدعوهم) خبر شان عن (الذين تدعون من دونه) .

وجملة (ولو سمعوا ما استجابوا لكم) معطوفة على جملة (إن تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم) وليست الواو اعتراضية (٦) .

واللام في قوله (لتبتغوا) متعلقة بمواخر (٧) .

---

(١) ابن عاشور : التحرير والتنوير ج ٢٢ ص ٢٧٧ .

(٢) ابو حيان : البحر المحيط ج ٧ ص ٣٠٤ .

(٣) ابو السعود : التفسير ج ٧ ص ١٤٧ .

(٤) الزمخشري : الكشاف ج ٣ ص ٣٠٤ . وأبو حيان : البحر المحيط ج ٧ ص ٣٠٥ .

(٥) وقال الزمخشري : ويجوز في حكم الاعراب ايقاع اسم الله صفة لاسم الاشارة ، أو عطف بيان ، و (ربكم) : خبرا ، لولا أن المعنى يأباه - الكشاف ج ٣ ص ٣٠٤ .

قال أبو حيان : أما كونه صفة فلا يجوز ، لأن (الله) علم ، والعلم لا يوصف به ، وليس اسم جنس كالرجل ، فتتخيل فيه الصفة .

وأما قوله : لولا أن المعنى يأباه ، فلا يظهر أن المعنى يأباه ، لأنه يكون قد أخبر بأن المشار اليه بتلك الصفات والأفعال المذكورة (ربكم) أي مالككم أو مصلحكم ، وهذا معنى لائق سائغ - البحر المحيط ج ٧ ص ٣٠٥ .

(٥) أبو السعود : التفسير ج ٧ ص ١٤٨ .

(٦) ابن عاشور : التحرير والتنوير ج ٢٢ ص ٢٨٣ .

(٧) ابو السعود : التفسير ج ٧ ص ١٤٧ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

البلاغـــــــــة :

بين قوله تعالى (تحمل) و (تضع) طباق ، وكذلك (يعمـــر) و (ينقـص) .

وبين قوله تعالى (هذا عذب فرات) و (وهذا ملح أجـــاج) مقابلة [١] .

وإفراد ضمير الخطاب مع جمعه فيما سبق وما لحق ، لأن الخطاب لكل أحد تتأتى منه الرؤية دون المنتفعين بالبحرين فقط ... وحرف الترجي في قوله (ولعلكم تشكرون) للإيذان بكونه مرضياً عند الله ...(يولج) و (سخر) اختلافهما صيغة لأن إيلاج الليل والنهار أحدهما في الآخـــر متجدد حيناً فحيناً ، وأما تسخير الشمس والقمر فأمر لا تعدد فيـــه ، وإنما المتعدد والمتجدد آثـــاره [٢] .

والبعد المستعمل في قوله (ذلكم) كناية عن تعظيم المشـــار إليه [٣] .

وأجرى على الأصنام موصول العاقل وضمائر العقلاء (والذين تدعـون) إلى قوله (يكفرون بشرككم) على تنزيل الأصنام منزلة العقلاء مجـاراة للمردود عليهم على طريقة التهكم ...

و (خبير) : صفة مشبهة مشتقة من خبُر ، بضم الباء ، فـــلأن الأمر إذا علمه علماً لاشك فيه ، والمراد بـ (خبير) جنس الخبير ، فلما أرسل هذا القول مثلاً وكان شأن الأمثال أن تكون موجزة ، صيغ على أسلوب الإيجاز ، فحذف منه متعلق فعل (ينبيء) ومتعلق وصف (خبير) ولم يذكر وجه المماثلة لعلمه من المقام ... وجعل نفي فعل الإنباء في قولـه : (ولا ينبئك) كناية عن نفي المنبـىء [٤] .

---

(١) الصابوني : الصفوة ج ٢ ص ٥٧٠ .

(٢) ابو السعود : التفسير ج ٧ ص ١٤٧ .

(٣) ابو السعود : التفسير ج ٧ ص ١٤٨ . وابن عاشور : التحرير والتنوير ج ٢٢ ص ٢٨٢ .

(٤) ابن عاشور : المرجع السابق ج ٢٢ ص ٢٨٤ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الأحكـــــام :

قال عماد الدين الكيا الهراسي :: قوله تعالى : (وتستخرجون حلية تلبسونها) فيه دليل على أن من حلف لا يلبس الحلي حنث بلبس اللؤلؤ (١) .

ولكن قال الجصاص : اختلف الفقهاء في المرأة تحلف أن لا تلبس حلياً ، فقال أبو حنيفة : اللؤلؤ وحده ليس بحلي ، إلا أن يكون معه ذهب ، لقوله تعالى : (ومما يوقدون عليه في النار ابتغاء حلية أو متاع) إنما سماه حلية في حال اللبس وهو لا يلبس وحده في العادة ، إنما يلبس مع الذهب ، ومع ذلك فإن إطلاق لفظ الحلية عليه في القرآن لا يوجب حمل اليمين عليه ، والدليل عليه قوله (تأكلون لحماً طرياً) وأراد به السمك ، ولو حلف أن لا يأكل لحماً فأكل سمكاً لم يحنث ، وكذلك قوله (وجعل الشمس سراجاً) ومن حلف لا يقعد في سراج وقعد في الشمس لا يحنث (٢) .

---

(١) عماد الدين بن محمد الطبري المعروف بالكيا الهراسي : أحكام القرآن ج ٢ ص ٣٥٣ ط دار الكتب العلمية . وسيشار الى هذا المرجع حين وروده فيما بعد هكذا : الكيا الهراسي : احكام القرآن .

(٢) ابو بكر احمد بن علي الجصاص : احكام القرآن ج ٣ ص ٤٥٩ ط المطبعة البهية المصرية ١٣٤٧ هـ . وسيشار الى هذا المرجع حين وروده فيما بعد هكذا : الجصاص : احكام القرآن .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

((يا أيها الناس أنتم الفقراء إلى الله والله هو الغني الحميد . إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد . وما ذلك على الله بعزيز . ولا تزر وازرة وزر أخرى وإن تدع مثقلة إلى حِملها لا يُحمل منه شيء ولو كان ذا قربى ، إنما تنذر الذين يخشون ربهم بالغيب وأقاموا الصلاة ، ومن تزكى فإنما يتزكى لنفسه ، وإلى الله المصير .)) فاطر : ١٥ - ١٨ .

المعنى الاجمالي :

لما قدم - سبحانه - الأدلة على وحدانيته ولم يؤمنوا ، ذكرهم ووعظهم ببيان أنه غني عنهم ، وأنهم محتاجون إلى فضله وإنعامه ورعايته.

وعرف الفقراء لأنه قصد بذلك أن يريهم أنهم لشدة افتقارهم إليه هم جنس الفقراء ، وإن كانت الخلائق كلهم مفتقرين إليه من ناس وغيرهم ، لأن الفقر مما يتبع الضعف ، وكلما كان الفقير أضعف كان أفقر ، والفائدة بعد مقابلة الفقراء بالغني في قوله (الحميد) فإنه لما أثبت فقرهم إليه وغناه عنهم - وليس كل غني نافعاً بغناه إلا إذا كان الغني جواداً منعماً ، فإذا جاد وأنعم حمده المنعم عليهم واستحق عليهم الحمد - ذكر الحميد ليدل به على أنه الغني النافع بغناه خلقه ، الجواد المنعم عليهم المستحق بإنعامه عليهم أن يحمدوه (١) .

ولما ذكر أنه الغني على الإطلاق ذكر ما يدل على استغنائه عن العالم ، وأنه ليس بمحتاج إليهم ، فقال : (إن يشأ يذهبكم) أي : إن يشأ إذهابكم ، وفي هذا وعيد بإهلاكهم . (وما ذلك) أي إذهابكم والإتيان بخلق جديد ، بعزيز : أي بممتنع عليه ، إذ هو المتصف بالقدرة التامة (٢) .

ولما هددهم بإفنائهم ، بين أن من ارتكب جرماً أو اقترف سيئة لا يعود ضرر هذه السيئة إلا عليه ، وأنه لا غياث يومئذٍ لمن استغاث ، ولا إعانة ، حتى إن نفساً قد أثقلتها الأوزار لو دعت إلى أن يخفف بعض وزرها لم تجب ، وإن كان المدعو بعض قرابتها من أب أو ولد أو أخ (٣) .

وفي الآية طمأنة للمؤمنين بأن من لم يرتكب جرماً أو يقترف سيئة فلا يلحقه وزر ، فكل يحاسب بعمله ، ثم عقب بقوله (إنما تنذر

---

(١) انظر : الزمخشري : الكشاف ج ٣ ص ٣٠٤ - ٣٠٥ .
(٢) انظر : ابو حيان : البحر المحيط ج ٧ ص ٣٠٧ .
(٣) انظر المرجع نفسه ج ٧ ص ٣٠٧ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الذين يخشون ربهم بالغيب) ليبين أن الإنذار إنما يجدي وينفع من يخشى الله بالغيب ،وأن المقصد الأوّل من التي قبلها موعظة المشركين وتخويفهم وإبلاغ الحقيقة إليهم لاقتلاع مزاعمهم وأوهامهم في أمر البعث والحساب والجزاء ، فأقبل الله على رسوله - صلى الله عليه وسلم - بالخطاب ليشعر بأن تلك المواعظ لم تجد فيهم ، وأنها إنما ينتفع بها المسلمون ، وهو أيضا يؤكد ما في الآية الأولى من التعريض بتأمين المسلمين بما اقتضاه عموم الإنذار والوعيد (١) .

التحليل اللفظي :

الحميد : المستغني على الإطلاق ، المنعم على سائر الموجودات المستوجب للحمد (٢) .

الإذهاب : الإهلاك والإعدام .

الخلق : بمعنى المخلوق (٣) .

عزيز : متعذر ومتعسر (٤).

الوزر : بكسر الواو ، هو الوقر بوزنه ومعناه ، وهو الحمل بكسر الحاء ، أي ما يحمل ويقال : وزر إذا حمل ... وجرى وصف الوزارة على التأنيث ، لأنه أريد به النفس (٥) .

آل : التعريف التي في (المصير) للجنس . أي المصير كله إلى الله سواء فيه مصير المتزكي ومصير غير المتزكي (٦) .

التزكي : التطهر من أدناس الشرك والفواحش (٧) .

---

(١) ابن عاشور : التحرير والتنوير جـ ٢٢ ص ٢٩٠ .
(٢) ابو السعود : التفسير جـ ٧ ص ١٤٨ .
(٣) ابن عاشور : التحرير والتنوير جـ ٢٢ ص ٢٨٦ .
(٤) ابو السعود : التفسير جـ ٧ ص ١٤٨ .
(٥) ابن عاشور : التحرير والتنوير جـ ٢٢ ص ٢٨٨ .
(٦)الزمخشري : الكشاف جـ ٣ ص ٣٠٤ . وأبو حيان : البحر المحيط جـ ٧ ص ٣٠٧ .
(٧)الشوكاني : فتح القدير جـ ٤ ص ٣٤٥ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وجه الارتباط بالآيات السابقة :

لما ذكر - سبحانه - أدلة وحدانيته في الكون والنفس ، وذكر ووعظ ، ووعد وتوعد ، ورغم ذلك كله لم يؤمنوا ، حتى لا يظن المشركون أن كثرة الأدلة والتذكير والوعد والوعيد ، كل ذلك يدل على حرص نابع من حاجة الله إليهم ، وإلى إيمانهم ، ناسب هنا أن يخبرهم بأنه - سبحانه - غني عنهم ، وأن جميع الناس محتاجون إلى إحسانه وإنعامه في جميع أحوالهم ، لا يستغني أحد عنه طرفة عين ، وهو الغني عن العالم على الاطلاق .

ثم بين - سبحانه - بعد ذلك مظاهر استغنائه عنهم ، وتوعدهم على كفرهم ، واستثنى من الوعيد عباده المؤمنين بقوله (ولا تزر وازرة وزر اخرى ... الآية) .

وقال ابن عاشور : لما أشبع المقام أدلة ومواعظ وتذكيرات ، مما فيه مقنع لمن نصب نفسه منصب الانتفاع والاقتناع ، ولم يظهر مع ذلك كله من أحوال القوم ما يتوسم منه نزعهم عن ضلالهم ، وربما أحدث ذلك في نفوس أهل العزة منهم إعجاباً بأنفسهم واغتراراً بأنهم مرغوب في انضمامهم إلى جماعة المسلمين ، فيزيدهم ذلك الغرور قبولاً لتسويل مكائد الشيطان لهم أن يعتصموا بشركهم ، ناسب أن ينبئهم الله بأنه غني عنهم ، وأن دينه لا يعتز بأمثالهم ، وأنه مُصيِّرُهم إلى الفناء ، وآت بناس يعتز بهم الإسلام (١) .

سبب النزول :

قال أبو حيان : روي أن الوليد بن المغيرة قال لقوم من المؤمنين : اكفروا بمحمد وعلي وزركم ، فنزلت (ولا تزر وازرة وزر اخرى ... الآية) (٢) .

الإعراب :

إن يشأ يذهبكم : مفعول فعل المشيئة محذوف استغناء بما دل عليه جواب الشرط وهو (يذهبكم) أي : إن يشأ إذهابكم ...
والإشارة في قوله (وما ذلك) عائدة إلى الإذهاب المدلول عليه بـ (يذهبكم) (٣) .

---

(١) ابن عاشور : التحرير والتنوير جـ ٢٢ ص ٢٨٥ .
(٢) ابو حيان : البحر المحيط جـ ٧ ص ٣٠٧ .
(٣) ابن عاشور : التحرير والتنوير جـ ٢٢ ص ٢٨٧ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

إلى حملها : متعلق بـ (تدع) وجعل الدعاء إلى الحمل ، لأن الحمل سبب الدعاء وعليه ، فالتقدير : وإن تدع أحداً إليها لأجل أن يحمل عنها حملها ، فحذف أحد متعلقي الفعل المجرور باللام لدلالة الفعل ومتعلقه المذكور على المحذوف .

لو كان ذا قربى : في موضع الحال من (مثقلة) (١) .

إنما تنذر : استئناف مسوق لبيان من ينتفع بما ذكر (٢) .

الذين يخشون ربهم بالغيب : الجار والمجرور في موضع الحال من الفاعل(٣) .

البلاغة :

(أنتم الفقراء) جملة تفيد القصر لتعريف جزأيها ، أي قصر الفقر على الناس المخاطبين قصراً إضافياً إلى الله (٤) .

ومن المحسنات وقوع (الحميد) في مقابلة قوله (إلى الله) كما وقع (الغني) في مقابلة قوله (الفقراء) لأنه لما قيد فقرهم بالكون إلى الله ، قيد غنى الله تعالى بوصف (الحميد) لإفادة أن غناه تعالى مقترن بجوده (٥) .

وبين قوله (يذهب) و (يأت) طباق .

وفي قوله (ولا تزر وازرة) و (حملها لا يحمل منه شيء) جناس اشتقاق (٦) .

وفي قوله (ولو كان ذا قربى) لو : وصلية ، ووجه ما اقتضته المبالغة منها أن ذا القربى أرق وأشفق على قريبه ، فقد يظن أنه يغني عنه في الآخرة بأن يقاسمه الثقل الذي يؤدي به إلى العذاب ، فيخفف عنه العذاب بالاقتسام (٧) .

---

(١) ابن عاشور : التحرير والتنوير جـ ٢٢ ص ٢٨٩ .
(٢) ابو السعود : التفسير جـ ٧ ص ١٤٩ .
(٣) الالوسي : روح المعاني جـ ٢٢ ص ١٨٦ .
(٤) ابن عاشور : المرجع السابق جـ ٢٢ ص ٢٨٥ . وانظر : الكشاف : جـ ٣ ص ٣٠٤ ، والبحر المحيط جـ ٧ ص ٣٠٧ .
(٥) ابن عاشور : المرجع نفسه جـ ٢٢ ص ٢٨٦ . وانظر : الكشاف : جـ ٣ ص ٣٠٥ ، والبحر المحيط جـ ٧ ص ٣٠٧ .
(٦) الصابوني : الصفوة جـ ٢ ص ٥٧٥ .
(٧) ابن عاشور : المرجع السابق جـ ٢٢ ص ٢٨٩ ، وانظر البحر المحيط جـ ٧ ص ٣٠٧ .
(٨) ابن عاشور : المرجع نفسه جـ ٢٢ ص ٢٨٩ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

(إنما تنذر الذين يخشون ربهم بالغيب) تعلق الفعل المقصور عليه بـ (الذين يخشون ربهم بالغيب) تعلق على معنى حصول أثر الفعل، فالمقصود من القصر أنه قصر قلب لأن المقصود التنبيه على أن لا يظن النبي - صلى الله عليه وسلم - انتفاع الذين لا يؤمنون بنذارته وإن كانت صيغة القصر صالحة لمعنى القصر الحقيقي ، لكن اعتبار المقام يعين اعتبار القصر الإضافي (١) .

ولما كانت هاتان الصفتان ، أي (يخشون ربهم بالغيب)،و(أقاموا الصلاة) من خصائص المسلمين ، صار المعنى : إنما تنذر المؤمنين ، فعدل عن استحضارهم بأشهر ألقابهم مع ما فيه من الإيجاز إلى استحضارهم بصلتين مع ما فيهما من الإطناب ، تذرعاً بذكر هاتين الصلتين الى الثناء عليهم بإخلاص الإيمان في الاعتقاد والعمل .

وجملة (ومن تزكى فإنما يتزكى لنفسه) تذييل جار مجرى المثل وذكر التذييل عقب المذيل يؤذن بأن ما تضمنه المذيل داخل في التذييل بادئ ذي بدء مثل دخول سبب العام في عمومه من أول وهلة دون أن يخص العام به .

والمقصود من القصر في قوله (فإنما يتزكى لنفسه) أن قبولهم النذارة كان لفائدة أنفسهم (٢) .

وتقديم المجرور في قوله (وإلى الله المصير) للاهتمام، والتنبيه على أنه مصير إلى من اقتضى اسمه الجليل الصفات المناسبة لإقامة العدل وإفاضة الفضل مع الرعاية على الفاصلة (٣) .

---

(١) ابن عاشور : التحرير والتنوير ج ٢٢ ص ٢٩٠ - ٢٩١ .
(٢) المرجع نفسه ج ٢٢ ص ٢٩١ .
(٣) المرجع نفسه ج ٢٢ ص ٢٩٢ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

((وما يستوي الأعمى والبصير . ولا الظلمات ولا النـــــور . ولا الظـل ولا الحَـــرور . وما يستوي الأحيـاء ولا الأموات ، إن اللـــه يُسمع من يشـاء ، وما أنت بمسمعٍ من في القبـــور . ان أنت إلا نذير. إنـا أرسلنـاك بالحق بشيراً ونذيراً ، وإن من أمة إلا خلا فيها نذيـــر. وإن يكذبوك فقد كذب الذين من قبلهم جاءتهم رسلهم بالبينات وبالزبـــر وبالكتـاب المنيـــر . ثم أخذت الذين كفروا فكيـف كان نكيـر .))

فـاطـر : ١٩ - ٢٦ .

المعنـى الاجمالـــــــي :

لما ذكر - سبحانه - في الآيات السابقة أن الإنذار إنما ينتفـــع به المؤمنون فحسب ، ضرب في هذه الآيات أمثالاً لبيان حال كل مـــن الفريقين ، فقال : (وما يستوي الأعمى والبصير) وهذا مثل الكافـــر والمؤمن (ولا الظلمات ولا النور) (ولا الظل ولا الحرور) مثلان للحق والباطـل وما يؤديان إليه من الثواب والعقاب ، (وما يستوي الأحياء ولا الأمـوات) مثل للذين دخلـوا في الإسلام ، والذين لم يدخلوا فيه وأصروا علـــى الكفـر (١) .

وأفرد الأعمى والبصير لأنه قابل الجنس بالجنس ، إذ قد يوجد فـــي أفراد العميان ما يساوى به بعض أفراد البصراء ، كأعمى عنده مـــن الذكاء ما يساوى به البصير البليـد ، فالتفاوت بين الجنسين مقطـــوع به لا بين الأفراد ، وجمعت الظلمات ، لأن طرق الكفر متعددة ، وأفرد النـور لأن التوحيد والحق واحد ، والتفاوت بين كل فرد من تلك الأفراد وبيـــن هذا الواحد ، فقال : الظلمات لا تجد فيها ما يساوي هذا النور ، وأمـــا الأحيـاء والأموات فالتفاوت بينهما أكثر إذ ما من ميت يساوي في الإدراك حياً ، فذكر أن الأحياء لا يساوون الأموات سواء قابلت الجنس أم قابلـــت الفرد بالفرد (٢) .

---

(١) انظر : الزمخشري : الكشاف ج ٣ ص ٣٠٦ .

(٢) ابو حيان : البحر المحيـــط ج ٧ ص ٣٠٩ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ثم سلى رسوله - صلى الله عليه وسلم - بقوله (إن الله يسمع من يشاء) أي إسماع هؤلاء منوط بمشيئتنا ... ولما ذكر أنه ما يستوي الأحياء ولا الأموات ، قال (وما أنت بمسمع من في القبور) أي هؤلاء من عدم إصغائهم إلى سماع الحق بمنزلة من هم قد ماتوا فأقاموا في قبورهم فكما أن من مات لا يمكن أن يقبل منك قول الحق فكذلك هؤلاء لأنهم أموات القلوب (١) .

وقال ابن جرير : يقول تعالى ذكره : كما لا يقدر أن يسمع من في القبور كتاب الله فيهديهم إلى سبيل الرشاد ، فكذلك لا يقدر أن ينفع بمواعظ الله وبيان حججه من كان ميت القلب من أحياء عباده عن معرفة الله وفهم كتابه وتنزيله وواضح حججه ...

ثم قال : وقوله : (إن أنت إلا نذير) يقول تعالى ذكره لنبيه محمد - صلى الله عليه وسلم - : ما أنت إلا نذير تنذر هؤلاء المشركين بالله ، الذين طبع الله على قلوبهم . ولم يرسلك ربك إليهم إلا لتبلغهم رسالته ، ولم يكلفك من الأمر ما لا سبيل لك إليه ، فأما اهتداؤهم وقبولهم منك ما جئتهم به فإن ذلك بيد الله لا بيدك ولا بيد غيرك من الناس (٢) .

ولما بين أنه نذير ، بين أنه ليس نذيراً من تلقاء نفسه ، إنما هو نذير بإذن الله وإرساله له بالحق يبشر المؤمنين وينذر الكافرين .

ثم أعقب الثناء على النبي - صلى الله عليه وسلم - بتسليته على تكذيب قومه ، وتأنيسه بأن تلك سنة الرسل مع أممهم ... فلما كان المقام هنا مقام تسلية الرسول - صلى الله عليه وسلم - ناسب أن يذكر ابتلاء الرسل بتكذيب أممهم على اختلاف أحوال الرسل ، فمنهم الذين أتوا بآيات ، أي خوارق عادات فقط مثل صالح وهود ولوط ، ومنهم من أتوا بالزبر وهي المواعظ التي يؤمر بكتابتها وزبرها ، أي تخطيطها لتكون محفوظة وتردد على الألسن كزبور داود وكتب أصحاب الكتب من أنبياء بني إسرائيل مثل أرمياء وإيلياء ، ومنهم من جاءوا بالكتاب المنير ، يعني كتاب الشرائع مثل إبراهيم وموسى وعيسى ، فذكر الباء مشير الى توزيع أصناف المعجزات على أصناف الرسل (٣) .

ولكن الله - عز وجل - لا يترك الكافرين يتمادون في غيهم وتعنتهم وبغيهم ، بل ينتقم منهم وينتصر لرسله ، بإيقاع العذاب الشديد

---

(١) ابو حيان : البحر المحيط ج ٧ ص ٣٠٩ .
(٢) الطبري : التفسير ج ٢٢ ص ٨٥ - ٨٦ .
(٣) ابن عاشور : التحرير والتنوير ج ٢٢ ص ٢٩٨ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

المؤلم على الكافرين .... والحمد لله رب العالمين .

التحليل اللفظي :

الأعمى : المسلوب حاسة البصر ، ويعبر بالعمى عن الضلال ، قال ابن رواحة :

أرانا الهدى بعد العمى فقلوبنا ... به موقنات أن ما قال واقع (١)

البصير : الذي له ملكة البصر (٢) .

الظل : البرد (٣) .

الحرور : الريح الحارة التي تهب بالليل ، والسموم تهب بالنهار ، وقيل الحرور هي الريح الحارة التي تهب بالليل والنهار ، أما السموم فبالنهار فقط (٤) .

أمة : الأمة : الجماعة الكثيرة ، قال الله تعالى : (وجد عليه أمة من الناس) ويقال لأهل العصر أمة ... والمراد ههنا : أهل العصر (٥) .

نكير : اسم لشدة الإنكار ، وهو هنا كناية عن شدة العقاب ، لأن الإنكار يستلزم الجزاء على الفعل المنكر بالعقاب (٦) .

وجه الارتباط بالآيات السابقة :

بعد أن بين - سبحانه - في الآيات السابقة أن الإنذار إنما ينتفع به المؤمنون دون الكافرين ، ضرب في هذه الآيات أمثالاً تبين حال المنتفعين بالإنذار وحال من لم ينتفعوا بها ، ففي (الأعمى والبصير) مثل للمؤمن والكافر ، وفي (الظلمات والنور) و (الظل والحرور) مثلان للإيمان والكفر و (الأحياء والأموات) مثل على أثر الإيمان وأثر الكفر ، ثم سلى رسوله - صلى الله عليه وسلم - بأن لا يهتم من عدم إيمانهم ، فليس عليه إلا تبليغ الدعوة ، ثم زاد في التسلية بالثناء عليه بأنه مرسل بالحق سواء آمنوا أم لم يؤمنوا ، فإنما هو بشير للمؤمنين ، نذير للكافرين ، وبين له أن شأنه هذا شأن الرسل السابقين مع أممهم الغابرة ، والله - عز وجل - بالمرصاد لكل الظالمين الكافرين .

---

(١) الشوكاني : فتح القدير ج ٤ ص ٣٤٥ . وابن عاشور : التحرير والتنوير : ج ٢٢ ص ٢٩٢ - ٢٩٣ .
(٢) الشوكاني : المرجع نفسه ج ٤ ص ٣٤٥ . (٣) المرجع نفسه : ج ٤ ص ٣٤٦ .
(٤) الزمخشري : الكشاف ج ٣ ص ٣٠٦ . وابن عاشور : التحرير والتنوير : ج ٢٢ ص ٢٩٣ . (٥) الزمخشري : الكشاف ج ٣ ص ٣٠٦ .
(٦) ابن عاشور : التحرير والتنوير ج ٢٢ ص ٣٠٠ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الإعـــــراب :

يستوي : من الأفعال التي لا تكتفي بفاعل واحد ، فدخول لا في النفي لتأكيد معناه (١) .

وكل من الواوين الذين في قوله (ولا الظلمات) الخ وقوله (ولا الظل) الخ عاطف جملة على جملة (٢) .

وأما الواوات الثلاثة في قوله (والبصير) (ولا النور) (ولا الحرور) فكل واو عاطف مفرد على مفرد .

وأما أدوات النفي فاثنان منها مؤكدان للتغلب الموجه إلى الجملتين المعطوفتين المحذوف فعلاهما (ولا الظلمات ، ولا الظل) واثنان مؤكدان لتوجه النفي إلى المفردين المعطوفين على مفردين في سياق نفي التسوية بينهما وبين ما عطفاً عليهما وهما واو (ولا النور) وواو (ولا الحرور).

والتوكيد بعضه بالمثل وهو حرف (لا) وبعضه بالمرادف وهو حرف (ما) ، ولم يؤت بأداة نفي في الاستواء الأول ، لأنه الذي ابتدئ به نفي الاستواء المؤكد من بعد ، فهو كله تأييس (٣) .

وجملة (إن الله يسمع من يشاء) تعليل لجملة (إنما تنذر الذين يخشون ربهم بالغيب) لأن معنى القصر ينحل إلى إثبات ونفي ، فكان مفيداً فريقين : فريقاً انتفع بالإنذار ، وفريقاً لم ينتفع ، فعلل ذلك بـ (إن الله يسمع من يشاء) (٤) .

بالحق : إما حال من ضمير المتكلم في (أرسلناك) أي محقين غير لاعبين ، أو من كاف الخطاب ، أي محقاً أنت غير كاذب ، أو صفة لمصدر محذوف ، أي إرسالاً ملابساً بالحق (٥) .

وجواب (وإن يكذبوك) محذوف دلت عليه علته ، وهي قوله : (فقد كذب الذين من قبلهم) وجملة (جاءتهم) صلة (الذين) و (من قبلهم) في موضع الحال من اسم الموصول مقدم عليه أو متعلق بـ (جاءتهم) (٦) .

وقال النسفي : جاءتهم رسلهم :- حال ، وقد مضمرة (٧) .

---

(١) ابو حيان : البحر المحيط جـ ٧ ص ٣٠٨ .
(٢) ابن عاشور : التحرير والتنوير جـ ٢٢ ص ٢٩٣ .
(٣) انظر : الزمخشري : الكشاف جـ ٣ ص ٣٠٦ . وابن عاشور : المرجع السابق جـ ٢٢ ص ٢٩٤ .
(٤) ابن عاشور : المرجع نفسه جـ٢٢ ص ٢٩٥ .
(٥) الزمخشري : المرجع السابق جـ ٧ ص ٣٠٦ . أبو حيان : البحر المحيط جـ ٧ ص ٣٠٩ . وابن عاشور : المرجع السابق جـ ٢٢ ص ٢٩٦ .
(٦) ابن عاشور : المرجع نفسه جـ ٢٢ ص ٢٩٩ .
(٧) النسفي : التفسير جـ ٣ ص ٣٣٩ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ثم : عاطفة جملة (أخذت) على جملة (جاءتهم) أي ثم أخذتهم ، وأظهر (الذين كفروا) في موضع ضمير الغيبة للإيحاء إلى أن أخذهم لأجل ما تضمنته صلة الموصول من أنهم كفروا(١) .

البلاغة :

بين قوله (الأعمى ...والبصير) و (الظلمات .. والنور و (الظل .. والحرور) و (الاحياء .. والأموات) و (نذيراً ... وبشيراً) بين كل كلمتين طباق .

وفي قوله (وما يستوي الأعمى والبصير) استعارة تصريحية ، شبه الكافر بالأعمى والمؤمن بالبصير بجامع ظلام الطريق وعدم الاهتداء على الكافر ، ووضوح الرؤية والاهتداء للمؤمن ، ثم استعار المشبه به (الأعمى) للكافر ، واستعار (البصير) للمؤمن بطريق الاستعارة التصريحية (٢) .

وكذلك في قوله (ولا الظلمات ولا النور) عن الكفر والإيمان ، و (ولا الظل ولا الحرور) عن أثر الإيمان وأثر الكفر) و (وما يستوي الأحياء ولا الأموات) عن المؤمنين والكافرين .

وجاء قوله (إن الله يسمع من يشاء وما أنت بمسمع من في القبور) على مقابلة قوله : (وما يستوي الأحياء ولا الأموات) مقابلة اللف بالنشر المرتب .

واستعير (من في القبور) للذين لم تنفع فيهم النذارة ، وعبر عن الأموات بـ (من في القبور) لأن من في القبور أعرق في الابتعاد عن بلوغ الأصوات(٣) .

وجملة (إن أنت إلا نذير) أفادت قصراً إضافيا بالنسبة إلى معالجة تسميعهم الحق ، أي أنت نذير للمشابهين من في القبور ، ولست بمدخل الإيمان في قلوبهم (٤) .

ووجه الاقتصار على وصف النذير هنا دون الجمع بينه وبين وصف البشير ، هو مراعاة العموم الذي في قوله (وإن من أمة إلا خلا فيها نذير) فإن من الأمم من لم تحصل لها بشارة ، لأنها لم يؤمن منها أحد (٥) .

---

(١) ابن عاشور : التحرير والتنوير جـ ٢٢ ص ٢٩٩ .
(٢) الصابوني : الصفوة جـ ٢ ص ٥٧٥ .
(٣) ابن عاشور : المرجع السابق جـ ٢٢ ص ٢٩٥ .
(٤) المرجع نفسه جـ ٢٢ ص ٢٩٦ .
(٥) المرجع نفسه جـ ٢٢ ص ٢٩٧ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

والأخذ مستعار للاستئصال والإفناء ، شبه إهلاكهم جزاء على تكذيبهم بإتلاف المغيرين على عدوهم يقتلونهم ويغنمون أموالهم ، فتبقى ديارهم بلقعاً كأنهم أُخذوا منها (١) .

لطيفة :

قال ابن عاشور : وجملة : (وما يستوي الأحياء ولا الأموات) أظهر في هذه الجملة الفعل الذي قدر في الجملتين اللتين قبلها ، وهو فعل (يستوي) ، لأن التمثيل هنا عاد إلى تشبيه حال المسلمين والكافرين إذ شبه حال المسلم بحال الأحياء ، وحال الكافرين بحال الأموات ، فهذا ارتقاء في تشبيه الحالين من تشبيه المؤمن بالبصير والكافر بالأعمى ، إلى تشبيه المؤمن بالحي والكافر بالميت ، ونظيره في إعادة فعل الاستواء قوله تعالى في سورة الرعد (قل هل يستوي الأعمى والبصير ، أم هل تستوي الظلمات والنور) .

فلما كانت الحياة هي مبعث المدارك والمساعي كلها ، وكان الموت قاطعاً للمدارك والمساعي ، شبه الإيمان بالحياة في انبعاث خير الدنيا والآخرة منه ، وفي تلقي ذلك وفهمه ، وشبه الكفر بالموت في الانقطاع عن الأعمال والمدركات النافعة كلها ، وفي عدم تلقي ما يلقى إلى صاحبه ، فصار المؤمن شبيهاً بالحي مشابهة كاملة لما خرج من الكفر إلى الإيمان فكأنه بالإيمان نفخت فيه الحياة بعد الموت ، كما أشار إليه قوله تعالى في سورة الأنعام (أومن كان ميتاً فأحييناه) وكان الكافر شبيها بالميت ما دام على كفره (١) .

---

(١) ابن عاشور : التحرير والتنوير ، ج ٢٢ ص ٢٩٩ .

(٢) المرجع نفسه ج ٢٢ ص ٢٩٤ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

((ألم ترَ أن الله أنزل من السماء ماءً فأخرجنا به ثمراتٍ مختلفاً ألوانها ومن الجبال جُدَدٌ بيضٌ وحُمْرٌ مختلفٌ ألوانها وغرابيبُ سود . ومن الناس والدواب والأنعام مختلفٌ ألوانه كذلك ، إنما يخشى اللهَ من عباده العلماءُ ، إن اللهَ عزيزٌ غفور . إن الذين يتلون كتاب الله وأقاموا الصلاة وأنفقوا مما رزقناهم سراً وعلانية يرجون تجارة لن تبور . ليوفيَهم أجورهم ويزيدَهم من فضله ، إنه غفور شكور .)) فاطر : ٢٧ - ٣٠ .

المعنى الإجمالي :

بين - سبحانه - في هذه الآيات من أدلة وحدانيته اختلاف ألوان الثمرات والجبال والطرائق التي فيها من بيض وحمر وسود ، وكذلك اختلاف ألوان الناس والدواب والأنعام ، وكل هذه الأشياء تخرج من ماء واحد ينزل من السماء (وجعلنا من الماء كل شيء حي) وهذه الأشياء الدالة على دقيق صنع الله تعالى وقدرته ، تجعل العلماء حقاً - بمعرفتهم لعظمة هذا الصنع - يعرفون عظمة الخالق - سبحانه - فيخشونه حق الخشية ، ويطيعونه ولا يعصونه ، ثم عدد - سبحانه - أوصافهم - أي العلماء - فقال : هم الذين يحافظون على تلاوة القرآن ،(وقد أشعر الفعل المضارع بتجدد تلاوتهم ، فإن نزول القرآن متجدد ، فكلما نزل منه مقدار تلقوه وتدارسوه)(١) .

وأقاموا الصلاة التي أمروا بأدائها ، وداوموا عليها ، وأنفقوا مما رزقهم الله بغير قصد الرياء ، لأنهم لا يريدون ثواباً من أحد غير الله ، وهذا معنى (سراً وعلانية)

. وأولئك يفعلون ذلك كله رهبة ورغبة ، رهبة من خشية عدم قبول الأعمال ، ورغبة في قبولها عند الله ، لينالوا الأجر الذي أعد لهم ، ويهبهم الله تعالى من مزيد فضله وإحسانه ما يشاء ، لأنه غفور يغفر الذنوب والخطايا بالتوبة ، شكور لأنه يشكر أعمال عباده الصالحة فيضاعفها لهم .

---

(١) ابن عاشور : التحرير والتنوير ج ٢٢ ص ٣٠٦ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

التحليـــــل اللفظـــــي :

جُدَد : جمع جُدّة بضم الجيم ، وهي الطريقة والخطة في الشيء تكـــون واضحة فيه ، يقال للخطة السوداء التي على ظهر الحمار جدة ، وللظبي جدتان مسكيتا اللون تفصلان بين لوني ظهره وبطنه ، والجـــــدد البيض التي في الجبال هي ما كانت صخوراً بيضاء مثل المـــــــروة ، أو كانت تقرب من البياض ، فإن من التراب ما يصير في لون الأهصب ، فيقال : تراب أبيض ، ولا يعنون أنه أبيض كالجير والجص ، بـــل يعنون أنه مخالف لغالب ألوان التراب ، والجدد الحمر هـــــــي ذات الحجارة الحمراء في الجبال (١) .

غرابيب : جمع غربيـــب ، والغربيب : اسم للشيء الأسود الحالـــــك سواده ولا تعرف له مادة مشتق هو منها ، وربما كان مأخوذاً من الغراب لشهرته بالســـواد (٢) .

مـــن : في قوله (ومن الجبال) وكذلك (ومن الناس) تبعيضيـــة أي بعض تراب الجبال جدد ، وكذلك المختلف ألوانه بعض من النـــاس والدواب والأنعام ، ومجموع المختلفات كله هو الناس كلهم ، وكذلك الدواب والأنعام (٣) .

ليوفيهم : التوفية : جعل الشيء وافياً ، أي تاماً لا نقيصة فيـــــه ولا غبـــــــن (٤) .

وجه الارتباط بالآيات السابقة :

لما قرر سبحانه وحدانيته بأدلة خلق السموات والأرض وما بينهما ، وكذلك دليل خلق الإنسان وما خلق لرعايته وعنايته من البحار وتسخيرها له ، وكذلك الليل والنهار والشمس والقمر ، أتبع تلك الأدلة بأدلة هنا من طبيعة الأرض وما عليها ، والدليل باختلاف الأشياء التي أخرجت مـــن ماء واحد أنزل من السماء ، وكأن الأدلة السابقة مشاهدة معلومـــــة أسرارها للعامة ، وهذه الأدلة ارتقاء من مستوى العامة إلى مستـــوى العلماء ، بدليل قوله (إنما يخشى اللهَ من عباده العلماءُ) ثم فصـــل ووضح معنى العلماء في الآيتين التاليتـــــين .

---

(١) انظر : الراغب : المفردات ص ٨٩ . وابن عاشور : التحرير والتنويـــر : جـ ٢٢ ص ٣٠٢ .
(٢) انظر : الراغب : المفردات ص ٣٥٩ . وابن عاشور : التحرير والتنويـــر : جـ ٢٢ ص ٣٠٢ .
(٣) انظر : الزمخشري : الكشاف جـ ٣ ص ٣٠٧ . وابن عاشور : التحريـــــر والتنوير جـ ٢٢ ص ٣٠٣ .
(٤) ابن عاشور : التحرير والتنوير جـ ٢٢ ص ٣٠٧ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الإعـــــراب :

مختلفاً : جرد من علامة التأنيث مع أن فاعله جمع ، وشأن النعت السببي أن يوافق مرفوعه في التذكير وضده والإفراد وضده ، ولا يوافق في ذلك منعوته لأنه لما كان الفاعل جمعاً لما لا يعقل ، وهو الألوان ، كان حذف التاء في مثله جائزاً في الاستعمال ، وآثره القرآن إيثاراً للإيجاز (١) .

ومن الجبال .. الآية : عطف على جملة (ألم تر أن الله ...)

جدد : مبتدأ (ومن الجبال) خبره ، وتقديم الخبر للاهتمام والتشويق (٢) .

غرابيب : معطوف على بيض أو على جدد ، كأنه قيل : ومن الجبال مخطط ذو جدد ومنها ما هو على لون واحد (٣) .

سود : بدل من غرابيب ، لأن غرابيب لم يلزم فيه أن يستعمل تأكيداً

وقال الشاعر :

العين طامحة واليد سابحة .*. والرّجل لائحة والوجه غربيب

وقال آخر :

ومن تعاجيب خلق الله غالية .*. البعض منها ملاحي وغربيب (٤)

ومن الناس .. الآية : عطف على جملة (ألم تر أن الله ..) ولا يلزم أن يكون مسوغ الابتداء بالنكرة غير مفيد معنى آخر ، فإن تقديم الخبر هنا سوغ الابتداء بالنكرة (٥) .

---

(١) ابن عاشور : التحرير والتنوير ج ٢٢ ص ٣٠١-٣٠٢ .
(٢) المرجع نفسه ج ٢٢ ص ٣٠٢ .
(٣) الزمخشري : الكشاف ج ٣ ص ٣٠٧ . وأبو السعود : التفسير ج ٧ ص ١٥١ .
(٤) ابو حيان : البحر المحيط ج ٧ ص ٣١٢ .
(٥) ابن عاشور : المرجع السابق ج ٢٢ ص ٣٠٣ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وقيل : مختلف: صفة لمحذوف ، أي خلق مختلف ألوانه كذلك[١].

كذلك : مصدر تشبيهي لقوله تعالى : مختلف . أي صفة لمصدره المؤكد تقديره مختلف اختلافاً كائناً كذلك [٢] .

سراً وعلانية : النصب على أنهما صفة لمصدر (أنفقوا) محذوف أي إنفاق سر وإنفاق علانية .

يرجون تجارة : خبر إن ...

لن تبور : صفة لـ (تجارة) ...

ليوفيهم : متعلق بـ (يرجون) أو بـ(لن تبور).

إنه غفور شكور : تعليل لما قبله من التوفية والزيادة .. وقيل هو خبر إن الذين ، ويرجون حال من واو أنفقوا [٣] .

البلاغة :

في قوله تعالى : (أنزل من السماء ماء فأخرجنا) التفات من الغيبة إلى التكلم ، لإجهار كمال الاعتناء بالفعل لما فيه من الصنع البديع المنبىء عن كمال القدرة والحكمة [٤] .

وجيء بالجملتين الفعليتين في (أنزل) و (أخرجنا) لأن إنزال الماء وإخراج الثمرات متجدد آناً فآناً [٥] .

وجيء في جملة (ومن الجبال جدد) و (من الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه) بالاسمية دون الفعلية كما في الجملة السابقة لأن اختلاف ألوان الجبال والحيوان الدال على اختلاف أحوال الإيجاد اختلافاً دائماً لا يتغير ، وإنما يحصل مرة واحدة عند الخلق وعند تولد النسل [٦] .

---

(١) ابو حيان : البحر المحيط ج ٧ ص ٣١٢ .
(٢) ابو السعود : التفسير ج ٧ ص ١٥١ .
(٣) ابو السعود : المرجع نفسه ج ٧ ص ١٥٢ . وابن عاشور : التحرير والتنوير ج ٢٢ ص ٣٠٧ .
(٤) ابو السعود : المرجع نفسه ج ٧ ص ١٥٠ . والصابوني : الصفوة ج ٢ ص ٥٧٦ .
(٥) ابو السعود : المرجع نفسه ج ٧ ص ١٥١ . وابن عاشور ج ٢٢ ص ٣٠١ .
(٦) ابو السعود : المرجع نفسه ج ٧ ص ١٥١ . وابن عاشور : المرجع نفسه ج ٢٢ ص ٣٠٣ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

والقصر المستفاد من (إنما) قصر إضافي (أي لا يخشاه الجهال) وهم أهل الشرك فإن من أخص أوصافهم أنهم أهل الجاهلية ، أي عدم العلم فالمؤمنون يومئذ هم العلماء ، والمشركون جاهلون نفيت عنهم خشية الله ، ثم إن العلماء في مراتب الخشية متفاوتون في الدرجات تفاوتاً كثيراً ، وتقديم مفعول (يخشى) على فاعله ، لأن المحصور فيهم خشية الله هم العلماء ، فوجب تأخيره على سنة تأخير المحصور فيه [1] .

الذين يتلون كتاب الله : كناية عن إيمانهم ، لأنه لا يتلو الكتاب إلا من صدق به ... وكتاب الله : القرآن ، وعدل عن اسمه العلم إلى اسم الجنس المضاف لاسم الجلالة لما في إضافته إليه من تعظيم شأنه ...

ووقع الالتفات من الغيبة من قوله (كتاب الله) إلى التكلم في قوله (مما رزقناهم) لأنه المناسب للامتنان [2] .

سراً وعلانية : في تقديم السر إشارة إلى أنه أفضل لانقطاع شائبة الرياء منه ، وذكر العلانية للإشارة إلى أنهم لا يصدهم مرأى المشركين عن الإنفاق فهم قد أعلنوا بالإيمان وشرائعه حب من حب ، أو كره من كره ...

والتجارة مستعارة لأعمالهم من تلاوة وصلاة وإنفاق ، ووجه الشبه مشابهة ترتب الثواب على أعمالهم بترتب الربح على التجارة [3] .

لطيفة :

قال الجصاص : قوله تعالى : (إنما يخشى الله من عباده العلماء) : فيه الإبانة عن فضيلة العلم ، وأن به يتوصل إلى خشية الله وتقواه ، لأن من عرف توحيد الله وعدله بدلائله أوصله ذلك إلى خشية الله وتقواه ، إذ كان من لا يعرف الله ولا يعرف عدله وما قصد له بخلقه لا يخشى عقابه ، ولا يتقيه ، وقوله في آية أخرى (يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات) وقال تعالى : (إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك هم خير البرية) إلى قوله (ذلك لمن خشي ربه) خبّر أن خير البرية من خشي ربه ، وأخبر في الآية أن العلماء بالله هم الذين يخشونه ، فحصل بمجموع الآيتين أن أهل العلم بالله هم خير البرية [4] .

---

(١) ابن عاشور : التحرير والتنوير جـ ٢٢ ص ٣٠٤ . والصابوني : الصفوة جـ ٢ ص ٥٧٦ .
(٢) ابن عاشور : المرجع نفسه جـ ٢٢ ص ٣٠٦ .
(٣) المرجع نفسه جـ ٢٢ ص ٣٠٧ .
(٤) الجصاص : احكام القرآن جـ ٣ ص ٤٥٩ - ٤٦٠ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

((والذي أوحينا إليك من الكتاب هو الحق مصدقاً لما بين يديه ، إن الله بعباده لخبير بصير . ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا ، فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ، ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله ، ذلك هو الفضل الكبير . جنات عدن يَدخلونها يُحلون فيها من أساور من ذهب ولؤلؤاً ، ولباسهم فيها حرير . وقالوا الحمد لله الذي أذهب عنا الحَزَن إن ربنا لغفور شكور . الذي أحلنا دار المُقامة من فضله ، لا يمسُّنا فيها نصب ولا يمسُّنا فيها لُغوب .)) فاطر : ٣١ - ٣٥ .

المعنى الاجمالي :

يبين - سبحانه - في هذه الآيات أن الكتاب الذي يتلوه المؤمنون هو القرآن الذي أنزله على رسوله محمد - صلى الله عليه وسلم - وهذا الكتاب - أي القرآن - هو الحق الذي يجب أن يتلى ويعمل بما فيه فقط، لأنه جاء مصدقاً للكتب الإلهية السابقة أيضا - كالتوراة والإنجيل والزبور وغيره - أنزله عليك لأنك تتحلى بصفات النبوة التي يعلمها الله ، وقد أودعها فيك من قبل أن يوحي إليك ، فالله - سبحانه - (محيط ببواطن الأمور وظواهرها ، فلو كان من أحوالك ما ينافي النبوة لم يوح إليك مثل هذا الحق المعجز الذي هو عيار على سائر الكتب)(١) .

ثم أكرم الله - سبحانه - أمة محمد - صلى الله عليه وسلم - بأن اصطفاها لتلقى القرآن من بعد نبيه لتلاوته والعمل بمقتضاه ، فالمؤمنون بهذا القرآن ينقسمون إلى ثلاثة أصناف ، صنف ظلم نفسه بتقصيره بما يجب عليه فعله من التلاوة والتطبيق ، وكانت مخالفته للكتاب كثيرة ، أدت إلى عقابه .

وصنف منهم يتردد بين التقصير والعمل ، وهو المقتصد .

وصنف متقدم بارز مجتهد في الالتزام بالتلاوة والتطبيق ، وهذا الصنف هو السابق المتقدم الى ثواب الله وتوفيقه وفضله .

قال ابن جرير : سبوق هذا السابق من سبقه بالخيرات باذن الله هو الفضل الكبير الذي فضل به من كان مقصراً عن منزلته في طاعة الله من المقتصد والظالم لنفسه (٢) .

---

(١) ابو السعود : التفسير ج ٧ ص ١٥٢ .

(٢) الطبري : التفسير ج ٢٢ ص ٩٠-٩١ . قال الزمخشري : (الذين اصطفينا من عبادنا) وهم أمته من الصحابة والتابعين وتابعيهم ... ثم قسمهم الى ظالم لنفسه مجرم ، وهو المرجأ لأمر الله ، ومقتصد ، وهو الذي خلط عملا صالحا وآخر سيئا ، وسابق من السابقين - الكشاف ج ٣ ص ٣٠٨-٣٠٩ =

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ثم يبين - سبحانه - ثوابهم ، ووضح ما يستحقونه بفضله ورحمته من الفضل ، فقال : (جنات عدن) ... الاية ، هذه الجنات التي أعدها الله لعباده المؤمنين ، يدخلونها بفضل الله ورحمته ، ومما يدل على سرعة الدخول فيها قوله تعالى (يحلون فيها) ردف قوله (يدخلونها) ويحلون فيها بما كانوا محرومين منه في الدنيا ، أساور من الذهب واللؤلؤ ، جزاء التزامهم بأوامر الله في الدنيا ، وكذلك ملابسهم التي يرتدونها فهي من الحرير الخالص الناعم .

وبعد هذا الفيض من النعم والفضل وحسن الثواب من الله - تعالى - وبعد الشعور بالطمأنينة والراحة ، يقول أهل الجنة : (الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن) .

وقال ابن جرير : وخوف دخول النار من الحزن ، والجزع من الموت من الحزن ، والجزع من الحاجة إلى المطعم من الحزن ، ولم يخص الله إذ أخبر عنهم أنهم حمدوه على إذهابه الحزن عنهم نوعاً دون نوع ، بل أخبر عنهم أنهم عموا جميع أنواع الحزن بقولهم ذلك (١) .

= قال ابن المنير : وقد صدرت هذه الآية بذكر المصطفين من عباد الله ، ثم قسمتهم الى الظالم والمقتصد والسابق ، ليلزم اندراج الظالم لنفسه من الموحدين من المصطفين ، وانه لمنهم ، وأي نعمة أتم وأعظم من اصطفائه للتوحيد والعقائد السالمة من البدع ، فما بال المصنف يطنب في التسوية بين الموحد المصطفى ، والكافر المجترىء . الانتصاف ، حاشية الكشاف ج ٣ ص ٣٠٩ .

وقال الزمخشري أيضا : فان قلت : كيف جعلت (جنات عدن بدلا من الفضل الكبير الذي هو المسبب كأنه هو الثواب ، فأبدلت عنه (جنات عدن) وفي اختصاص السابقين بعد التقسيم بذكر ثوابهم والسكوت عن الآخرين ما فيه من وجوب الحذر ، فليحذر المقتصد ، وليملك الظالم لنفسه حذرا ، وعليهما بالتوبة النصوح المخلصة من عذاب الله ، ولا يغتر بما رواه عمر - رضي الله عنه - عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - (سابقنا سابق ، ومقتصدنا ناج ، وظالمنا مغفور له) فان شرط ذلك : صحة التوبة ، لقوله تعالى : (عسى الله ان يتوب عليهم) التوبة : ١٠٢ ، الكشاف ج ٣ ص ٣٠٩ .

قال ابن المنير : وقوله (جنات عدن يدخلونها) الضمير فيه راجع الى المصطفين عموما ، والجنات جزاؤهم على توحيدهم جميعا ، واعرابها : (جنات) مبتدأ ، و (يدخلونها) الخبر . وقوله (يحلون فيها من أساور من ذهب ولؤلؤا ولباسهم فيها حرير) الى آخر الآية خبر بعد خبر ، وخبر على خبر ، والله المستعان - الانتصاف - حاشية الكشاف ج ٣ ص ٣٠٩ .

(١) الطبري : التفسير ج ٢٢ ص ٩١ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويحمدون الله - تعالى - على أن غفر ذنوبهم الكثيرة ، وقبل محاسن أعمالهم اليسيرة ، وأسكنهم دار الإقامة الدائمة التي لا انتقال عنها أبداً ، وهي الجنة التي لا يصيبهم فيها التعب ولا الإعياء .

التحليل اللفظي :

ألـ : في قوله (الحق) للجنس . وأفاد قصر جنس الحق على (الذي أوحينا إليك) (١) .

أورثنا الكتاب : الكتاب المعهود ، وهو الذي سبق ذكره في قوله (والذي أوحينا إليك من الكتاب) أي القرآن ...

أورثنا : جعلنا وارثين ، يقال : ورث إذا صار إليه مال ميت قريب ، ويستعمل بمعنى الكسب عن غير اكتساب ولا عوض ، فيكون معناه : جعلناهم آخذين الكتاب منا ، أو نجعل الإيراث مستعملاً في الأمر بالتلقي ، أي أمرنا المسلمين بأن يرثوا القرآن ، أي يتلقوه من الرسول - صلى الله عليه وسلم - (٢) .

ظالم لنفسه : الظالمون لأنفسهم هم الذين يجرون أنفسهم إلى ارتكاب المعصية ، فإن معصية المرء ربه ظلم لنفسه لأنه يورطها في العقوبة (٣) .

مقتصد : يتردد بين العمل به ومخالفته ... وأصل معنى الاقتصاد : التوسط في الأمر (٤) .

السابق : أصله : الواصل إلى غاية معينة قبل غيره من الماشين إليها ، وهو هنا مجاز لإحراز الفضل ...

الخيرات : جمع خير ، على غير قياس ، والخير : النافع ، والمراد هنا : الطاعات (٥) .

---

(١) ابن عاشور : التحرير والتنوير جـ ٢٢ ص ٣٠٩ .
(٢) المرجع نفسه جـ ٢٢ ص ٣١١ .
(٣) المرجع نفسه جـ ٢٢ ص ٣١٢ .
(٤) الالوسي : روح المعاني جـ ٢٢ ص ١٩٥ - ١٩٦ .
(٥) ابن عاشور : التحرير والتنوير جـ ٢٢ ص ٣١٣ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الفضل : الزيادة في الخير ، والكبير ، مراد به ذو العظم المعنوي ، وهو الشرف ، وهو فضل الخروج من الكفر إلى الإيمان(١) .

أساور : جمع أَسورة ، وأَسورة جمع سِوار(٢) ... وقال الراغب: وسوار المرأة مُعرّب . وأصله : دستوار ، وكيفما كان ، فقد استعملته العرب ، واشتق منه سَوّرْتُ الجارية ، والجارية مُسَوّرة(٣) .

الحزن : الحَزن والحُزن خشونة في الأرض ، وخشونة في النفس لما يحصل فيها من الغم ، ويضاده الفرح (٤) .

المقامة : بضم الميم الأولى ، أي : الإقامة ، من الرباعي: أقام (و أما المَقام بفتح الميم الأولى من الثلاثي : (قام) ويعبر بالإقامة عن الدوام(٥) .

المس : الإصابة في ابتداء أمرها (٦) .

النَّصَب : التعب ، وأنصبني كذا ، أي أتعبني وأزعجني ، قال الشاعر : تأوبني هم مع الليل مُنْصِب (٧) .

لُغوب : أي : إعياء في طلب المعاش وغيره (٨) .

وجه الارتباط بالآيات السابقة :

بعد أن بين - سبحانه - في الآيات السابقة أن العلماء هم الذين يخشون ربهم ، وهم الذين يتلون كتاب الله ، ويعملون بما فيه ،بين في هذه الآيات أن كتاب الله هو الكتاب المنزل على محمد - صلى الله عليه وسلم - نفسه المقصود ، وصنف الناس حسب الإيمان به وتلاوته والعمل بما فيه ، وبين جزاء كل صنف منهم ، وحاله في الاخرة .

---

(١) ابن عاشور : المرجع السابق جـ ٢٢ ص ٣١٤ .
(٢) الرازي : التفسير الكبير جـ ٢٦ ص ٢٦ .
(٣) الراغب : المفردات ص ٢٤٧ .
(٤) الراغب : المرجع نفسه ص ١١٥ .
(٥) الراغب : المرجع نفسه ص ٤١٨ .
(٦) ابن عاشور : المرجع السابق جـ ٢٢ ص ٣١٧ .
(٧) الراغب : المرجع نفسه ص ٤٩٤ .
(٨) الطبرسي : مجمع البيان جـ ٨ ص ٦٣٩ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

القـــراءات :

قرأ أبو عمرو (يدخلونها) مبنياً للمفعول ، ورويت عن ابن كثير ، وقرأ الجمهور مبنياً للفاعل(١) .

فالحجة لمن قرأ بفتح الياء - أي مبنياً للفاعل - أنه جعل الدخول فعلاً لهم ، والتحلية إلى غيرهم ، ففرق بين الفعلين لهذا المعنى ، والحجة لمن قرأه بضم الياء - أي مبنياً للمفعول - أنه جعله فعل ما لم يسم فاعله وزاوج بذلك بين هذا الفعل وبين قوله (يدخلونها) و (يحلون) ليشاكل بذلك بين اللفظين(٢) .

(ولؤلؤاً) قرىء بالنصب والخفض ، فبالنصب عطفاً على محل (من أساور) وبالخفض عطفاً على (ذهب)(٣) .

الإعـــراب :

جملة (والذي أوحينا إليك من الكتاب) معطوفة على جملة (إن الذين يتلون كتاب الله) فهي مثلها في حكم الاستئناف ...

وضمير (هو) ضمير فصل ، وهو مؤكد لما أفاده تعريف المسند من القصر (٤) .

مصدقاً : حال مؤكدة من (الكتاب) والعامل فيه فعل (أوحينا) ليفيد أنه مع كونه حقاً بالغاً في الحقية فهو مصدق للكتب الحقة ، ومقرر لما اشتملت عليه من الحق(٥) .

ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا) ..(ثم) للترتيب الرتبي كما هو شأنها في عطفها الجمل ، فهي هنا لعطف الجمل عطفاً ذكرياً ، فالمتعاطفات بها بمنزلة المستأنفات ، فهذه الجملة كالمستأنفة و (ثم) للترقي في الاستئناف ...

---

(١) أبو حيان : البحر المحيط جـ ٧ ص ٣١٤ .
(٢) ابن خالويه : الحجة ص ٢٧٠ .
(٣) الشوكاني : فتح القدير جـ ٤ ص ٣٥٠ .
(٤) ابن عاشور : التحرير والتنوير جـ ٢٢ ص ٣٠٩ .
(٥) الزمخشري : الكشاف جـ ٣ ص ٣٠٨ . وأبو السعود : التفسير جـ ٧ ص ١٥٢ .
وابن عاشور : التحرير والتنوير جـ ٢٢ ص ٣١٠ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الكتاب : مفعول ثان لـ (أورثنا) والمفعول الأول هو الموصول (الذين)[١] .

(فمنهم ظالم لنفسه) : الفاء للتفصيل[٢] .

وضمير (منهم) عائد إلى (الذين اصطفينا)[٣] .

بالخيرات : الباء : للظرفية ، أي في الخيرات ...

(بإذن الله) الباء : للسببية متعلقة بـ(سابق) ، ويجوز أن تكون للملابسة وتصبح ظرفاً مستقراً في موضع الحال من (سابق) ، أي متلبساً بإذن الله ، ويكون الإذن مصدراً بمعنى المفعول ، أي سابق ملابس لما أذن الله به ، أي لم يخالفه[٤] .

جنات عدن : بدل من (الفضل الكبير) الذي هو السبق بالخيرات المشار إليه بـ (ذلك) ، لأنه لما كان السبب في نيل الثواب ، نزل منزلة المسبب ، كأنه هو الثواب . فأبدلت عنه (جنات عدن)[٥] .

وفي البحر المحيط : (جنات) مبتدأ . و(يدخلونها) الخبر[٦] .

وضمير الجماعة في (يدخلونها) راجع إلى (الذين اصطفينا)[٧].

يحلون : خبر ثان لجنات ، أو حال مقدرة[٨] .

جملة (وقالوا ..) في موضع الحال من ضمير (يحلون) .

(دار المقامة) : منصوب على المفعول الثاني لـ (أحلنا).

و (من) : في قوله (من فضله) ابتدائية في موضع الحال من (دار المقامة) ...

وجملة (لا يمسنا فيها نصب) حال ثانية[٩] .

البلاغة :

(والذي أوحينا اليك) ابتداء التنويه بالقرآن بأنه وحي من الله إلى رسوله ، وناهيك بهذه الصلة تنويهاً بالكتاب ، وهو يتضمن تنويهاً بشأن الذي أنزل عليه من قوله (والذي أوحينا إليك) ففي هذا مسرة للنبي - صلى الله عليه وسلم - وبشارة له بأنه أفضل الرسل ، وأن كتابه أفضل الكتب .

---

(١) ابن عاشور : التحرير والتنوير : ج ٢٢ ص ٣١٠ - ٣١١ .
(٢) الالوسي : روح المعاني ج ٢٢ ص ١٩٥ .
(٣) ابن عاشور : المرجع نفسه ج ٢٢ ص ٣١٢ .
(٤) المرجع نفسه ج ٢٢ ص ٣١٣ .
(٥) الزمخشري : الكشاف ج ٣ ص ٣٠٩ .
(٦) ابو حيان : البحر المحيط ج ٧ ص ٣١٤ .
(٧) ابن عاشور : المرجع نفسه ج ٢٢ ص ٣١٤ .
(٨) ابو السعود : التفسير ج ٧ ص ١٥٣ .
(٩) ابن عاشور : المرجع نفسه ج ٢٢ ص ٣١٥ - ٣١٦ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وهذه نكتة تعريف المسند إليه باسم الموصول ،لما في الصلة من الإيماء إلى وجه كونه الحق الكامل ، دون الإضمار الذي هو مقتضى الظاهر بأن يقال : وهو الكتاب الحق(١) .

(من الكتاب)،(من) بيانية لما في الموصول من الإبهام . والتقدير: والكتاب الذي أوحينا إليك هو الحق . فقدم الموصول الذي حقه أن يقع صفة للكتاب تقديماً للتشويق بالإبهام ليقع بعده التفصيل فيتمكن من الذهن فضل تمكن ...

والتعريف في (الحق) تعريف الجنس ، وأفاد تعريف الجزأين قصر المسند على المسند إليه ، أي قصر جنس الحق على (الذي أوحينا إليك) وهو قصر ادعائي للمبالغة لعدم الاعتداد بحقية ما عداه من الكتب (٢) .

(ان الله بعباده لخبير بصير) تقديم الخبير للتنبيه على أن العمدة هي الأمور الروحانية (٣) .

وذكر البصير عقبه للعناية بالأعمال التي هي من المبصرات ، وهي غالب شرائع الإسلام (٤) .

(ثم أورثنا الكتاب) التعبير عنه بالماضي لتقرره وتحققه (٥) .

(ذلك هو الفضل الكبير) ذلك : إشارة إلى السبق بالخيرات ، وما فيه من معنى البعد مع قرب العهد بالمشار إليه للإشعار بعلو رتبته وبعد منزلته في الشرف (٦) .

وضمير الفصل (هو) لتأكيد القصر الحاصل من تعريف الجزأين ، وهو حقيقي ، لأن الفضل الكبير منحصر في المشار إليه بذلك ، لأن كل فضل هو غير كبير إلا ذلك الفضل(٧) .

وجاء بجمع الجمع في أساور ، وليس كذلك (لباسهم) لأن الإكثار من اللباس يدل على حاجة من دفع ضر أو غيره ، والإكثار من الزينة لا يدل إلا على الغنى(٨)

(وقالوا) صيغة الماضي للدلالة على التحقق(٩) .

(لا يمسنا فيها نصب ولا يمسنا فيها لغوب) التصريح بنفي الثاني مع استلزام نفي الأول له ، وتكرير الفعل المنفي للمبالغة في انتفاء كل منهما استقلالاً (١٠) .

---

(١)ابن عاشور : التحرير والتنوير ج ٢٢ ص ٣٠٨ – ٣٠٩ . (٢)المرجع نفسه ج ٢٢ ص ٣٠٩ . (٣) ابو السعود : التفسير ج ٧ ص ١٥٢ .
(٤) ابن عاشور : المرجع نفسه ج ٢٢ ص ٣١٠ . (٥) ابو السعود: المرجع نفسه ج ٧ ص ١٥٢–١٥٣. (٦) ابو السعود : التفسير ج ٧ ص ١٥٣ .
(٧) ابن عاشور :المرجع نفسه ج ٢٢ ص ٣١٤ .
(٨)الرازي : التفسير الكبير ج ٢٦ ص ٢٦–٢٧. (٩) ابو السعود: المرجع السابق ج ٧ ص ١٥٣. (١٠)المرجع نفسه ج ٧ ص١٥٤. والصابوني:الصفوة ج٢ص ٥٨٢.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

((والذين كفروا لهم نار جهنم لا يُقضى عليهم فيموتوا ، ولا يُخفف عنهم من عذابها ، كذلك نجزي كل كفور . وهم يصطرخون فيها ربنا أخرجنا نعمل صالحاً غير الذي كنا نعمل ، أولم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر وجاءكم النذير ، فذوقوا فما للظالمين من نصير . إن الله عالم غيب السموات والأرض ، إنه عليم بذات الصدور . هو الذي جعلكم خلائف في الأرض ، فمن كفر فعليه كفره ، ولا يزيد الكافرين كفرهم عند ربهم إلا مقتاً ، ولا يزيد الكافرين كفرهم إلا خساراً .)) فاطر : ٣٦ - ٣٩ .

المعنى الإجمالي :

يبين الله - سبحانه وتعالى - مصير الذين كفروا بالكتاب الحق الذي أوحاه إلى محمد - صلى الله عليه وسلم - ، فبين أن جزاء كفرهم أنهم في نار جهنم خالدين فيها ، لا يحكم عليهم بالموت فيها فيموتوا ويستريحوا من العذاب ، ولا يخفف عنهم شيء من العذاب ، بل كلما خبت زيد إسعارها ، وكلما نضجت جلودهم بدلهم الله بجلود غيرها ، ليذوقوا العذاب جزاء ما كانوا يكفرون ، لأن هذا هو الجزاء العادل لكل جاحد معاند مصر على كفره .

وهم في النار يتصارخون ويستغيثون ، ويدعون الله - سبحانه - أن يخرجهم من النار ويعيدهم إلى الدنيا ليؤمنوا ويعملوا صالحاً بدل الكفر وعمل السوء ، فيقال لهم على جهة التقرير والتوبيخ ، (أولم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر وجاءكم النذير) فلاخروج لكم من النار ولا عودة الى العمل ، لأنكم لو عدتم لعدتم إلى الكفر وعمل السيئات ، فقد عمرتم في الدنيا ما يكفي للاتعاظ لمن أراد العمل الصالح ، فضلاً عن مجيء النذير - أي الرسول - إليكم ، وكل ذلك لم ينفع معكم ، فذوقوا العذاب جزاء كفركم فلن تجدوا نصيراً لكم من شركائكم الذين أشركتموهم بالله - تعالى - .

ثم يقرر - سبحانه - دوامهم في العذاب[1] بقوله : (ان الله عالم غيب السموات والأرض) والغيب كل غيب فيهما ، أي لا يخفى عليه - سبحانه - خافية فيهما ، فلا تخفى عليه - جل شأنه - أحوالكم التي اقتضت الحكمة أن يعاملوا بهذه المعاملة ، ولا يخرجوا من النار[2] ، لأنهم لو خرجوا من النار لعادوا إلى كفرهم وضلالهم ، فالله - سبحانه وتعالى - جعلكم خلائف ممن قبلكم من الأمم ، وأورثكم ما بأيديهم من متاع الدنيا لتشكروه بالتوحيد والطاعة ، ولم تفعلوا ذلك . فلم تضروا الله شيئاً ، ولم تضروا المؤمنين شيئا ، فمن كفر منكم مثل هذه النعمة

(١) انظر: الرازي : التفسير الكبير جـ ٢٦ ص ٣٠ .
(٢) انظر : الالوسي : روح المعاني جـ ٢٢ ص ٢٠١ - ٢٠٢ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

السنيـــة وغمطهـا فعليـة فقـط وبـال كفـره لا يتعداه إلى غيـــــره ، ووبـال الكفـر وغـائلتـه هو مقـت اللـه وبغضـه الشديد الذي ليـس وراءه خزي وصغـار ، وخسـار الآخـرة الذي ما بعده شـر وخسار[١] ، عافانـا الله من الكفر وعواقبه .

التحليـل اللفظـي :

يقضـي : القضاء : فصل الأمر قولاً كان ذلك أو فعلاً ، وهو فـــي الآيـــة كناية عن الموت [٢] .

يصطرخـون : يتصارخون ، يفتعلون من الصراخ ، وهو الصياح بجهـــد وشدة ... واستعمل في الاستغاثة لجهد المستغيث صوتـه [٣] .

النذيـر : الإنذار : إخبار فيه تخويف ، والنذير : المنذر ، ويقـع على كل شيء فيه إنذار ، إنساناً كان أو غيره [٤] ، وهو هنـا الرسول محمد - صلى الله عليه وسلم -[٥] .
وقيل : النذير : الشيـب ، قال ابن جرير : قال ابن زيـد في قوله (وجاءكم النذير) قال : النذير : النبي ، وقرأ (هذا نذير من النذر الأولى)[٦] .

وقال ابن كثير : وهذا هو الصحيح عن قتادة فيما رواه شيبان عنـه أنه قال : احتج عليهم بالعمر والرسل ، وقال : وهذا اختيـار ابن جرير ، وهو الأظهر ، لقوله تعالى : (ونادوا يا مالـك ليقض علينا ربك ، قال : إنكم ماكثون ، لقد جئناكـم بالحق ولكن أكثركم للحق كارهون) أي : لقد بينا لكم الحـق على ألسنة الرسل فأبيتم وخالفتـم[٧] .

---

(١) انظر : أبو السعود : التفسير ج ٧ ص ١٥٥ .
(٢) الراغب : المفردات ص ٤٠٦ .
(٣) الزمخشري : الكشاف ج ٣ ص ٣١٠ .
(٤) الراغب : المفردات ص ٤٨٧ .
(٥) ابن عاشور : التحرير والتنوير ج ٢٢ ص ٣١٩ .
(٦) الطبري : التفسير ج ٢٢ ص ٩٣ .
(٧) ابن كثير : التفسير ج ٣ ص ٥٦٧ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الظلم : في اللغة : وضع الشيء في غير موضعه المختص به ، إما بنقصان أو بزيادة ، وإما بعدول عن وقته أو مكانه ، ومن هذا يقال : ظلمت السقاء ، إذا تناولته في غير وقته ، ويسمى ذلك اللبن (الظليم) ... والظلم يقال في مجاوزة الحق الذي يجري مجرى نقطة الدائرة ، ويقال فيما يكثر وفيما يقل من التجاوز ولهذا يستعمل في الذنب الكبير وفي الذنب الصغير ، ولذلك قيل لآدم في تعديه : ظالم ، وفي إبليس ظالم ، وإن كان بين الظلمين بون بعيد ... والظلم ثلاثة أنواع : الأول : ظلم بين الإنسان وبين الله تعالى ، وأعظمه الكفر والشرك والنفاق ، مثل: (إن الشرك لظلم عظيم).

والثاني : ظلم بينه وبين الناس ، مثل : (إنما السبيل على الذين يظلمون الناس) .

والثالث : ظلم بينه وبين نفسه (فمنهم ظالم لنفسه ..) وكل هذه الثلاثة في الحقيقة ظلم للنفس ، فإن الإنسان في أول ما يهم بالظلم فقد ظلم نفسه ، فإذاً : الظالم أبداً مبتدىء في الظلم ، ولهذا قال تعالى في غير موضع : (وما ظلمهم الله ولكن كانوا أنفسهم يظلمون) [1] .

ذات الصدور : ضمائر الناس ونياتهم [2] .

خلائف : الخلافة : النيابة عن الغير إما لغيبة المنوب عنه ، وإما لموته ، وإما لعجزه وإما لتشريف المستخلف ، وعلى هذا الوجه الأخير استخلف الله أولياءه في الأرض ، قال تعالى : (هو الذي جعلكم خلائف في الأرض) والخلائف جمع خليفة ، وخلفاء جمع خليف [3] .

المقت : البغض الشديد لمن تراه تعاطى القبيح ، يقال : مقت مقاتة فهو مقيت ، ومقته فهو مقيت وممقوت . (إنه كان فاحشة ومقتاً وساء سبيلاً) . وقيل : هو البغض مع خزي وصَغار [4] .

الخَسار : مصدر خسر مثل الخسارة . والخسر والخسران انتقاص رأس المال ، وينسب ذلك إلى الإنسان ، فيقال خسر فلان ، وإلى الفعل

---

(١) الراغب : المفردات ص ٣١٥ — ٣١٦ .
(٢) ابن عاشور : التحرير والتنوير ج ٢٢ ص ٣٢١ .
(٣) الراغب : المرجع نفسه ص ١٥٦ . وانظر : ابو السعود : التفسير ج ٧ ص ١٥٥ .
(٤) الراغب : المرجع نفسه ص ٤٧٠ . وانظر : ابو السعود : المرجع نفسه ج ٧ ص ١٥٥ . وابن عاشور : المرجع نفسه ج ٢٢ ص ٣٢٣ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فيقال : خسرت التجارة ، ويستعمل في المقتنيات الخارجة كالمال والجاه في الدنيا ، وهو الأكثر ، وفي المقتنيات النفسية كالصحة والسلامة والعقل والإيمان والثواب ، وهو الذي جعله الله تعالى الخسران المبين [١] .

وجه الارتباط بالآيات السابقة :

بعد أن بين - سبحانه - أن الكتاب الذي أوحاه إلى محمد - صلى الله عليه وسلم - هو الحق وبين في الآيات السابقة حال المؤمنين به ومصيرهم في الآخرة ، بين - سبحانه - في هذه الآيات حال الكافرين بالقرآن ، ومصيرهم في الآخرة .

القراءات :

اختلف القراء في قوله تعالى : (كذلك نجزي كل كفور) فقرأ أبو عمرو بالياء وضمها وفتح الزاي ورفع (كل) وقرأ الباقون بالنون وفتحها وكسر الزاي ونصب (كل) [٢] .

فالحجة لمن قرأ بالياء والضم : أنه دل بالفعل على بنائه لما لم يسم فاعله فرفع ما أتى بعد به ، والحجة لمن قرأه بالنون والفتح : أنه أراد حكاية ما أخبر الله - عز وجل - عن نفسه ، ونصب قوله (كل كفور) بتعدي الفعل إليه [٣] .

الإعراب :

جملة (والذين كفروا) معطوفة على جملة (جنات عدن يدخلونها ...) وجملة (لا يقضى عليهم) بدل اشتمال من جملة (لهم نار جهنم) [٤] .

فيموتوا : جواب النفي ، ونصبه بإضمار (أن) [٥] .

ونائب فاعل (يخفف) (عنهم) ، و (من عذابها) في موضع نصب ، ويجوز

---

(١) الراغب : المفردات ص ١٤٧ ، وانظر : ابن عاشور : التحرير والتنوير : جـ ٢٢ ص ٣٢٣ .
(٢) ابن الجزري : النشر جـ ٢ ص ٣٥٢ ، والتقريب ص ١٦٤ ، والتحبير ص ١٦٣ .
(٣) ابن خالويه : الحجة ص ٢٧٠ .
(٤) ابن عاشور : التحرير والتنوير جـ ٢٢ ص ٣١٧ .
(٥) الزمخشري : الكشاف جـ ٣ ص ٣١٠ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

العكس ، وجوز أن تكون (من) زائدة فيتعين رفع مجرورها على أنه النائب عن الفاعل [١] .

وضمير (عذابها) عائد إلى جهنم ليشمل ما ورد من أن المعذبين يعذبون بالنار ويعذبون بالزمهرير ، وهو شدة البرد ، وكل ذلك من عذاب جهنم .

ووقع (كذلك) موقع المفعول المطلق لقوله (نجزي) أي نجزيهم جزاء كذلك الجزاء ...

(وهم يصطرخون فيها) الضمير إلى (الذين كفروا) والجملة عطف على جملة (لهم نار جهنم) ... وجملة (ربنا أخرجنا ..) بيان لجملة (يصطرخون) [٢] .

والإرادة الوعد جزم (نعمل صالحاً) في جواب الدعاء ، والتقدير: إن يخرجنا نعمل صالحاً .

و (غير الذي كنا نعمل) : نعت لـ (صالحاً) ...

والواو في (أو لم نعمركم) عاطفة فعل قول محذوفاً لعلمه من السياق بحسب الضمير في (نعمركم) معطوفاً على جملة (وهم يصطرخون فيها) فإن صراخهم كلام منهم ، والتقدير : يقولون : ربنا أخرجنا ، ونقول : ألم نعمركم [٣] .

(ما) مصدرية ظرفية ، أي مدة يذكر [٤] .

وجملة (يتذكر فيه من تذكر) صفة لـ (ما) [٥] ... وجملة (وجاءكم النذير) عطف على جملة (ألم نعمركم) [٦] .

وجملة (هو الذي جعلكم خلائف في الأرض) معترضة بين جملة (إن الله عالم غيب السموات والأرض) الآية وبين جملة (فمن كفر فعليه كفره) ....

وجملة (ولا يزيد الكافرين كفرهم عند ربهم إلا مقتاً) بيان لجملة (فمن كفر فعليه كفره) [٧] .

البلاغة :

قدم المجرور في (لهم نار جهنم) على المسند إليه للتشويق إلى ذكر المسند إليه حتى إذا سمعه السامعون تمكن في نفوسهم تمام التمكن [٨] .

---

(١) الالوسي : روح المعاني جـ ٢٢ ص ٢٠٠ .
(٢) ابن عاشور : التحرير والتنوير جـ ٢٢ ص ٣١٨ .
(٣) المرجع نفسه جـ ٢٢ ص ٣١٩ .
(٤) ابو حيان : البحر المحيط جـ ٧ ص ٣١٦ .
(٥) ابن عاشور : المرجع نفسه جـ ٢٢ ص ٣١٩ .
(٦) ابو السعود : التفسير جـ ٧ ص ١٥٤ .
(٧) ابو السعود : المرجع نفسه جـ ٧ ص ١٥٥ . وابن عاشور : المرجع نفسه جـ ٢٢ ص ٣٢٢ .
(٨) ابن عاشور : المرجع نفسه جـ ٢٢ ص ٣١٧ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وزيادة (غير الذي كنا نعمل) على قوله (صالحاً) يفيد التحسر على ما عملوه من غير الصالح مع الاعتراف به ...

والاستفهام في قوله (أولم نعمركم) للتوبيخ[١] .

والأمر في قوله (فذوقوا) مستعمل في معنى الدوام ، وهو كناية عن عدم الخلاص من العذاب[٢] .

وقوله (فما للظالمين من نصير) للتعليل ، قيل : كان الظاهر أن يقال : فما لكم من نصير ، ولكن عدل إلى الظاهر دون الضمير لتقريعهم ، والمراد استمرار نفي أن يكون لهم نصير يرفع عنهم العذاب[٣] .

وجيء في الإخبار بعلم الله بالغيب بصيغة اسم الفاعل ، وفي الإخبار بعلمه بذات الصدور بصيغة المبالغة ، لأن المقصود من إخبار المخاطبين تنبيههم على أنه كناية عن انتفاء أن يفوت علمه تعالى شيء ، وذلك كناية عن الجزاء عليه ، فهي كناية رمزية .

والجملة الاسمية (هو الذي جعلكم خلائف في الأرض) مفيدة تقوي الحكم الذي هو جعل الله المخاطبين خلائف في الأرض ...

وقد تفرع على قوله (عليم بذات الصدور) قوله (فمن كفر فعليه كفره) وهو شرط مستعمل كناية عن عدم الاهتمام بأمر دوامهم على الكفر [٤] .

(ولا يزيد الكافرين كفرهم عند ربهم إلا مقتاً ، ولا يزيد الكافرين كفرهم إلا خساراً) التكرير لزيادة التقرير والتنبيه على أن اقتضاء الكفر لكل واحد من الأمرين الهائلين القبيحين بطريق الاستقلال والأصالة [٥] .

واستعير (الخسار) لخيبة العمل : شبه عملهم في الكفر بعمل التاجر والخاسر ، أي الذي بارت سلعته ، فباع بأقل مما اشتراها به ، فأصابه الخسار ، فكلما زاد بيعاً زادت خسارته حتى تفضي به إلى الإفلاس [٦] .

---

(١) الزمخشري : الكشاف ج ٣ ص ٣١٠ .

(٢) ابن عاشور : التحرير والتنوير ج ٢٢ ص ٣٢٠ .

(٣) الالوسي : روح المعاني ج ٢٢ ص ٢٠١ . وانظر ابن عاشور : المرجع نفسه ج ٢٢ ص ٣٢٠ .

(٤) ابن عاشور : المرجع نفسه ج ٢٢ ص ٣٢١ - ٣٢٢ .

(٥) ابو السعود : التفسير ج ٧ ص ١٥٥ .

(٦) ابن عاشور : المرجع نفسه ج ٢٢ ص ٣٢٣ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

((قل أرأيتم شركاءكم الذين تدعون من دون الله ، أروني مـــاذا خلقوا من الأرض ، أم لهم شرك في السموات ، أم آتيناهم كتاباً فهـــم على بينت منه ، بل إن يعد الظالمون بعضهم بعضاً إلا غروراً . إن الله يمسك السموات والأرض أن تزولا ، ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد مـــن بعده ، إنه كان حليماً غفوراً .)) فاطر : ٤٠ - ٤١ .

المعنى الاجمالـــــي :

تبين هذه الآيات بطلان إلهية الشركاء الذين ادعوهم آلهة مـــع الله - تعالى عما يصفون علواً كبيراً - فيقول - سبحانه - لمحمـــد - صلى الله عليه وسلم - ، قل لهم يا محمد : أخبروني أيها المشركون أخبروني عن الآلهة التي جعلتموها شركاء لله بزعمكم ، أخبرونـــي: أي جزء خلقوا من هذه الأرض ، وأي جزء في الأرض يدعى - أصلاً - أنـه مخلوق لهذه الآلهة المزعومة ، أم لهم شركة مع الله - سبحانه - في خلق السموات ليستحقوا بذلك شركة في الإلهية ، أم أرسلنا إليهم كتابـــاً ينطق بأن الله اتخذهم شركاء ، فهم على حجة ظاهرة من ذلك الكتاب بـأن لهم شركة في الإلهية مع الله ، وقال ابن جرير : يقول : أم آتينـا هؤلاء المشركين كتاباً أنزلناه عليهم من السماء بأن يشركـــوا باللـــه الأوثان والأصنام ، فهم على برهان مما أمرتهم فيـــه من الإشراك بي (١) .

كلا إ لم يخلقوا شيئاً وليس لهم شركة مع الله في خلق السموات ، ولم يأتهم كتاب ينطق باتخاذهم شركاء ، فليس لهم حجة أبداً، إنما الـــذي حملهم على فعل ذلك هو تغرير الأسلاف للأخلاف ، وإضلال الرؤساء للأتبـــاع بأنهم شفعاء عند الله يشفعون لهم بالتقريب إليه ، ويقول ابن كثيـــر: أم أنزلنا عليهم كتاباً بما يقولونه من الشرك والكفر ؟ وليس الأمـــر كذلك ، بل إنما اتبعوا في ذلك أهواءهم وآراءهم وأمانيهم التـــي تمنوها لأنفسهم وهي غرور وباطل وزور(٢) . وقال الألوسي : والمعنى أن عبادة هؤلاء إما بالعقل ، ولا عقل يحكم بصحة عبادة من لا يخلـــق جزءاً ما من الأرض ولا له شرك في السماء ، وإما بالنقل ، ولم نـــوّت المشركين كتاباً فيه الأمر بعبـــادة هؤلاء (٣) .

---

(١) الطبري : التفسير جـ ٢٢ ص ٩٤ .
(٢) ابن كثير : التفسير جـ ٣ ص ٥٦٨ .
(٣) الألوسي : روح المعاني جـ ٢٢ ص ٢٠٣ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ثم تستأنف الآية الثانية ببيان غاية قبح الشرك وهوله ، فأخبر تعالى عن قدرته العظيمة التي بها تقوم السماء والأرض عن أمره وما جعل فيهما من القوة الماسكة لهما أن تضطربا عن أماكنهما ، ولا يقدر على دوامهما وإبقائهما إلا هو ، وهو مع ذلك حليم غفور ، يرى عباده وهم يكفرون به ويعصونه وهو يحلم فيؤخر وينظر ، ويؤجل ولا يعجل ، ويستر آخرين ويغفر ، ولهذا قال تعالى : (إنه كان حليماً غفوراً)[1] .

وقال البغوي : فإن قيل : فما معنى ذكر الحلم ههنا ؟ قيل: لأن السموات والأرض همت بما همت به من عقوبة الكفار ، فأمسكهما الله تعالى عن الزوال لحلمه وغفرانه أن يعاجلهم بالعقوبة[2] .

التحليل اللفظي :

الشرك : اسم للنصيب المشترك في ملك شيء[3] .
وشرك الإنسان في الدين ضربان :
أحدهما : الشرك العظيم ، وهو إثبات شريك لله تعالى ، يقال : فلان أشرك بالله ، وذلك أعظم كفر .
والثاني : الشرك الصغير ، وهو مراعاة غير الله معه في بعض الأمور، وهو الرياء[4] .

الإمساك : إمساك الشيء : التعلق به وحفظه[5]. وحقيقته : القبض باليد على الشيء بحيث لا ينفلت ولا يتفرق ، فمثل حال حفظ نظام السموات والأرض بحال استقرار الشيء الذي يمسكه الممسك بيده[6] .

الزوال : زال الشيء يزول زوالاً : فارق طريقته ، والزوال يقال في شيء قد كان ثابتاً قبل ، فإن قيل : قد قالوا : زوال الشمس، ومعلوم أن لا ثبات للشمس بوجه ، قيل : إن ذلك قالوه لاعتقادهم في الظهيرة أن لها ثباتاً في كبد السماء[7] .

---

(١) انظر : ابن كثير : التفسير ج ٣ ص ٥٦٨ .
(٢) البغوي : التفسير ج ٣ ص ٥٧٤ .
(٣) ابن عاشور : التحرير والتنوير ج ٢٢ ص ٣٢٥ .
(٤) الراغب : المفردات ص ٢٥٩ - ٢٦٠ .
(٥) المرجع نفسه ص ٤٦٨ .
(٦) ابن عاشور : التحرير والتنوير ج ٢٢ ص ٣٢٧ .
(٧) الراغب : المفردات ص ٢١٧ - ٢١٨ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويطلق الزوال على العدم ، ويطلق على التحول من مكان إلى مكان[١] .

وجه الارتباط بالآيات السابقة :

بعد أن أفاضت السورة في ذكر أدلة الوحدانية ، وجرى فيها ذكر المؤمنين والمشركين ، وأن المشركين قد تمادوا في أذى المؤمنين جاءت هذه الآيات تبين بالحجة الدامغة بطلان إلهية الذين يدعونهم آلهة مع الله تعالى .

وقال ابن عاشور : ولما جرى ذكر المشركين وتعنتهم وحسبان أنهم مقتوا المسلمين عاد إلى الاحتجاج عليهم في بطلان إلهية آلهتهم بحجة أنها لا يوجد في الأرض شيء يدعي أنها خلقته ، ولا في السموات شيء لها فيه شرك مع الله ، فأمر الله رسوله - صلى الله عليه وسلم - أن يحاجهم ويوجه الخطاب إليهم بانتفاء صفة الإلهية عن أصنامهم ، وذلك بعد أن نفى استحقاقها لعبادتهم بأنها لا ترزقهم كما في أول السورة ، وبعد أن أثبت الله التصرف في مظاهر الأحداث الجوية والأرضية ، واختلاف أحوالها من قوله (والله الذي أرسل الرياح) وذكرهم بخلقهم وخلق أصلهم ، وقال عقب ذلك (ذلكم الله ربكم له الملك ... الآية) عاد إلى بطلان إلهية الأصنام [٢] .

القراءات :

اختلفوا في قراءة (بينت منه) فقرأ ابن كثير وأبو عمرو وحمزة وخلف وحفص بغير ألف على التوحيد ، وقرأ الباقون بالألف على الجمع [٣] .

فالحجة لمن وحد قوله (قد جاءكم بينة من ربكم) الأنعام: ١٥٧

---

(١) ابن عاشور : التحرير والتنوير ج ٢٢ ص ٣٢٨ .

(٢) المرجع نفسه ج ٢٢ ص ٣٢٣ - ٣٢٤ .

(٣) ابن الجزري : النشر ج ٢ ص ٣٥٢ . والتقريب ص ١٦٤ ، وتحبير التيسير ص ١٦٣ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وفرق بينهما بعض أهل النظر بفرقان مستحسن، فقال : من وحد ، أراد : الرسول عليه السلام ، ودليله قوله تعالى: (حتى تأتيهم البينة ، رسول من الله) البينة : ١- ٢ . ومن جمع أراد : القرآن ، ودليله ، قوله تعالى : (وبينات من الهدى والفرقان) البقرة : ١٨٥ (١) .

الإعراب :

أروني : : بدل اشتمال من أرأيتم ، لأنه بمعنى أخبروني(٢). وهي جملة اعتراضية فيها تأكيد للكلام وتسديد ... (شركاءكم)المفعول الأول لـ (أرأيتم) والمفعول الثاني (ماذا خلقوا)(٣) .

و (ماذا) كلمة مركبة من (ما) الاستفهامية و (ذا) التي بمعنى الذي حين تقع بعد اسم استفهام ، وفعل الإرادة معلق عن العمل في المفعول الثاني والثالث بالاستفهام .
والتقدير : أروني شيئا خلقوه مما على الأرض .

و(من) ابتدائية : أي شيئاً ناشئاً من الأرض ، أو تبعيضية على أن المراد بالأرض ما عليها ، كإطلاق القرية على سكانها في قوله (واسأل القرية) ..

و (أم) منقطعة للإضراب الانتقالي ، وهي تؤذن باستفهام بعدها ، والمعنى : بل ألهم شرك في السماوات (٤) .

(بل إن يعد) (إن) نافية ، والاستثناء مفرغ عن جنس الوعد محذوفاً .

وانتصب (غروراً) على أنه صفة للمستثنى المحذوف ، والتقدير : إن يعد الظالمون بعضهم بعضاً وعداً إلا وعداً غروراً(٥) .

قال الزجاج : يمسك : يمنع من أن تزولا ، فيكون مفعولاً ثانياً على إسقاط حرف الجر ... ويجوز أن يكون بدلاً ، أي يمنع زوال السموات والأرض ، بدل اشتمال ، (ولئن زالتا) إن تدخل غالباً على الممكن، فإن قدرنا دخولها على الممكن فيكون ذلك باعتبار يوم القيامة

---

(١) ابن خالويه : الحجة ص ٢٧١ .
(٢) ابو السعود : التفسير جـ ٧ ص ١٥٥ .
(٣) ابو حيان : البحر المحيط جـ ٧ ص ٣١٧ .
(٤) ابن عاشور : التحرير والتنوير جـ ٢٢ ص ٣٢٥ .
(٥) المرجع نفسه جـ ٢٢ ص ٣٢٧ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

عند طي السماء ونسف الجبال ، فإن ذلك ممكن ثم واقع بالخبر الصادق ، أي ولئن جاء وقت زوالهما ، ويجوز أن يكون ذلك على سبيل الفرض ، أي ولئن فرضنا زوالهما فيكون مثل (لو) في المعنى (١) .

(إن أمسكهما) : الجملة جواب القسم المقدر قبل لام التوطئة في (لئن) وجواب الشرط محذوف لدلالة جواب القسم عليه (٢) .

وقال ابن عاشور : اللام موطئة للقسم . والشرط وجوابه مقسم عليه ، أي محقق تعليق الجواب بالشرط ووقوعه عنده ، وجواب الشرط هو الجملة المنفية بـ (إن) النافية ، وهي أيضا سادّة مسد جواب القسم (٣) .

و (من) في (من أحد) لتأكيد الاستغراق ، و(من) في (من بعده) لابتداء الغاية ، أي من بعد ترك إمساكه ... و (من بعده) صفة (أحد) . (٤) .

البلاغة :

الموصول والصلة في قوله (الذين تدعون من دون الله) للتنبيه على الخطأ في تلك الدعوة ، كقول عبدة بن الطيب :

إن الذين ترونهم إخوانكم ... يشفى غليل صدورهم أن تصرعوا

وقرينة التخطئة تعقيبه بقوله (أروني ماذا خلقوا من الأرض) فإنه أمر للتعجيز ، إذ لا يستطيعون أن يروه شيئاً خلقته الأصنام ، فيكون الأمر التعجيزي في قوة نفي أن خلقوا شيئاً ما ، كما كان الخبر من بيت عبدة الوارد بعد الصلة قريبة على الصلة للتنبيه على خطأ المخاطبين (٥) .

وقرئ على بينات ، وفيه إيماء إلى أن الشرك أمر خطير لابد في إثباته من تعاضد الدلائل (٦) .

---

(١) ابو حيان: البحر المحيط ج ث ص ٣١٨ .
(٢) الالوسي : روح المعاني ج ٢٢ ص ٢٠٤ .
(٣) ابن عاشور : التحرير والتنوير ج ٢٢ ص ٣٢٨ .
(٤) ابو حيان : المرجع السابق ج ٧ ص ٣١٨ . وانظر : ابن عاشور : المرجع السابق ج ٢٢ ص ٣٢٩ .
(٥) ابن عاشور : التحرير والتنوير ج ٢٢ ص ٣٢٤ - ٣٢٥ .
(٦) ابو السعود : التفسير ج ٧ ص ١٥٥ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

(من بعده) : أي كائن من زمان بعده ، لأن حقيقة (بعد) تأخر زمان أحد عن زمن غيره المضاف إليه (بعد) وهو هنا مجاز عن المغايرة بطريق المجاز المرسل ، لأن بعدية الزمان المضاف تقتضي مغايرة صاحب تلك البعدية ، كقوله تعالى : (فمن يهديه من بعد الله) أي غير الله ، فالضمير المضاف إليه (بعد) عائد إلى الله ... وفي ذكر إمساك السموات عن الزوال بعد الإطناب في محاجة المشركين وتفظيع غرورهم يعرض بأن ما يدعون إليه من الفظاعة من شأنه أن يزلزل الأرضين ويسقط السماء كسفاً لولا أن الله أراد بقاءهما لحكمة ...

ولذلك أتبع بالتذييل بوصف الله تعالى بالحلم والمغفرة لما يشمله صفة الحليم من حلمه على المؤمنين أن لا يزعجهم بفجائع عظيمة ، وعلى المشركين بتأخير مؤاخذتهم فإن التأخير من أثر الحلم ، وما تقتضيه صفة الغفور من أن في الإمهال إعذاراً للظالمين لعلهم يرجعون ...

وفعل (كان) المخبر به عن ضمير الجلالة مفيد لتقرر الاتصاف بالصفتين الحسنيين[1] .

---

(١) ابن عاشور : التحرير والتنوير ج ٢٢ ص ٣٢٩ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

((وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءهم نذير ليكونن أهدى من إحدى الأمم ، فلما جاءهم نذير ما زادهم إلا نفوراً . استكباراً في الأرض ومكرَ السيء ولا يحيق المكرُ السيء إلا بأهله ، فهل ينظرون إلا سنت الأولين ، فلن تجد لسنت الله تبديلاً ولن تجد لسنت الله تحويلاً . أولم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم ، وكانوا أشد منهم قوة ، وما كان الله ليعجزه من شيء في السموات ولا في الأرض ، إنه كان عليماً قديراً . ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابة ، ولكن يؤخرهم إلى أجل مسمى ، فإذا جاء أجلهم فإن الله كان بعباده بصيراً .)) فاطر : ٤٢ - ٤٥ .

المعنى الإجمالي :

تبين هذه الآيات الكريمة تكذيب الكفار لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - بعدما قطعوه على أنفسهم من الأيمان عندما بلغهم قبل مبعثه - صلى الله عليه وسلم - أن أهل الكتاب كذبوا رسلهم فقالوا : لعن الله اليهود والنصارى ، أتتهم رسلهم فكذبوهم فوالله لئن جاءنا رسول لنكونن أهدى من إحدى الأمم ، فلما بعث رسول الله - صلى الله عليه وسلم - كذبوه (١) . فاجتهدوا في الحلف على أن يأتوا به على أبلغ ما في وسعهم ، لئن جاءهم رسول من عند الله ليكونن أهدى من الأمة التي يقال لها : إحدى الأمم تفضيلاً لها على غيرها في الهدى والاستقامة ، فلما جاءهم الرسول من عند الله - تعالى - أصروا على كفرهم ، بل وأكثر من ذلك أن ازدادوا إصراراً على الكفر والشرك بالله ما لم ينزل به سلطاناً ، وازدادوا بغضاً للحق وبعداً منه .

---

(١) انظر : الزمخشري : الكشاف ج ٣ ص ٣١٢ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

كل ذلك حدث منهم لا لأنهم لم يكونوا يعلمون أن هذا هو الحق ، وإنما السبب الحقيقي لكفرهم ونفورهم هو الاستكبار .

استكبروا عن اتباع آيات الله ، ومكروا بالناس في صدهم اياهم عن سبيل الله ، ولكن لا يعود وبال ذلك إلا عليهم أنفسهم دون غيرهم (١) .

ولكن ماذا ينتظرون من استكبارهم عن اتباع الحق ومكرهم بالناس السوء ، هل ينتظرون إلا أن ينزل العذاب بهم كما نزل بالأمم المكذبة قبلهم ، فإن أصروا على الكفر فإن عادة الله أن يعذب المكذبين لرسله ، فإذا قدر الله إنزال العذاب عليهم فإنه لا يتأخر ، ولا يقدر أحد أن يحوله عنهم إلى غيرهم (٢) .

ثم يذكرهم الله - سبحانه وتعالى - بما يرونه في أسفارهم وتنقلهم بين البلاد من آثار تدميره - سبحانه - وعذابه للأمم المكذبة ، فاستنكر - سبحانه - عليهم أنهم يمرون في أسفارهم على آثار هذه الأمم ، ويعرفون قصصهم ، ولم يتعظوا بهم ، إنها أمم كانت أقوى منهم ، فلم يمنعها ذلك ولم يغن عنها من عذاب الله من شيء ، لان الله تعالى لا يستعصي عليه ولا يفوته شيء أبداً، فقدرته - سبحانه - لا حد لها ، إنه سبحانه عليم بجميع الأشياء .

ومن رحمة الله - تعالى - وحلمه أنه لا يؤاخذ الناس بمجرد الظلم ، لأن الإنسان ظلوم جهول ، ولكن يؤاخذ بالإصرار على الظلم والتمادي فيه ، ولو آخذهم بمجرد الظلم لأهلك كل ما يدب على الأرض ، لكثرة الظلم وشدته ، ولكن اقتضت حكمة الله وحلمه أن يؤخر الناس ويمهلهم مدة يتوب فيها من شاء الله له أن يتوب ، وتثبت الحجة على من لم يتب .

فإذا جاء أجل العقاب ، فإن الله كان بعباده بصيراً ، من الذي يستحق أن يعاقب منهم ومن الذي يستوجب الكرامة ، ومن الذي كان في الدنيا له مطيعاً ، ومن كان فيها به مشركاً ، لا يخفى عليه أحد منهم ، ولا يعزب عنه علم شيء من أمرهم (٣) .

---

(١) انظر : ابن كثير : التفسير ج ٣ ص ٥٦٩ .
(٢) انظر : ابن الجوزي : زاد المسير ج ٦ ص ٤٩٨ .
(٣) الطبري : التفسير ج ٢٢ ص ٩٦ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

التحليـــل اللفظـــــي :

جَهْـد أيمانهم : الجَهد والجُهد ، الطاقة والمشقة ، وقيل : الجَهد بالفتـــح: المشقة ، والجُهد الوُسع ، وقيل : الجُهد للانسان ... (وأقسمـــوا بالله جَهد أيمانهم) أي حلفوا واجتهدوا في الحلف أن يأتوا بـه على أبلـغ ما فـي وسعهـم (١) .

نفوراً : النفر : الانزعاج عن الشيء وإلى الشيء ، كالفزع إلى الشـــيء وعن الشيء ، يقال : نفر عن الشيء نفوراً ، قال : (ما زادهـــم إلا نفوراً) ونفر إلى الحرب ينفُر وينفِر نفراً ،ومنه يـــــوم النفـــر (٢) .

الاستكبـــار : يقال على وجهين : أحدهما : أن يتحرى الإنسان ويطلـــب أن يصير كبيراً ، وذلك متى كان على ما يجب وفي المكان الذي يجب، وفي الوقت الذي يجب ، فمحمود . والثاني : أن يتشبع فيظهر مـــن نفسه ما ليس له ، وهذا هو المذموم ، وعلى هذا ما ورد فـــي القرآن (استكباراً في الأرض) (٣) .

يَحيـــق : يحيط وينزل (٤) .

ينظرون : ينتظرون ، وهو مجاز يجعل ما يستقبل بمنزلة ما ينتظـــر ويتوقـــع (٥) .

سنة الله : السنة : العادة ، وسنة الله : قد تقال لطريقة حكمته وطريقة طاعتـــه (٦) .

التبديل : تغيير الشيء بشيء ...

التحويل : نقل الشيء من مكان إلى غيره ، وكأنه مشتق من الحَوْل ، وهـو الجانب(٧) .

ظهرها : الظهر حقيقته متن الدابة الذي يظهر منها ، وهو ما يعلـــو الصلب من الجسد ، وهو مقابل البطن ، فأطلق على ظهر الإنســـان أيضا ، وإن كان غير ظاهر ، لأن الذي يظهر من الإنسان صـــدره وبطنه ، وظهر الأرض مستعار لبسطها الذي يستقر عليه مخلوقـــات الأرض تشبيهاً للأرض بالدابة المركوبة على طريقة المكنية ، ثـــم شاع ذلك فصار من الحقيقة (٨) .

---

(١)الراغب : المفردات ص ١٠١ .
(٢)الراغب : المفردات ص ٥٠١ . (٣)المرجع نفسه ص ٤٢١ .
(٤)الزمخشري : الكشاف ج ٣ ص ٣١٢ . (٥) الالوسي : روح المعاني ج٢٢ ص ٢٠٦.
(٦)الراغب : المفردات ص ٢٤٥ . وانظر: ابن عاشور: التحرير والتنويـــر ج ٢٢ ص ٣٣٧ . (٧) ابن عاشور : التحرير والتنوير ج ٢٢ ص ٣٣٧-٣٣٨ .
(٨)المرجع نفسه ج ٢٢ ص ٣٤٠ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وجه الارتباط بالآيات السابقة :

بعد أن جرى في الآيات السابقة ذكر أدلة الوحدانية ، وإنكار قريش لها ، جاءت هذه الآيات بذكر الرسول وتكذيبهم له ومبالغتهم في ذلك ، وبينت أسباب تكذيبهم له ، وحذرتهم من عاقبة تكذيبه بما ذكر فيها من سنة الله - تعالى - بإهلاك الأولين المكذبين لرسلهم رغم أنهم كانوا أقوى وأقدر منهم ، ولما خوفهم بمن مضى وكانوا من شدة عنادهم وفساد اعتقادهم يستعجلون بالعذاب ، بين - سبحانه - أن للعذاب أجلاً ، والله لا يؤاخذ الناس بنفس الظلم ، فإن الإنسان ظلوم جهول ،وإنما يؤاخذ بالإصرار على الظلم وحصول يأس الناس من إيمانهم .

القراءات :

اختلفوا في قراءة (ومكر السيء) فقرأ حمزة بإسكان الهمزة في الوصل لتوالي الحركات تخفيفاً كما أسكنها أبو عمرو في بارئكم لذلك ، وكان إسكانها في الطرف أحسن ، لأنه موضع التغيير ، وقرأ الباقون بكسرها (١) .

وإنما فعل حمزة ذلك تخفيفاً للحرف لاجتماع الكسرات وتواليها مع الهمزة ، فإن قيل فهلا فعل في الثاني (أي السيء في قوله : (ولا يحيق المكر السيء) كما فعل في الأول ، فقل : لم تتوال الكسرات في الثاني كما توالت في الأول ، لأنه لما انضمت الهمزة للرفع زال الاستثقال ،فأتي به على أصل ما أوجبه الإعراب له من الرفع ، فاعرف حجته في ذلك فقد نسب إلى الوهم (٢) .

الإعراب :

جهد : منصوب على النيابة عن المفعول المطلق المبين للنوع ، لأنه صفة لما كان حقه أن يكون مفعولاً مطلقاً ، وهو (أيمانهم) إذ هو جمع يمين ، وهو الحلف ، فهو مرادف لـ (أقسموا) ،فتقديره : وأقسموا بالله قسماً جهداً . وهو صفة بالمصدر أضيفت إلى موصوفها . وجملة (لئن جاءهم نذير) الخ بيان لجملة (أقسموا)(٣) .

استكباراً : نصبه يحتمل ثلاثة أوجه ،(أحدها) أن يكون حالاً ، أي : مستكبرين في الأرض . و (ثانيها) أن يكون مفعولاً له ، أي :

---

(١) ابن الجزري : النشر ج ٢ ص ٣٥٢ . (٢) ابن خالويه : الحجة ص ٢٧١ .
(٣) ابن عاشور : التحرير والتنوير ج ٢٢ ص ٣٣١-٣٣٢.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

للاستكبار . و (ثالثها) أن يكون بدلاً من النفور (ومكر السيء) : إضافة الجنس إلى نوعه (١) .

ويجوز أن يكون (ومكر السيء) معطوفاً على (نفوراً) (٢) .

سنة : مفعول (ينظرون) وهو على حذف مضاف تقديره : مثل أو قياس والفاء في قوله (فلن تجد) فصيحة ... و (لن) لتأكيد النفي (٣) .

(أولم يسيروا ..) : الجملة عطف على جملة (فهل ينظرون إلا سنة الأولين) (٤) .

(وكانوا أشد منهم قوة) : محل الجملة النصب على الحالية (٥) .

و (من) : لاستغراق الأشياء في قوله : (وما كان الله ليعجزه من شيء) (٦) .

وجملة (إنه كان عليماً قديراً) تعليل لانتفاء شيء يغلب مراد الله (٧) .

(في السموات ولا في الأرض): اعتراض مقرر لما يفهم مما قبله من استئصال الأمم السالفة (٨) .

البلاغة :

إسناد الزيادة في النفور إلى النذير مجاز ، لأنه هو السبب في أن زادوا أنفسهم نفوراً (٩) .

قال ابن عاشور : واعلم أن قوله تعالى (ولا يحيق المكر السيء إلا بأهله) قد جعل في علم المعاني مثالاً للكلام الجاري على أسلوب المساواة دون إيجاز ولا إطناب ، وأول من رأيته مثل بهذه الآية للمساواة هو الخطيب القزويني في الإيضاح ، وفي تلخيص المفتاح ، وهو ما زاده على ما في المفتاح ولم يمثل صاحب المفتاح للمساواة بشيء ، ولم أدر من أين أخذه القزويني ، فإن الشيخ عبدالقاهر لم يذكر الإيجاز والإطناب في كتابه . وإذ قد صرح صاحب المفتاح (أن المساواة هي

---

(١) الرازي : التفسير الكبير جـ ٢٦ ص ٣٤ . وانظر : أبو حيان : البحر المحيط جـ ٧ ص ٣١٩ .
(٢) الزمخشري : الكشاف جـ ٣ ص ٣١٢ . (٣) ابن عاشور: التحرير والتنوير جـ ٢٢ ص ٣٣٧ . (٤) المرجع نفسه : جـ ٢٢ ص ٣٣٨ .
(٥) ابو السعود : التفسير جـ ٧ ص ١٥٧ . (٦) أبو حيان : البحر المحيط جـ ٧ ص ٣٢٠ . (٧) ابن عاشور : المرجع نفسه جـ ٢٢ ص ٣٣٩ . (٨) ابو السعود : المرجع نفسه جـ ٧ ص ١٥٧ .
(٩) ابو حيان : البحر المحيط جـ ٧ ص ٣١٩ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

متعارف الأوساط ، وأنه لا يحمد في باب البلاغة ولا يذم (فقد وجب القطع بأن المساواة لا تقع في الكلام البليغ بَلْه المعجز ، ومن العجيب إقرار العلامة التفتازاني كلام صاحب تلخيص المفتاح ، وكيف يكون هذا من المساواة ، وفيه جملة ذات قصر ، والقصر من الإيجاز ، لأنه قائم مقام جملتين : جملة إثبات للمقصود ، وجملة نفيه عما سواه ، فالمساواة أن يقال : يحيق المكر السيء بالماكرين دون غيرهم ، فما عدل عن ذلك إلى صيغة القصر ، فقد سلك طريقة الإيجاز .

وفيه أيضاً حذف مضاف ، إذ التقدير : ولا يحيق ضر المكر السيء إلا بأهله) على أن في قوله (بأهله) إيجازاً ، لأنه عوض عن أن يقال بالذين تقلدوه .

والوجه : أن المساواة لم تقع في القرآن ، وإنما مواقعها في محادثات الناس التي لا يعبأ فيها بمراعاة آداب اللغة (١) .

(وكانوا أشد منهم قوة) جيء بالحال في هذه الآية لما يفيده الحال من استحضار صورة تلك القوة إيثاراً للإيجاز لاقتراب ختم السورة (٢) .

(وما كان الله ليعجزه) جيء بلام الجحود مع (كان) المنفية لإفادة تأكيد نفي كل شيء يحول دون قدرة الله وإرادته ، فهذه الجملة ، كالاحتراس (٣) .

---

(١) ابن عاشور : التحرير والتنوير ج ٢٢ ص ٣٣٦ .
(٢) المرجع نفسه ج ٢٢ ص ٣٣٨ .
(٣) المرجع نفسه ج ٢٢ ص ٣٣٩ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

(المبحث الأول)

توطئة

القرآن يخاطب العقل بالحجة البينة :

جاء القرآن الكريم فحرر العقل من أغلال الجاهلية وكهانتها وخرافتها ، وبين مكانة العقل في هداية الإنسان إلى ربه ، وفهمه للشريعة ، وأرشده إلى النظر في كل ما في هذا الكون من مخلوقات .

وقد نبه الله - تبارك وتعالى - عباده المكلفين على الاستدلال بمخلوقاته على ما هو عليه من صفات ذاته وأفعاله في غير ما آية من كتابه ، وضرب لهم في ذلك الأمثال ،وتلا عليهم فيه القصص والأخبار ليتدبروها ويهتدوا بها ، فقال : (أولم ينظروا في ملكوت السموات والأرض ، وما خلق الله من شيء وأن عسى أن يكون قد اقترب أجلهم ، فبأي حديث بعده يؤمنون) الأعراف : ١٨٥ (١) .

وقال ابن قيم الجوزية عند تعليقه على قوله تعالى : (هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شيء عليم) الحديد : ٣ .

قال : " فأرشدهم بهذه الآية إلى بطلان التسلسل الباطل ببديهة العقل ، وأن سلسلة المخلوقات في ابتدائها تنتهي إلى أول ليس قبله شيء كما تنتهي في آخرها إلى آخر ليس بعده شيء"(٢) .

ولا يطالب القرآن أحداً بالإيمان لمجرد سرد قصص عن المعجزات وخوارق العادات بل أمر بالتدبر والنظر فيه (أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها) محمد : ٢٤ . وخالف بذلك سائر الكتب الأخرى ، وفتح للعقل باباً واسعاً للبحث فيما أتى به حتى يجزم بأن صدوره من مثل محمد العربي الأمي - صلى الله عليه وسلم - ضرب من المحال (٣)

---

(١) ابو الوليد محمد بن احمد بن رشد (٥٢٠ هـ) : كتاب المقدمات الممهدات لبيان ما اقتضته رسوم المدونة من الاحكام الشرعيات ج١ص ٥ط١ دار السعادة بمصر . وسيشار الى هذا المصدر حين وروده فيما بعد هكذا : ابن رشد : المقدمات .

(٢)شمس الدين ابو عبد الله محمد بن ابو بكر الزرعي الدمشقي الشهير بابن قيم الجوزية : زاد المعاد في هدي خير العباد ج ٢ ص ٤٦١-٤٦٢ ط ١٢ر١٩٨٦. مؤسسة الرسالة . وسيشار الى هذا المصدر حين وروده فيما بعد هكذا : ابن القيم : زاد المعاد . . وانظر عبدالكريم الخطيب : الله ذاتا وموضوعا ص ٢٨٥ -٢٨٦ ط ٣ ١٩٧٥ دار المعرفة للطباعة والنشر . وسيشار الى هذا المرجع حين وروده فيما بعد هكذا : عبدالكريم الخطيب : الله ذاتا وموضوعا .

(٣)د . محمد توفيق صدقي : الدين في نظر العقل الصحيح ص ٦٦ - ٦٧ ط ٢ ١٣٤٦ هـ مطبعة المنار بمصر . وسيشار الى هذا المرجع حين وروده فيما بعد هكذا : محمد صدقي : الدين في نظر العقل .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

والقرآن إذ يؤكد على إطالة النظر في الآيات الكونية والتفكير في أطوار خلق الإنسان في هذه الحياة ، يعتد بالعقل كوسيلة فعالة للوصول إلى الغايات ، وسبب قوي في الحصول على سكون النفوس القلقة وطمأنينة الفؤاد المشتت .

فلا يأبه للرغبات والعواطف ما دام العقل لا يؤيدها ، والمنطق لا يؤازرها ، فهي رغم كونها غرائز نشأت مع الإنسان ، وثبت معه ، لم يعرها القرآن نظره ، بل أقام العقل عليها حارساً أميناً ، يخفف من شماسها ، ويكسر من حدتها ، ويكبح من جماحها ، لتكون أداة خير وصلاح (١) .

ولما كان موضوع السورة الرئيس (إثبات وحدانية الله تعالى) وكان التركيز في عرض الأدلة على إبراز الوحدانية من خلال مظاهر قدرته - سبحانه - في الكون والنفس ، أرى أنه من الضروري الوقوف على معنى كل من الوحدانية ، والقدرة .

أولاً : الوحدانية :

في اللغة : الواو والحاء والدال : أصل واحد ، يدل على الانفراد (٢) .
والأحد بمعنى الواحد ، وهو أول العدد (٣) .
والأحد : أي ،المعرف باللام ، الذي لم يقصد به العدد المركب ، كالأحد عشر ونحوه ؛ لا يوصف به إلا الله سبحانه وتعالى (٤) .
والأحد : هو الفرد الذي لم يزل وحده ، ولم يكن معه آخر ، وهو اسم بني لنفي ما يذكر معه من العدد (٥) .

في الاصطلاح : أن الله تبارك وتعالى إله واحد قديم بصفاته العلى وأسمائه الحسنى ، لا أول لوجوده ، وباق أبداً إلى غير غاية ولا انتهاء ، تعالى عن مشابهة المخلوقات وارتفع عن مماثلة المحدثات ، ليس كمثله شيء وهو السميع البصير (٦) .

---

(١) وانظر في هذا الموضوع آيضا : الشيخ عبدالرحيم العدوي : مجلة الأزهر المجلد (١٩) ص٣٢١ . وعبدالحميد السائح : عقيدة المسلم وما يتصل بها ص ٤٩ ط١ ١٩٧٨ - مطابع وزارة الأوقاف والشؤون والمقدسات الاسلامية - عمان .
وسيشار الى هذا المرجع حين وروده فيما بعد هكذا : عبدالحميد السائح : عقيدة المسلم .
(٢) ابو الحسين احمد بن فارس بن زكريا ٣٩٥هـ معجم مقاييس اللغة ج ٦ ص ٩٠ . تحقيق عبدالسلام هارون ط ٣ ١٩٨١ مكتبة الخانجي، بمصر ،وسيشار الى هذا المصدر حين وروده فيما بعد هكذا : ابن زكريا :مقاييس اللغة .
(٣) ابن دريد ابو بكر محمد بن الحسن الازدي البصري٣٢٠ هـ: جمهرة اللغة ج ٢ ص ١٢٧ ط ١ ١٣٤٥ هـ مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية بحيدر اباد - الدكن . وسيشار الى هذا المصدر حين وروده فيما بعدهكذا : ابن دريد : جمهرة اللغة .وانظر : اسماعيل بن حماد الجوهري: الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية ج ٢ ص ٤٤٠ ط٢ ١٩٧٩م دار العلم للملايين . بيروت . وسيشار الى هذا المصدر حين وروده فيما بعد هكذا . الجوهري :الصحاح. وانظر : السيد محمد مرتضى الحسيني الزبيدي: تاج العروس من جواهر القاموس ج ٧ ص ٣٧٦- تحقيق عبدالسلام هارون ط ١٩٧٠ مطبعة الحكومة بالكويت . وسيشار الى هذا المصدر حين وروده فيما بعد هكذا : الزبيدي : تاج العروس . (٤) الزبيدي:المرجع نفسه : ج ٧ ص ٣٧٦ . (٥) ابو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور الافريقي المصري : لسان العرب ج ٣ ص ٧٠ ط دار صادر - بيروت . وسيشار الى هذا المصدر حين وروده فيما بعد هكذا : ابن منظور :لسان العرب .
(٦) ابن رشد : المقدمات ج ١ ص ٨ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

والوحدانية صفة من الصفات السلبية ، والصفات السلبية ، هي : كل صفة مدلولها عدم أمر لا يليق بالله سبحانه [١] .

ودليل الوحدانية : أنهما لو كانا اثنين فأكثر لجاز أن يختلفا وإذا اختلفا لم يخل ذلك من ثلاثة أقسام ، لا رابع لها .

أحدها : أن يتم مرادهما جميعاً .

والثاني : أن لا يتم مرادهما جميعاً .

والثالث : أن يتم مراد أحدهما ولا يتم مراد الآخر .

فيستحيل منها وجهان ، وهو أن يتم مرادهما جميعاً ، وأن لا يتم مراد واحد منهما ، لأنه لو أراد أحدهما إحياء جسم وأراد الآخر إماتته فتمت إرادتهما جميعاً لكان الجسم حياً ميتاً في حال واحد ، ولو لم تتم إرادة واحد منهما لكان الجسم لا حياً ولا ميتاً في حال واحد وهذا من المستحيل في العقل ، فلم يبق إلا أن يتم مراد أحدهما ولا يتم مراد الآخر ، فالذي تتم إرادته هو الله القادر ، والذي لم تتم إرادته ليس بإله ، لأنه عاجز مغلوب ، وهذا الدليل يسمونه : دليل التمانع ، وقد نبه الله تعالى عليه في كتابه بقوله : (لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا) الأنبياء : ٢٢ . وبقوله : (ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله ، إذاً لذهب كل إله بما خلق ، ولعلا بعضهم على بعض سبحان الله عما يصفون) المؤمنون : ٩١ [٢] .

ثانياً : القدرة :

في اللغة : القاف والدال والراء : أصل واحد صحيح يدل على مبلغ الشيء وكنهه ونهايته [٣] .

ورجل ذو قدرة ومقدِرة ومقدَرة إذا كان ذا يسار [٤] .

---

(١) محمد سعيد رمضان البوطي : كبرى اليقينيات الكونية ص ١١١ ط ٨ ١٤٠٢هـ دار الفكر . وسيشار الى هذا المرجع حين وروده فيما بعد هكذا : البوطي: كبرى اليقينيات .

(٢) ابن رشد : المقدمات . ج ١ ص ٨ .

(٣) ابن زكريا : مقاييس اللغة ج ٥ ص ٦٢ .

(٤) ابن دريد : جمهرة اللغة ج ٢ ص ٢٥٣ والجوهري : الصحاح ج ٢ ص ٧٨٧ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

والقادر والقدير : من صفات الله عز وجل ، يكونان من القدرة ويكونان من التقدير(١) .

والقادر : اسم فاعل من قَدَر يقدِر ، والقدير : فعيل منه ، وهو للمبالغة ، والمقتدر : مفتعل من اقتدر ، وهو أبلغ ، والقدير : الفاعل لما يشاء على قدر ما تقتضي الحكمة ، لا زائداً عليه ولا ناقصاً عنه ، ولذلك لا يصح أن يوصف به إلا الله - تعالى - .

والمقتدر يقاربه ، إلا أنه قد يوصف به البشر ، ويكون معناه : المتكلف والمكتسب للقدرة ، ولا أحد يوصف بالقدرة من وجه إلا ويصح أن يوصف بالعجز من وجه ، غير الله تعالى ، فهو الذي ينتفي عنه العجز من كل وجه - تعالى شأنه - (٢) .

في الاصطلاح : القدرة صفة وجودية من شأنها أن يكون لها أثر كإيجاد الأشياء الممكنة أو إعدامها ، أو التصرف في الموجودات بجمعها أو تفريقها أو تحويلها أو نحو ذلك (٣) .

وهي صفة من صفات المعاني ، وهي كل صفة قائمة بذاته سبحانه وتعالى تستلزم حكماً معيناً له (٤) .

والدليل النقلي على القدرة قوله تعالى : (إن الله على كل شيء قدير) فاطر : ١ .

أما الدليل العقلي : كونه خالقاً لجميع المخلوقات ، مخرجاً لها من العدم إلى الوجود ، فلو لم يكن قادراً لما تأتى له الفعل ، لأن الفعل لا يتأتى إلا لقادر ، وقد نبه الله تعالى عليه بقوله : (أوليس الذي خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم ، بلى وهو الخلاق العليم)يس : ٨١ .

---

(١) ابن منظور : لسان العرب ج ٥ ص ٧٤ .
(٢) الزبيدي : تاج العروس ج ٣ ص ٣٧٩ - ٣٨٠ .
(٣) عبدالرحمن حسن حبنكة الميداني : العقيدة الاسلامية وأسسها ص ١٦٠ ط ٢ ١٩٧٩ دار القلم - دمشق . وسيشار الى هذا المرجع حين وروده فيما بعد هكذا : الميداني : العقيدة الاسلامية .
(٤) البوطي : كبرى اليقينيات ص ١١٩ .
(٥) ابن رشد : المقدمات ج ١ ص ٨ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أدلـــة الوحدانيـــة كمـا تعرضهـا سورة فـاطـــر :

عرضت سورة فاطر الأدلة على وحدانية الله - تعالى - من خـــلال مظاهر قدرته - سبحانه - في الكون والنفس ، وعندما استقرأت هـــذه الأدلة وجدت أنها منحصرة في جنسين ، وهما : دليل العنايـــة ، والثاني:دليل الخلق والاختـــراع .

وإذا استقرأنا أدلة القرآن كلها ، وجدنا أنها تنحصر في هـذين الجنسين ، كما قال ابن رشد - رحمه الله - : " الطريق التي نبه الكتاب العزيز عليها ، ودعا الكل من بابها ، إذا استقرىء الكتاب العزيـــز وجدت تنحصر في جنسيـــن :

أحدهما : طريق الوقوف على العناية بالإنسان وخلق جميع الموجـــودات من أجلها ، ولنسم هذه (دليل العناية) .

والطريقة الثانية : ما يظهر من اختراع جواهر الأشياء الموجـــودات مثل اختراع الحياة من الجماد ، والإدراكات الحسية والعقل ، ولنسم هذه (دليل الاختـــراع)"(١) .

وتبين لي من خلال الدراسة أن هذه الأدلة تنقسم إلى ثلاثة أنـــواع محصورة في الجنسيـــن السابقين ، وهي :

١- آيات تتضمن التنبيه على دلالة العناية .

٢- آيات تتضمن التنبيه على دلالة الاختراع .

٣- آيات تجمع الأمرين من الدلالة جميعاً (٢) .

وسأوضح هذه الأدلة بذكر الآيات التي وردت فيها وبيان وجه الدلالة فيها :

ولما كان الخلق والاختراع قبل العناية بالمخلوق ، فإن تقديم التوضيح لأدلة الخلق والاختراع أولى ، وإليك هي :

أولاً : الآيات التي تتضمن التنبيه على دلالة الخلق والاختراع :

١- ((الحمد لله فاطر السموات والأرض ، جاعل الملائكة رسلاً أولي أجنحة مثنى وثلاث ورباع ، يزيد في الخلق ما يشاء ، إن الله على كـــل شيء قديـــر)) فاطر : ١ .

---

(١) ابن رشد : مناهج الأدلة في عقائد الملة ص ١٥٠ ط ٢ ١٩٦٤ م تحقيق : د . محمود قاسم . مكتبة الانجلو المصرية . وسيشار الى هذا المرجع حين وروده فيما بعد هكذا : ابن رشد : مناهج الأدلة .

(٢) انظر : المرجع نفسه ص ١٥٢ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

٢- ((والله خلقكم من تراب ثم من نطفة ثم جعلكم أزواجاً ، وما تحمل من أنثى ولا تضع إلا بعلمه ، وما يُعمَّر من مُعمَّر ولا يُنْقَص من عُمُره إلا في كتاب ، إن ذلك على الله يسير)) فاطر : ١١ .

٣- ((قل أرأيتم شركاءكم الذين تدعون من دون الله ، أروني ماذا خلقوا من الأرض ، أم لهم شرك في السموات أم آتيناهم كتاباً فهم على بينت منه ، بل إن يعد الظالمون بعضهم بعضاً إلا غُروراً)) فاطر : ٤٠ .

ثانياً : الآيات التي تتضمن التنبيه على دلالة العناية :

١- ((ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها ، وما يمسك فلا مرسل له من بعده ، وهو العزيز الحكيم)) فاطر : ٢ .

٢- ((والله الذي أرسل الرياح فتثير سحاباً فسقناه إلى بلد ميت ، فأحيينا به الأرض بعد موتها ، كذلك النشور)) فاطر : ٩ .

٣- ((إن الله يمسك السموات والأرض أن تزولا ، ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده ، إنه كان حليماً غفوراً)) فاطر : ٤١ .

ثالثاً : الآيات التي تجمع الأمرين من الدلالة جميعاً :

١- ((يا أيها الناس اذكروا نعمت الله عليكم ، هل من خالق غير الله يرزقكم من السماء والأرض ، لا إله إلا هو فأنى تؤفكون)) فاطر : ٣ .

٢- ((وما يستوي البحران ، هذا عذب فرات سائغ شرابه ، وهذا ملح أجاج ، ومن كل تأكلون لحماً طرياً وتستخرجون حلية تلبسونها ، وترى الفلك فيه مواخر لتبتغوا من فضله ، ولعلكم تشكرون . يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل وسخر الشمس والقمر كل يجري لأجل مسمى ، ذلكم الله ربكم له الملك ، والذين تدعون من دونه ما يملكون من قطمير)) فاطر : ١٢ ، ١٣ .

٣- ((ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات مختلفاً ألوانها ومن الجبال جُدَد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود . ومن الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه كذلك ، إنما يخشى الله من عباده العلماء ، إن الله عزيز غفور)) فاطر : ٢٧ ، ٢٨ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

إن أعظم مقصد من مقاصد القرآن الكريم ، هو إثبات وحدانية الله - تعالى - لأن الكفار والمشركين لم يكونوا ينكرون وجوده - سبحانه - ولا ربوبيته ، ولكنهم كانوا ينكرون استحقاقه وحده للعبادة ، وكانوا ينكرون أنه وحده الذي يملك النفع والضر .

ولو تعمقنا في موقف الذين يصرّحون بإنكار الألوهية لله وحده - سبحانه - لوجدنا أنهم من الناحية العملية السلوكية يرفضون عبوديتهم لله - تعالى - ، لذلك نجد القرآن الكريم ينقض جوهر كفرهم بإثبات أنهم عبيد بمقتضى الخلقة .

فالعبودية لكل ما في العالم المحيط بالإنسان - المشاهد منه والغائب - أمر ثابت بمقتضى خضوع كل شيء لنظم صارمة ، لا يستطيع أي جرم سماوي أو أي حي في الأرض - نبات أو حيوان أو جماد صغر أو كبر - أن يخرج عن طبيعته أو يتخلص من ضرورتها (١) .

ولقد نبه القرآن الكريم على دلالة الخلق بالتعريف بملكوت الله - تبارك وتعالى - للاستدلال على وحدانيته - سبحانه - فالله الذي خلق السموات والأرض بالحق ، لا تجد في خلقه شيئاً عبثاً ، بل كل ما في السموات والأرض يحكي الحكمة التي سخره الله لأدائها ، من شمس وقمر وكواكب ، إلى جبال راسيات ، إلى ماء ونبات .

والله الذي أخضع السموات والأرض وما فيها لأمره وحكمته ، هو المعبود فيهما ، وهو الحاكم فيهما ، لا يخرج شيء عن ملكه وأمره والنظام الذي وضعه له (٢) .

والله - سبحانه وتعالى - لا يحتاج إلى شريك في خلقه وقدرته ، لأنه لو وجد له ند وشريك لأمكن الاستغناء عنه بشريكه ، فلم يعد وجوده لازماً وواجباً ، ولوجب أن يكون تشابه المثلين ناشئاً عن وجود آخر أوجد التماثل والتشابه فلا يكون أحد من المتشابهين إلهاً خالقاً .

---

(١) انظر : د . فاروق احمد دسوقي : محاضرات في العقيدة الاسلامية ص ٣٩ - ٤٠ ط دار الدعوة - الاسكندرية . وسيشار الى هذا المرجع حين وروده بيما بعد هكذا : فاروق دسوقي : محاضرات في العقيدة .

(٢) انظر : د . ابراهيم زيد الكيلاني : تصور الالوهية كما تعرضه سورة الانعام ص ٢٨ ط ١ ١٩٨١ مكتبة الاقصى . وسيشار الى هذا المرجع حين وروده فيما بعد هكذا : د . ابراهيم زيد الكيلاني : تصور الالوهية .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ولا شك أن النقطة البارزة الأولى التي ينطلق منها الفكر الإنساني هي احتياج الكون إلى موجد غير محتاج إلى موجد ، أي إن وجود الكون مفتقر غير مستقل ، فلابد أن يتصور العقل وجوداً قائماً بذاته غير مفتقر إلى سواه ، بل سواه مفتقر إلى وجوده ، وذلك هو وجود الله ، وهذه الصفة نفسها تقتضي الوحدانية ، لأن التعدد يجعل وجود كل واحد من المتعددين المتساويين في الصفات غير لازم ولا ضروري ، بحيث يمكن الاستغناء عنه بشريكه الآخر ، وهكذا يكون هذا الوجود الذي يمكن الاستغناء عن وجوده ناقصاً غير كامل ، فلا يكون صاحبه إلهاً خالقاً متصفاً بما اقتضاه العقل من صفات لوجوده .

والله في العقيدة الإسلامية بالنسبة إلى الكون خالق لأصل وجوده ومقدر لسننه ونظامه ، ولا تعارض بين وجود ارتباط سببي بين أجزاء الطبيعة وحوادثها ووجود الإله الخالق ، فالقرآن يشير إلى ارتباط حوادث الطبيعة بعضها ببعض ، كارتباط نمو النبات بنزول الماء ، وارتباط نزول المطر بتكاثف السحب وتراكمها .

فهذه السببية أو الارتباط بين الحوادث هو نفسه جزء من هذه الطبيعة يحتاج مثلها إلى قوة خالقة قدّرته على هذه الصورة .

وعلى هذا فالكون وما فيه من ضروب الارتباط بين ما يسمى بالأسباب ومسبباتها والعلل ومعلولاتها كلها مخلوقة ، وهي متعلقة بوجود أعلى وأسمى وأكمل من وجودها وهو وجود الله الخالق المبدع لها والمقدر لسننها وأسبابها ، ولذلك لا يطلق على الله الخالق في العقيدة الإسلامية لفظ سبب ولا علة ، لأنه خالق الأسباب والعلل ، ومقدر سننها وقوانينها (١) .

والكون منتظم لا فوضى ، ولكن انتظامه مرتبط بارادة الله وقدرته ، واستمرار هذا النظام منوط كذلك بمشيئة الله العليا .

---

(١) انظر : احمد حميد الدين الكرماني ٤١١ هـ : مجموعة رسائل الكرماني : ص ١٩٤ تحقيق د . مصطفى غالب ط ١ ١٩٨٣ م المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع بيروت . وسيشار الى هذا المصدر حين وروده فيما بعد هكذا : الكرماني : الرسائل .
وانظر : ابو حامد الغزالي : تهافت الفلاسفة ص ١١٠ ط المطبعة الكاثوليكية ١٩٦٢ م - بيروت . وسيشار الى هذا المصدر حين وروده فيما بعد هكذا : الغزالي : التهافت .
وانظر : محمد المبارك : نظام الاسلام (العقيدة والعبادة) ص ٤٨-٥١ ط٢ دار الفكر ١٩٨١ م . وسيشار الى هذا المرجع حين وروده فيما بعد هكذا : محمد المبارك : نظام الاسلام ،العقيدة .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

إن كل تعليل لحوادث الطبيعة بقانونها تعليل ناقص ، لأن القانون واقع يحتاج إلى تعليل ، وليس القانون موجداً للحادثة من العدم ، ولا يتصف بالوعي الهادف ، وكل افتراض لقوة كامنة أو خفية إن صح فهو ناقص يحتاج إلى تعليل هذه القوة الكامنة غير الواعية ولا العاقلة ، ولذلك كان الإيمان بالله الخالق متمماً ومكملاً لنظرتنا إلى الكون والطبيعة وما فيها من حركة وتطور ، ومن سنن وقوانين ، فهي محتاجة إلى وجوده ، مفتقرة إلى استمرار إمداده وعنايته ، مؤتمرة في مسيرها وكيانها بأمره (١).

ثم إن جميع الموجودات موافقة لوجود الإنسان ، وإن هذه الموافقة ضرورة من قبل فاعل قاصد لذلك مريد ، إذ ليس يمكن أن تكون هذه الموافقة بالاتفاق ، فأما كونها موافقة لوجود الإنسان فيحصل اليقين بذلك باعتبار موافقة الليل والنهار والشمس والقمر لوجود الإنسان ،والمكان الذي هو فيه أيضا ، وهو الأرض ، وكذلك تظهر أيضا موافقة كثير من الحيوان له والنبات والجماد وجزئيات كثيرة مثل الأمطار والأنهار والبحار، وبالجملة الأرض والماء والنار والهواء ، وكذلك أيضا تظهر العناية في أعضاء الإنسان وأعضاء الحيوان ، أي كونها موافقة لحياته ووجوده (٢) .

ثم خلق الإنسان على هذه الأرض بعد أن تهيأت له أسباب الحياة عليها ، ثم تميزه عن الجمادات وبقية الأحياء بهذه الحياة الكاملة التي أودع الله فيها من الخصائص وما وهبه من العقل والسمع والبصر ،ليكون سيد الكائنات على هذه الأرض ، يسخرها لمصالحه ومنافعه ، إن في هذا كله لدلائل واضحة على أن خالق هذا الإنسان هو خالق هذا الكون الذي سخره له ، وأنه وحده الذي يستحق أن يعبد ، لا هذه الأصنام التي لم تخلق شيئاً (٣) .

---

(١) انظر : محمد المبارك : نظام الاسلام (العقيدة) ص ٥٢ .

وانظر : د . صابر طعيمة : العقل والايمان في الاسلام ص ٥٥ ط ١ ١٩٧٩م دار الجيل – بيروت . وسيشار الى هذا المرجع حين وروده فيما بعد هكذا : صابر طعيمة : العقل والايمان .

(٢) انظر : ابن رشد : المناهج ص ١٥٠ .

(٣) انظر : د. ابراهيم زيد الكيلاني : تصور الالوهية ص ٤٠ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أولا :

واذا تأملنا الآيات التي تتضمن التنبيه على دلالة الخلق والاختراع، نجد أن الله - تعالى - أقام بها الحجة على توحيده ببيان الحقائق التالية :

١- أن الله وحده هو الذي يستحق الحمد والثناء على ما أبدع من الكائنات الدال إبداعها على تفرده - تعالى - بالإلهية ، لأنه وحده القادر على إبراز الخلق إلى الوجود ، وهو وحده القادر على الزيادة والنقصان في الخلق ، ولا أحد يستطيع شيئاً من ذلك .

٢- أن الله وحده القادر على خلق الإنسان وتكوينه وتحديد نوع النسل ، وكذلك الزيادة والنقصان في الآجال ، ولا أحد يستطيع شيئاً من ذلك .

٣- أن الله وحده القادر على كل خلق ،ولا أحد يستطيع شيئاً من ذلك .

وبعد هذا العرض الموجز ، لابد من الوقوف على كل آية بشيء من الشرح والتفصيل :

١) ((الحمد لله فاطر السموات والأرض جاعل الملائكة رسلاً أولي أجنحة مثنى وثلاث ورباع ، يزيد في الخلق ما يشاء ، إن الله على كل شيء قدير)) فاطر : ١ .

أخبر الله - سبحانه وتعالى - بهذه الآية أنه وحده الذي يستحق الحمد والثناء والعبادة لأنه خالق السموات والأرض بما فيهن وحده ، وكل ما يعبدونه من دون الله فهو مخلوق وبذلك نفى الشركاء عنه سبحانه .

ثم إنه - تعالى - نفى البنوة عنه في هذه الآية ، وذلك بإبداع السموات والأرض وإن الملائكة التي يزعم المشركون أنها بنات الله حالة في السماء المخلوقة ، وإن خلق المحل يقتضي خلق الحال فيه ، وإلا لوجد الحال قبل وجود المحل .

وافتتاح هذه السورة بـ (الحمد لله) مؤذن بأن صفات من عظمة الله ستذكر فيها وإجراء صفات الأفعال على اسم الجلال من خلقه السموات والأرض ، وأفضل ما فيها من الملائكة والمرسلين مؤذن بأن السورة جاءت لإثبات التوحيد (١) .

---

(١) ابن عاشور : التحرير والتنوير ج ٢٢ ص ٢٤٨ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

والفاطر : فاعل الفَطْر ، وهو الخلق ، وفيه معنى التكون سريعاً ، لأنه مشتق من الفَطْر وهو : الشق ... وأما جاعل : فيطلق بمعنى مكوّن وبمعنى مصيّر (١) .

إن الله على كل شيء قدير : تعليل بطريق التحقيق للحكم المذكور فإن شمول قدرته تعالى لجميع الأشياء مما يوجب قدرته - سبحانه - على أن يزيد في كل خلق كل ما يشاؤه - تعلى - إيجاباً بيناً (٢) .

فلما ذكر - سبحانه - أنه خلق السموات والأرض والملائكة ، وأنه - سبحانه - يزيد في كل خلق كل ما يشاؤه ، وعقب بقوله (إن الله على كل شيء قدير) إنما عرض بذلك بإبطال عقائد الكفار من مشركين وصابئة ونصارى ممن ادعوا آلهة غير الله ، وكل ما سوى الله مخلوق ، فالله إذ يخبرهم أنه خلق السموات والأرض بما فيهن، يبرهن على ضلال من عبد هذه المخلوقات ، لذلك انتهت الآية الثالثة من السورة بقوله (لا إله إلا هو فأنى تؤفكون).

وقال ابن عاشور في ذلك : هذا نتيجة عقب ذكر الدليل ، إذ رتب على انفراده بالخالقية والرازقية انفراده بالإلهية ، لأن هذين الوصفين هما أظهر دلائل الإلهية عند الناس (٣) .

ثم استدل القرآن بخلق السموات والأرض الذي يقتضي خلق ما فيها على نفي الشركاء عن الله تعالى ، لأن هذه المعبودات التي يشركونها مع الله ما هي إلا مخلوقات حادثة ، لا تستحق العبادة ، فكيف يسوى المخلوق بالخالق ؟

واستدل بخلق السموات والأرض على انتفاء البنوة عن الله - تعالى - لأن خلق المحل يقتضي خلق الحال فيه ، والملائكة التي يزعم المشركون أنها بنات الله حالة في السماء المخلوقة بما فيها لله ، لأن خلق محلها يقتضي خلقها ، وإلا لوجد الحال قبل وجود المحل .

وإذا ثبت أن هذه الملائكة مخلوقة وحادثة ، ثبت انتفاء البنوة ، لأن ابن الإله لا يكون إلا إلهاً ، فيلزم قدمه ، وهذا قد ثبت حدوثه (٤)

---

(١) ابن عاشور : التحرير والتنوير ج ٢٢ ص ٢٤٩ .
(٢) ابو الفضل شهاب الدين السيد محمود الالوسي : روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني ج ٢٢ ص ١٦٤ ط دار احياء التراث العربي - بيروت .
(٣) ابن عاشور : المرجع السابق ج ٢٢ ص ٢٥٥ .
(٤) انظر : د . ابراهيم زيد الكيلاني : تصور الالوهية ص ٣١ - ٣٢ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

٢) ((والله خلقكم من تراب ثم من نطفة ثم جعلكم أزواجاً ، وما تحمل من أنثى ولا تضع إلا بعلمه ، وما يُعمَّر من مُعمَّر و لا يُنقص من عُمُره إلا في كتاب ، إن ذلك على الله يسير)) فاطر : ١١ .

بعد الاستدلال بدلالة الكون في الآية السابقة على الوحدانية ، استدل في هذه الآية بدلالة الأنفس عليها ، فبين - سبحانه - أنه خلق الإنسان من تراب الأرض التي خلقها سابقاً فهو مخلوق لله - سبحانه - لا لغيره ، ثم بين بعد ذلك أنه جعل استمرار حياته وتناسله من النطفة التي فيها سر الحياة .

والإشارة إلى النشأة الأولى من التراب تتردد كثيراً في القرآن، وكذلك الإشارة إلى أول مراحل الحمل : النطفة .. والتراب عنصر لا حياة فيه ، والنطفة عنصر فيه الحياة ، والمعجزة الأولى هي معجزة هذه الحياة التي لا يعلم أحد كيف جاءت ، وهو حقيقة قائمة مشهودة ، لا مفر من مواجهتها والاعتراف بها ، ودلالتها على الخالق المحيي القدير دلالة لا يمكن دفعها ولا المماحكة فيها (١) .

ولقد أثبت العلم أن جسم الإنسان يتكون من عناصر التراب ، وبالتحليل وجد أنه يتكون من ١٦ عنصراً ، وهي عناصر التراب ، أو القشرة الأرضية الخصبة ، وقال الدكتور الكسيس كاريل : إن الإنسان مخلوق حقيقة ، وبالمعنى الحرفي من تراب (٢) .

ثم استدرجهم إلى التكوين الثاني بدلالة خلق النسل من نطفة ، وذلك علم مستقر في النفوس بمشاهدة الحاضر وقياس الغائب على المشاهد ، فكما يجزم المرء بأن نسله خلق من نطفته ، يجزم بأنه خلق من نطفة آبويه (٣) .

إن تتبع هذه الخلية الساذجة ، وهي تنقسم وتتوالد وتتركب كل مجموعة خاصة من الخلايا المتوالدة منها لتكوين عضو خاص له وظيفة معينة ،

---

(١) سيد قطب : في ظلال القرآن جـ ٥ ص ٢٩٢٩ ط ١٠ ١٩٨١ م دار الشروق . وسيشار الى هذا المصدر حين وروده فيما بعد هكذا : سيد قطب : الظلال .
(٢) د . الكسيس كاريل : الانسان ذلك المجهول . انظر : محمد المبارك : نظام الاسلام (عقيدة) ص ٥٣ . وانظر : محمد متولي شعراوي : معجزة القرآن ص ٣٢ . وانظر : د . احمد شوقي الفنجري : جسم الانسان والاعجاز القرآني . مقال في مجلة الوعي الاسلامي سنة (١٨) عدد (٢٠٦) ص ٥٦ .
(٣) ابن عاشور : التحرير والتنوير جـ ٢٢ ص ٢٧٦ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وطبيعة معينة ، ثم تعاون هذه الأعضاء وتناسقها وتجمعها لتكون مخلوقاً واحداً على هذا النحو العجيب ومخلوقاً متميزاً عن سائر المخلوقات الأخرى من جنسه ، بل من أقرب الناس إليه ، بحيث لا يتماثل أبداً مخلوقان اثنان ... وكلهم من نطفة لا تميز فيها يمكن إدراكه ، ثم تتبع هذه الخلايا حتى تصير أزواجاً قادرة على إعادة النشأة بنطف جديدة ، تسير في ذات المراحل دون انحراف ، إن في هذا كله لدلائل واضحة على وحدانية الله وقدرته وحكمته (١) .

ويقول الكاتب الفرنسي (موريس بوكاي) : إن وصف مراحل تطور الجنين كما هو في القرآن ، يتجاوب مع كل ما نعرفه اليوم عن ذلك ، وهو لا يحتوي أية عبارة ينقدها العلم الحديث (٢) .

(ثم جعلكم أزواجاً) إن النطفة الذكرية (الحيوان المنوي) هي التي تحدد الجنس (الذكر والأنثى) وإنه من المني وليس من العلقة جعل الله الزوجين (٣) .

قال ابن عاشور : المعنى : ثم من نطفة وقد جعلكم أزواجا لتركيب تلك النطفة فالاستدلال بدقة صنع النوع الإنساني من أعظم الدلائل على وحدانية الصانع ...

وبعد الاستدلال بما في بدء التكوين الثاني من التلاقح بين النطفتين، استدل بما ينشأ عن ذلك من الأطوار العارضة للنطفة في الرحم ، وهو أطوار الحمل من أوله إلى الوضع (٤) .

فقال تعالى : (وما تحمل من أنثى ولا تضع إلا بعلمه) فلما ذكر بقوله (خلقكم من تراب) كمال قدرته بين بقوله (وما تحمل من أنثى ولا تضع إلا بعلمه) كمال علمه ، ثم بين نفوذ إرادته بقوله (وما يعمر من معمر ولا ينقص من عمره إلا في كتاب) فبين أنه هو القادر العالم المريد ، والأصنام لا قدرة لها ولا علم ولا إرادة ، فكيف يستحق

---

(١) انظر : سيد قطب : الظلال ج ٥ ص ٢٩٣٢ .
(٢) موريس بوكاي : التوراة والانجيل والقرآن والعلم ص ١٧٧ .
(٣) انظر : د . احمد حسنين الفضل : مجلة الوعي الاسلامي السنة (١٨) عدد ٢٠٦ موضوع : العلم في القرآن الكريم ص ٧١ - ٨٧ .
(٤) ابن عاشور : التحرير والتنوير ج ٢٢ ص ٢٧٦ . (ثم) عاطفة الجملة فهي دالة على الترتيب الرتبي الذي هو أهم في دلالة الغرض - أي دلالة التكوين - على بديع صنع الخالق - سبحانه - . نفس المرجع والصفحة .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

شيء منها العبادة (١) .

وإن مقام الوحدانية لا يصح إلا بتمام العلم وكمال القدرة والإرادة .

كل هذه الحقائق العلمية لم تعرفها البشرية إلا بعد نزول القرآن الكريم بثلاثة عشر قرناً ، فكيف عرف الرسول - صلى الله عليه وسلم - هذه التفاصيل المحكمة ، هل كان يشرح بطون الحوامل ؟ وهل كان يفحص هذه التطورات التي لا ترى إلا بالمجهر ؟ وكيف يرى كل هذه الأسرار التي تتم في الظلام بلا مجهر ولا تشريح ؟ إنه - سبحانه - الذي أوحى إليه بهذه الحقائق الغامضة (٢) .

فهو وحده الخالق والعالم بما خلق والقادر على خلقه لا إله إلا هو .

---

(١) الفخر الرازي : التفسير الكبير ج ٢٦ ص ١٠ .

(٢) نعمت صدقي : معجزة القرآن ص ١٤٤-١٤٥ ط ٢ دار الاعتصام ١٩٧٨ م ، وسيشار الى هذا المرجع حين وروده فيما بعد هكذا : نعمت صدقي : معجزة القرآن .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

٣) ((قل أرأيتم شركاءكم الذين تدعون من دون الله ، أروني ماذا خلقوا من الأرض ، أم لهم شرك في السموات ، أم آتيناهم كتاباً فهم على بينت منه ، بل إن يعد الظالمون بعضهم بعضاً إلا غروراً)) فاطر : ٤٠ .

بعد أن بين الله - سبحانه - أدلة وحدانيته في الكون والنفس ، وبين أنه وحده الخالق ولا خالق سواه ، سيقت هذه الآية تقريراً لما قدم من توحيده - سبحانه - وإبطالاً لألوهية كل ما سواه .

فهذه الآية دليل آخر على وحدانية الله - تعالى - بتفرده - سبحانه - بالخلق والاختراع لكل ما في السموات والأرض ، وبطلان إلهية كل ما يدعون من دون الله .

قال ابن عاشور : ولما جرى ذكر المشركين وتعنتهم وحسبان أنهم مفتوا المسلمين ، عاد إلى الاحتجاج عليهم في بطلان إلهية آلهتهم بحجة أنها لا يوجد في الأرض شيء يدعى أنها خلقته ، ولا في السموات شيء لها فيه شرك مع الله ، فأمر الله رسوله - صلى الله عليه وسلم - أن يحاجهم ويوجه الخطاب إليهم بانتفاء صفة الإلهية عن أصنامهم ، وذلك بعد أن نفى استحقاقها لعبادتهم بأنها لا ترزقهم كما في أول السورة ، وبعد أن أثبت الله التصرف في مظاهر الأحداث الجوية والأرضية واختلاف أحوالها من قوله (والله الذي أرسل الرياح) وذكرهم بخلقهم وخلق أصلهم ، وقال عقب ذلك : (ذلكم الله ربكم له الملك) الآية عاد إلى بطلان إلهية الأصنام .

وبنيت الحجة على مقدمة مشاهدة انتفاء خصائص الإلهية عن الأصنام ، وهي خصوصية خلق الموجودات ، وانتفاء الحجة النقلية بطريقة الاستفهام التقريري في قوله (أرأيتم شركاءكم) يعني إن كنتم رأيتموهم فلا سبيل لكم إلا الإقرار بأنهم لم يخلقوا شيئاً (١) .

وإنما أضاف الشركاء إليهم من حيث إن الأصنام في الحقيقة لم تكن شركاء لله ، وإنما هم جعلوها شركاء ، فقال : شركاءكم أي : الشركاء بجعلكم (٢) .

وما كان العرب المشركون يزعمون أن أولئك الشركاء قد خلقوا مع

---

(١) ابن عاشور : التحرير والتنوير ج ٢٢ ص ٣٢٣ - ٣٢٤ .

(٢) الفخر الرازي : التفسير الكبير ج ٢٦ ص ٣٢ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الله شيئاً في السموات ولا في الأرض ، فالسؤال ليس مقصوداً بمعناه ... وإنما هو سؤال للسخرية بأفهامهم ، ولإيقاظهم للحقيقة التي يغفل عنها حسهم فما داموا يعرفون أن الشركاء لم يخلقوا مع الله شيئاً ، أفلا يدعوهم ذلك إلى نبذ هذا الشرك المضحك ، وإفراد الله بالألوهية (١) .

والحجة واضحة والدليل بين ، فهذه الأرض بكل ما فيها ومن فيها ، هذه هي مشهودة منظورة ، أي جزء فيها أو أي شيء يمكن أن يدعي مدع أن أحداً - غير الله - خلقه و أنشأه : إن كل شيء يصرخ في وجه هذه الدعوى لو جرؤ عليها مدع ، وكل شيء يهتف بأن الذي أبدعه هو الله (٢) .

ولما كان مقر الأصنام في الأرض كان من الراجح أن تتخيل لهم الأوهام تصرفاً كاملاً في الأرض ، فكأنهم آلهة أرضية ، وقد كانت مزاعم العرب واعتقاداتهم أفانين شتى مختلطة من اعتقاد الصابئة ومن اعتقاد الفرس واعتقاد الروم ، فكانوا أشباهاً لهم ، لذلك قيل لأشباههم في الإشراك ، أروني ماذا خلقوا من الأرض ، أي فكان تصرفهم في ذلك تصرف الخالقية (٣) .

(أم لهم شرك في السموات)

أما السموات فقلما يخطر ببال المشركين أن للأصنام تصرفاً في شئونها ، ولعلهم لم يدعوا ذلك ولكن جاء قوله (أم لهم شرك في السموات) مجيء تكملة الدليل على الفرض والاحتمال ، كما يقال في آداب البحث (فإن قلت) وقد كانوا ينسبون للأصنام بنوة لله - تعالى - قال تعالى : (أفرأيتم اللات والعزى ، ومناة الثالثة الأخرى ، ألكم الذكر وله الأنثى . تلك إذن قسمة ضيزى ، إن هي إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان)النجم : ١٩-٢٣ ، فمن أجل ذلك جيء في جانب الاستدلال على انتفاء تأثير الأصنام في العوالم السماوية بإبطال أن يكون لها شرك في السموات لأنهم لا يدعون لها في مزاعمهم أكثر من ذلك (٤) .

---

(١) محمد قطب : دراسات قرآنية ص ٢٤١ .
(٢) سيد قطب : الظلال ج ٥ ص ٢٩٤٧ - ٢٩٤٨ .
(٣) ابن عاشور : التحرير والتنوير ج ٢٢ ص ٣٢٥ .
(٤) المرجع نفسه ج ٢٢ ص ٣٢٥-٣٢٦ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

(أم آتيناهم كتاباً فهم على بينت منه)

ولما قضى حق البرهان العقلي على انتفاء إلهية الذين يدعون من دون الله ، انتقل إلى انتفاء الحجة السمعية من الله - تعالى - المثبتة آلهة دونه ، لأن الله أعلم بشركائه وأنداده لو كانوا . فقال تعالى : (أم آتيناهم كتاباً فهم على بينت منه) . المعنى بل آتيناهم كتاباً فهم يتمكنون من حجة فيه تصرح بإلهية هذه الآلهة المزعومة (١) .

ووصف البينات أو البينة بـ (منه) للدلالة على أن المراد كون الكتاب المفروض إيتاؤه إياهم مشتملاً على حجة لهم تثبت إلهية الأصنام، وليس مطلق كتاب يؤتونه أمارة من الله على أنه راض منهم بما هم عليه كدلالة المعجزات على صدق الرسول وليست الخوارق ناطقة بأنه صادق ، فأريد: أآتيناهم كتاباً ناطقاً مثل ما آتينا المسلمين القرآن .

ثم كر على ذلك كله الإبطال بواسطة (بل) بأن ذلك كله منتف وأنهم لا باعث لهم على مزاعمهم الباطلة إلا وعد بعضهم بعضاً مواعيد كاذبة يغر بعضهم بها بعضاً (٢) .

---

(١) المرجع السابق جـ ٢٢ ص ٣٢٦ .

(٢) المرجع نفسه جـ ٢٢ ص ٣٢٦ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ثانيـــــاً :

وإذا تأملنا الآيات التي تتضمن التنبيه على دلالة العنايـــــة ، نجد أن الله - تعالى - أقام بها الحجة على توحيده ببيان الحقائـــق التاليـــة :

١- أن الله الذي خلق هذا الإنسان ، خلق له المطر والرزق والنعمـــة والصحة وسخر له هذه الأمور جميعاً مما يدل على أن خالق هـــذا الكون وحده هو خالق الناس ، لا إلـه إلا هـــو .

٢- أن الله - تعالى - أرسل الرياح وسخرها لإثارة السحاب وحملـــه من مكـــان إلـى آخر حسبما تقتضيه حاجة الناس في علـــم اللـــه وحكمتـــه .

٣- أن الله - تعالى - الذي خلق هذا الكون وسخره لمصالح النـــاس، حفظه من الزوال ، ولا أحد يستطيع ذلك إلا هو - سبحانه - ،كمـــا أنـه لا يؤثـر فيه أحـد سـواه .

وبعد هذا العرض الموجز لحجج الآيات التي تتضمن التنبيه على دلالـة العنـاية ، لابد من الوقوف على كل آية بشيء من الشرح والتفصيل ،إن شـــاء اللـه تعالى :

١) ((ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها ، وما يمسك فلا مرسل له من بعده ، وهو العزيز الحكيم)) فاطر : ١ .

استدل القرآن الكريم على وحدانية الله - تعالى - بهـــذه الآيـة عن طريـق إثبـات الرعاية والعنـاية من خالـق الكون بالنـــاس الذين خلقهم فيه .

فجاء الاستدلال بها على أن خالق هذا الكون هو وحده خالـق النـــاس أيضا بدليل عنايته بهم ورعايته لهم وتسخير كل ما في الكون لمصالحهم، وهو وحده القادر على العنـاية والتسخير ، لا يشاركه في ذلك أحد ،ولا يقدر أحد على منع أو تعطيل شيء أراده الله - سبحانه - .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وقال ابن عاشور : هذا من بقية تصدير السورة بـ (الحمد لله فاطر السموات والأرض) وهو عطف على (فاطر السموات والأرض) الخ ، والتقدير وفاتح الرحمة للناس ، وممسكها عنهم فلا يقدر أحد على إمساك ما فتحه ولا على فتح ما أمسكه (١) .

واستعير الفتح للإطلاق والإرسال ، ألا ترى إلى قوله (فلا مرسل له من بعده) مكان لا فاتح له ، يعني أي شيء يطلق الله من رحمة : أي من نعمة رزق أو مطر أو صحة أو أمن أو غير ذلك من صنوف نعمائه التي لا يحاط بعددها وتنكيره الرحمة للإشاعة والإبهام ، كأنه قال : من أية رحمة كانت سماوية أو أرضية ، فلا أحد يقدر على إمساكها وحبسها (٢) .

(من بعده) بمعنى : من دونه ، كقوله تعالى : (فمن يهديه من بعد الله) ، (فبأي حديث بعد الله) أي فلا مرسل له من دون الله ، أي لا يقدر أحد على إبطال ما أراد الله من إعطاء أو منع ، والله يحكم لا معقب لحكمه (٣) .

ولما كان هذا ظاهراً في أمر الناس ، والحكمة في تدبيرهم عمم فقال : (وهو) أي هو فاعل ذلك والحال أنه وحده (العزيز) أي القادر على الإمساك والإرسال ، الغالب لكل شيء ، ولا غالب له (الحكيم) الذي يفعل في كل من الإمساك والإرسال وغيرهما ما يقتضيه علمه به ، ويتقن ما أراد على قوانين الحكمة ، فلا يستطاع نقض شيء منه (٤) .

وعطف (وهو العزيز الحكيم) تذييل رجح فيه جانب الإخبار ، فعطف وكان مقتضى الظاهر أن يكون مفصولاً ، لإفادة أنه يفتح ويمسك لحكمة يعلمها ، وأنه لا يستطيع أحد نقض ما أبرمه في فتح الرحمة وغيره من تصرفاته ، لأن الله عزيز لا يمكن لغيره أن يغلبه ، فإن نقض ما أبرم ضرب من الهوان والمذلة (٥) .

٢- ((والله الذي أرسل الرياح فتثير سحاباً فسقناه إلى بلد ميت ، فأحيينا به الأرض بعد موتها ، كذلك النشور)) فاطر: ٩ .

استدل القرآن الكريم على وحدانية الله - تعالى - بهذه الآية

---

(١) ابن عاشور : التحرير والتنوير ج ٢٢ ص ٢٥٢ .
(٢) ابو القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشري الخوارزمي : الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الاقاويل في وجوه التأويل ج ٣ ص ٢٩٨ .
(٣) ابن عاشور : المرجع السابق ج ٢٢ ص ٢٥٣ .
(٤) البقاعي : نظم الدرر ج ١٦ ص ٧-٨ .
(٥) ابن عاشور : المرجع السابق ج ٢٢ ص ٢٥٣ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

عن طريق إثبات عنايته - سبحانه - بالناس ، فأرسل لهم الرياح التي تثير السحاب وتحمله من مكان لآخر حسبما تقتضيه حاجاتهم ومصالحهم في علمه سبحانه وحكمته .

ولما قدم في أول السورة الاستدلال بأن الله فطر السموات والأرض وما في السموات من أهلها ، وذلك أعظم دليل على تفرده بالإلهية ، ثنى هنا بالاستدلال بتصريف الأحوال بين السماء والأرض ، وذلك بإرسال الرياح وتكوين السحاب وإنزال المطر ، فهذا عطف على قوله (فاطر السموات والأرض) (١) .

وهذه الآية مثل من الأمثال القرآنية ضرب الله - عز وجل - بها لمنكري البعث الواقعين أسرى مدركات حواسهم الظاهرة مثلاً إقناعياً لتقريب فكرة الحياة بعد الموت من أجل الحساب والجزاء ، وإقامة مقتضيات حكمته وعدله في عباده ،وهذا المثل هو دورة الحياة النباتية التي تنتهي بالحصاد فتعود به الأرض ميتة لا حياة فيها ولا خضرة ولا نضرة ، ثم تبدأ الدورة من جديد ، فيسوق الله السحاب المثقلة بالماء فتنزل الأمطار على الأرض الميتة ، فتتحرك بقضاء الله وقدره عوامل الحياة الكامنة في البذور المتناثرة المدفونة في الأرض ، فتمتص البذور ماءها وغذاءها من الطين ثم تنبت من جديد ، فتتشقق الأرض ، وتخرج الزروع المختلفة ، وتنبت الجنات على أمثال أسلافها مما تركت من بذورها ، هذه الدورة الحياتية التي تتكرر باستمرار في النبات ، تكفي مثلاً مقنعاً يقرب لأذهان الذين يتعجبون مما لا يشاهدون له نظائر في الواقع ، . فكرة إمكان عودة الحياة للذين يموتون من الأحياء ، وتفنى أجسادهم ، وتبلى عظامهم ، إن الأمر لا يحتاج أكثر من توجه إرادة الخالق وقدرته .

فإذا كانت البذور المتناثرة ، ونوياتها الصغرى جداً ، مستعدة بقضاء الله وقدره لأن تنبت منها شجرة عظيمة جديدة ، تماثل الشجرة التي كانت أنتجتها من قبل ، ثم يبست وماتت ، فما المانع من أن تكون نويات صغرى لا تدركها الأبصار في أجسام الناس مستعدة بقضاء الله وقدره لأن تنشأ منها حياة جديدة متى جاءت دورة هذه الحياة الجديدة ، وبعث الله الأسباب الكفيلة بقضائه وقدره لإعادة النشأة من جديد ، ولرجعة الأرواح التي فارقت من قبل أجسادها ، إلى أجساد هي نظير أجسادها الأولى

---

(١) ابن عاشور : التحرير والتنوير ج ٢٤ ص ٢٦٧ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ناشئة عن نوياتها الصغرى المنبثة في الأرض (١) .

وهذا المشهد يتردد في معرض دلائل الإيمان الكونية في القرآن مشهد الرياح تثير السحب ، تثيرها من البحار ، فالرياح الساخنة هي المثيرة للبخار ، والرياح الباردة هي المكثفة له حتى يصير سحاباً ، ثم يسوق الله هذا السحاب بالتيارات الهوائية في طبقات الجو المختلفة ، فتذهب يميناً وشمالاً إلى حيث يريد الله. لها أن تذهب ، وإلى حيث يسخرها ويسخر مثيراتها من الرياح والتيارات ، حتى تصل إلى حيث يريد لها أن تصل إلى بلد ميت مقدر في علم الله أن تدب فيه الحياة بهذا السحاب .

والماء حياة كل شيء في هذه الأرض (فأحيينا به الأرض بعد موتها) وتتم الخارقة التي تحدث في كل لحظة ، والناس في غفلة عن العجب العاجب فيها . وهم مع وقوع هذه الخارقة في كل لحظة يستبعدون النشور في الآخرة ، وهو يقع بين أيديهم في الدنيا (٢) .

وقال الشيخ محمد نووي الجاوي : " (فأحيينا به الأرض بعد موتها ، كذلك النشور) أي إحياء الأموات في سهولة الحصول ، فإن الأرض الميتة لما قبلت الحياة اللائقة بها ، كذلك الأعضاء الميتة تقبل الحياة ، وكما أنا نجمع القطع السحابية بالريح ، كذلك نجمع أجزاء الأعضاء المتفرقة بالروح (٣) .

ولما كان سوق السحاب إلى بلد دون آخر وسقيه لمكان دون مكان من العظمة بمكان ، التفت عن الغيبة وجعله في مظهر العظمة فقال : (فسقناه) أي السحاب معبراً بالماضي تنبيهاً على أن كل سوق كان بعد إثارتها في الماضي والمستقبل منه وحده (٤) .

---

(١) عبدالرحمن حسن حبنكة الميداني : الأمثال القرآنية / دراسة وتحليل وتصنيف ورسم لأصولها وقواعدها ومناهجها (تأملات) ص ١٣٠ - ١٣١ ط ١ ١٩٨٠ دار القلم - دمشق . وسيشار الى هذا المرجع حين وروده فيمابعد هكذا : الميداني : الأمثال .

(٢) سيد قطب : الظلال ج ٥ ص ٢٩٢٩ .

(٣) الشيخ محمد نووي الجاوي : التفسير المنير لمعالم التنزيل المسمى : مراح لبيد لكشف معنى قرآن مجيد ج ٢ ص ٢٠١ ط ٣ ١٩٥٥ م شركة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر ، وسيشار الى هذا المرجع حين وروده فيما بعد هكذا : محمد نووي الجاوي : التفسير المنير .

(٤) البقاعي : نظم الدرر ج ١٦ ص ١٧ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وإن علم الطبيعة الجوية يؤكد على أن الهواء يحمل مقاديـــــــر وفيـرة من الماء على هيئـة بخار ، وإن هذا البخار هو الذي يكـــــون السحب ويعطي المطر عندما تندفع تيارات الهواء إلى أعلى ، وتبـــــــرد تحت تأثير الانتشار بتقليل الضغط الواقع عليها بالارتفاع ، وباستمرار التبريد يحدث التشبع ويتم التكاثف وتتشكل نقط الماء ، ويتم ذلك عـــادة على جسيمـات خاصة يحملها الهواء تسمى علمياً باسم (نوى التكاثـف) وأغلبها مساحيق دقيقة تذوب في الماء أو تمتص كملح الطعام وكلـــورو الكالسيوم وثاني أكسيد الكبريت ، فتتجمع جزيئـات بخار الماء علـــى هـذه النوى مكونـة نقطاً دقيقة لا تلبث أن تنمو بالتصادم والالتصـاق ، إذن فالهواء يحمل كذلك نوى التكاثف اللازمة لتكوين السحب ، وبالحقيقـة فإن الهواء المشبع بالنسبة لنقط الماء السائل يكون فى حالة التشبـــع بالنسبة لبلورات الثلج التي هي في درجة الحرارة نفسها ، وبذلك تنشـــط عمليات التكاثف إذا تواجد ثلج جنباً إلى جنب مع نقط المـــــــاء البـــارد (١) .

ونلاحـظ في هذه الآية الاقتـران والارتبـاط السببي ، فالريـــاح سبب لإثارة السحاب وتكونه ، والسحاب سبب لنزول الماء من السمـــــاء ، ونزول الماء سبب لإحياء الأرض وإخراج النبت والثمرات ، وكل ذلك إنمـــا هو بتقدير من الخالق ، فهو الذي جعلها هكذا وقدرها على ما هي عليـــه ، فالتلازم إذن بين الحوادث ، أي بين ما يسمى عادة سبباً ومسبباً هـــو من خلق الله ـ تعالى ـ (٢) .

---

(١) مصطفى الدباغ : وجوه من الاعجاز القرآني ، ص ٩٧ ـ ٩٨ ط ١ ١٩٨٢ م ، مكتبة المنار ـ الزرقاء ـ الاردن ـ وسيشار الى هذا المرجع حيـن وروده فيما بعد هكذا : مصطفى الدباغ : وجوه من الاعجاز .

(٢) انظر : محمد المبارك : الاسلام والفكر العلمي ص٣٤ ط ١ ١٩٧٨ م ، دار الفكر ـ بيروت ، وسيشار الى هذا المرجع حين وروده فيما بعـد هكذا : محمد المبارك : الاسلام والفكر العلمي .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

٣) ((إن الله يمسك السموات والأرض أن تزولا ، ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده ، إنه كان حليماً غفوراً)) فاطر : ٤١ .

لما بين - سبحانه - في الأدلة السابقة أن الأصنام لا قدرة لها على الخلق ، ولا تملك شيئاً ، بين قدرته - تعالى - وحده على حفظ الكون من الزوال ورعاية من فيه من الناس .

والآية انتقال من نفي أن يكون لشركائهم خلق أو شركة تصرف في الكائنات التي في السماء والأرض إلى إثبات أنه تعالى هو القيوم على السموات والأرض لتبقيا موجودتين فهو الحافظ بقدرته نظام بقائهما . وهذا الإمساك هو الذي يعبر عنه في علم الهيئة بنظام الجاذبية بحيث لا يعتريه خلل (١) .

وقال الفخر الرازي : وتحتمل الآية أن يكون ذلك من التسليم وإثبات المطلوب على تقدير التسليم أيضا ، كأنه تعالى قال : شركاؤكم ما خلقوا من الأرض شيئاً ولا من السماء جزءاً ولا قدروا على الشفاعة ، فلا عبادة لهم ، وهب أنهم فعلوا شيئاً من الأشياء ، فهل يقدرون على إمساك السموات والأرض ؟ ولا يمكنهم القول بأنهم يقدرون ، لأنهم ما كانوا يقولون به ، كما قال تعالى عنهم (ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله) ويؤيد هذا قوله (ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده) فإذا تبين أن لا معبود إلا الله ، من حيث إن غيره لم يخلق من الأشياء ، وإن قال الكافر بأن غيره خلق ، فما خلق مثل ما خلق ، فلا شريك له (٢) .

ونظرة إلى السموات والأرض ، وإلى هذه الأجرام التي لا تحصى منتشرة في ذلك الفضاء الذي لا تعلم له حدود ، وكلها قائمة في مواضعها ، تدور في أفلاكها محافظة على مداراتها ، لا تختل ، ولا تخرج عنها ، ولا تبطيء أو تسرع في دورتها ، وكلها لا تقوم على عمد ، ولا تشد بأمراس ، لا تستند على شيء من هنا أو من هناك ، نظرة إلى تلك الخلائق الهائلة العجيبة جديرة بأن تفتح البصيرة على اليد الخفية القاهرة القادرة ، التي تمسك بهذه الخلائق وتحفظها أن تزول (٣) .

إنها آية لمن يريد الآية المعجزة ويعلق إيمانه عليها ! آية يغفل عنها الحس المتبلد بسبب العادة والإلف ، يرى السموات قائمة كل صباح وكل مساء ، فيحسب ذلك من طبائع الأشياء ، ويرده إلى أسباب ظاهرة من (قوى الطبيعة) ! و يغفل عنه نهائياً ، فلا يحس دلالته على الإطلاق ، ولكنها آية ككل آيات الله المعجزة .. فما الذي يحفظ السموات والأرض ويعطيها (استمرار الوجود) إلا مشيئة الله وقدره وقدرته (٤) .

---

(١) ابن عاشور : التحرير والتنوير جـ ٢٢ ص ٣٢٧ .
(٢) الفخر الرازي : التفسير الكبير جـ ٢٦ ص ٣٣ .
(٣) سيد قطب : الظلال جـ ٥ ص ٢٩٤٨ .
(٤) محمد قطب : دراسات قرآنية ص ٢٤١ - ٢٤٢ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ثالثاً :

الآيات التي تضمنت التنبيه على دلالتي الاختراع ، والعناية ، إذا تأملنا هذه المجموعة من الآيات ، نجد أن الله - تعالى - أقام بها الحجة على توحيده ببيان الحقائق التالية :

١- أن الله وحده الذي يخلق الرزق وغيره ويقسمه بين العباد فهو - سبحانه - الخالق للرزق من السماء والأرض ، وهو خالق الناس ومعطيهم الرزق رعاية منه لهم وعناية بهم .

٢- أن الله - سبحانه - وحده خلق البحار رغم تعدد طعومها واختلاف مساحاتها وهو الذي خلق الناس وسخر لهم هذه البحار حسبما تقتضيه مصالحهم من علمه وحكمته ، فجعل منها السمك والحلية ، وسخرها لحمل الفلك لتسيير مصالح الناس ونقل حاجاتهم .

وجعل الليل والنهار وسخر الشمس والقمر ، ومن السمك ما لا يمكن صيده إلا في الليل ، ومنه ما لا يمكن صيده إلا في النهار ، ومنه ما لا يمكن صيده إلا إذا كان الجو مشمسا ، ومنه ما لا يمكن صيده إلا في الليلة المقمرة ، كل هذه منافع في الليل والنهار والشمس والقمر فضلاً عن معرفة الأوقات والأزمنة ، فالله سبحانه المالك لهذا الكون وما فيه ومن فيه ، ولا أحد يملك شيئاً فيه سواه .

٣- أن الله - سبحانه - أنعم على عباده بإنزال الماء الذي خلقه من السماء التي خلقها ، أنزله فأخرج به النبات الذي يقتات منه الناس والدواب التي فيها منافع كثيرة للناس ، وبين سبحانه من عجائب خلقه تعدد الألوان في النباتات والجمادات والناس والدواب والأنعام ، فكل ذلك خلق لله وحده لا إله إلا هو .

وبعد هذا العرض الموجز لحجج الآيات التي تضمنت التنبيه على دلالتي الاختراع ، والعناية ، لابد من الوقوف على كل آية بشيء من الشرح والتفصيل إن شاء الله تعالى .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

١- ((يا أيها الناس اذكروا نعمت الله عليكم ، هل من خالق غير الله يرزقكم من السماء والأرض ، لا إله إلا هو فأنى تؤفكون)) فاطر : ٣ .

استدل القرآن الكريم بهذه الآية على وحدانية الله - تعالى - عن طريق إثبات خلق الرزق من السماء والأرض ، وأنه - سبحانه - هو الذي يرزق الناس وغيرهم وحده لا يشاركه في ذلك أحد ، فكان الاستدلال بهذه الآية استدلالاً بالخلق ، واستدلالاً بالعناية والرعاية للخلق .

ولما أمر بذكر نعمته ، أكد التعريف بأنها منه وحده على وجه يبين عزته وحكمته (١) .

فقال : (هل من خالق غير الله يرزقكم من السماء والأرض)(٢) وهو استفهام على جهة التقرير ، ومعناه النفي ، ليقروا بأنه لا خالق إلا الله يرزق من السماء بالمطر ، ومن الأرض بالنبات(٣) .

---

(١)البقاعي : نظم الدرر ج ١٦ص ٨ .

(٢)قال الزمخشري : فان قلت : ما محل (يرزقكم) ؟ قلت : يحتمل أن يكون له محل اذا أوقعته صفة لخالق ، وأن لا يكون له محل اذا رفعت محل (من خالق) باضمار يرزقكم.و أوقعت (يرزقكم) تفسيرا له ، أو جعلته كلاما مبتدأ بعد قوله : (هل من خالق غير الله) فان قلت : هل فيه دليل على أن الخالق لا يطلق على غير الله - تعالى - ؟ قلت : نعم . ان جعلت (يرزقكم) كلاما مبتدأ ،وهو الوجه الثالث من الأوجه الثلاثة ،وأما على الوجهين الآخرين وهما الوصف والتفسير ، فقد تقيد فيهما بالرزق من السماء والأرض ،وخرج من الاطلاق ،فكيف يستشهد به على اختصاصه بالاطلاق - الكشاف ج ٣ ص ٢٩٩ - ٣٠٠ .

قال ابن المنير : القدرية اذا قرعت هذه الآية أسماعهم قالوا - بجرأة على الله تعالى : نعم ثم خالق غير الله ،لأن كل أحد عندهم يخلق فعل نفسه .

والوجه الثالث هو المراد ،والذي يحققه : أن الآية خوطب بها قوم على أنهم مشركون ، اذا سئلوا عن رازقهم من السموات والأرض قالوا : الله . فقرروا بذلك ،وقرعوا به اقامة للحجة عليهم باقرارهم ،ولو كان على غير هذا الوجه قيدا لكان مفهومه اثبات خالق غير الله ،لكنه لا يرزق ،وهؤلاء الكفرة قد تبرأوا عن ذلك ،فلا وجه لتقريعهم بما يلائم قولهم . هذا ترجيح الوجه الثالث من حيث مقصود سياق الآية . وأما من حيث النظم اللفظي فلأن الجملتين اللتين هما قوله : يرزقكم . وقوله : لا اله الا هو . سيقتا سياقا واحدا . والثانية مفصولة ، الانتصاف ج ٣ ص ٢٩٩ - ٣٠٠ .

(٣) الطبرسي : مجمع البيان ج ٨ ص ٦٢٦ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ووصفت النعمة بـ (عليكم) ، لأن المقصود من التذكر التذكرُ الذي يترتب عليه الشكر ، وليس المراد مطلق التذكر بمعنى الاعتبار والنظر في بديع فضل الله ، فذلك له مقام آخر ، على أن قوله (هل من خالق غير الله يرزقكم) قد تضمن الدعوة إلى النظر في دليل الوحدانية والقدرة والفضل (١) .

وأقرب ما يرد على الخاطر أن السياق يذكر الناس بالله الخالق والرازق في ذات الوقت ، ولكن السياق إذ يجمع بين الخلق والرزق ، هكذا يشير إلى معنى معين ، أن الرزق هو خلق يخلقه الله الخالق - سبحانه وتعالى - فالله ليس فقط مرسل الرزق ، ولكنه خالقه أيضاً ، والرزق ليس موجوداً من ذات نفسه ، فتنحصر قدرة الله في إرساله للناس ، بل هو ككل شيء في الوجود ، يخلق بقدر من الله (٢) .

وزيادة (من السماء والأرض) تذكير بتعدد مصادر الأرزاق ، فإن منها سماوية كالمطر الذي منه شراب ، ومنه طهور ، وسبب نبات وأشجار وكلأ ، وكالمن الذي ينزل على شجر خاص من أندية في الجو ، وكالضياء من الشمس ، والاهتداء بالنجوم في الليل ، وكذلك أنواع الطير الذي يصاد ، كل ذلك من السماء ، ومن الأرض أرزاق كثيرة من حبوب وثمار وزيتون وفواكه ومعادن وكلأ وكمأة ، وأسماك البحار والأنهار (٣) .

ولما بين أنه الرزاق وحده انقطع أمل كل أحد من غيره حتى من نفسه ، فحصل الإخلاص ، فتعين أنه سبحانه الإله وحده ، فقال : (لا إله إلا هو) (٤) .

(فأنى تؤفكون) أي فمن أي وجه تصرفون عن التوحيد إلى الشرك(٥).

وقال ابن عاشور : هذا نتيجة عقب ذكر الدليل إذ رتب على انفراده بالخالقية والرازقية انفراده بالإلهية ، لأن هذين الوصفين هما أظهر دلائل الإلهية عند الناس ، فجملة (لا إله إلا هو ، مستأنفة ، وفرع عليه التعجيب من انصرافهم عن النظر في دلائل الوحدانية بجملة (فأنى تؤفكون) (٦) ، هل بقي شك بعد ذلك في أن الله إله واحد خالق رازق قادر وحده - سبحانه - لا حد لقدرته ؟ كلا .

---

(١) ابن عاشور : التحرير والتنوير ج ٢٢ ص ٢٥٤ .
(٢) محمد قطب : دراسات قرآنية ص ٢١٨ ط ٢ ١٩٨٠ دار الشروق .
(٣) ابن عاشور : التحرير والتنوير ج ٢٢ ص ٢٥٥ .
(٤) البقاعي : نظم الدرر ج ١٦ ص ٩ .
(٥) الزمخشري : الكشاف ج ٣ ص ٣٠٠.
(٦) ابن عاشور : التحرير والتنوير ج ٢٢ ص ٢٥٥ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وكما يقول د. فاروق دسوقي: الموجود اما أن يكون مستقلا في وجوده مستغنيا عن غيره بذاته ، وإما أن يكون الموجود معتمداً في وجوده واستمرار وجوده على غيره ، فإن كان معتمداً في وجوده على غيره صار بالضرورة خاضعاً لهذا الغير ، وثبتت عبوديته له ، وفي إثبات عبوديته لغيره إثبات لألوهية هذا الغير له . وحيث إنه يستحيل عقلاً أن يكون الموجود فقيراً ومحتاجاً في وجوده إلى غيره ، ومستغنياً عن غيره في نفس الوقت ، فإنه يستحيل عقلاً - نتيجة لذلك - أن يكون الموجود عبداً وإلهاً في نفس الوقت ، ومن ثم ننتهي إلى أن الغني بذاته عن غيره هو الخالق ، وأن الفقير والخاضع في وجوده لغيره هو المخلوق ، ونتيجة منطقية لذلك أيضا ، أنه يستحيل أن يكون الكائن خالقاً ومخلوقاً في آن واحد ، فلم يبق إلا أن يكون في الكون خالق واحد ، وما سواه مخلوق(١) .

---

(١) د . فاروق دسوقي : محاضرات في العقيدة الاسلامية ص ٤٣ - ٤٤ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

٢- ((وما يستوي البحران هذا عذب فرات سائغ شرابه وهذا ملـــــح أجاج ومن كل تأكلون لحماً طرياً وتستخرجون حلية تلبسونها ، وترى الفلك فيه مواخر لتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون . يولج الليـــل في النهار ويولج النهار في الليل ، وسخر الشمس والقمر كل يجـــري لأجل مسمى ، ذلكم الله ربكم له الملك ، والذين تدعون من دونـــه ما يملكون من قطمير)) فاطر : ١٢ ، ١٣ .

والآيتان انتقال من الاستدلال بالأحوال في الأجواء بين السمـــاء والأرض على تفرد الله تعالى بالإلهيّة إلى الاستدلال بما على الأرض مـــن بحار وأنهار وما في صفاتها من دلالة زائدة على دلالة أعيانهـــا على عظيم مخلوقات الله - تعالى - فصيغ هذا الاستدلال على أسلـــوب بديع ، إذ اقتصر فيه على التنبيه على الحكمة الربانية في المخلوقـــات ، وهي ناموس تمايزها بخصائص مختلفة ، واتحاد أنواعها في خصائص متماثلة استدلالاً على دقيق صنع الله - تعالى - (١) .

وقال الفخر الرازي في هذه الآية ،بعد أن ذكر أن أكثر المفسريـــن على أن المراد منها ضرب المثل في حق الكفر والايمان(٢) ،قال : والأظهـــر أن المراد منه ذكر دليل آخر على قدرة الله ، وذلك من حيث إن البحريـــن يستويان في الصورة ويختلفان في الماء ، فإن أحدهما عذب فرات والآخر ملح أجاج ، ولو كان ذلك بإيجاب لما اختلف المتساويان ، ثم إنهما بعـــد اختلافهما يوجد منهما أمور متشابهة ، فإن اللحم الطري يوجد فيهمـــا ، والحلية تؤخذ منها ، ومن يوجد في المتشابهين اختلافاً ، ومن المختلفيـــن اشتباهـــاً لا يكون إلا قادراً مختاراً ، وقوله (وما يستوي البحـــران) إشارة إلى أن عدم استوائهما دليل على كمال قدرته ونفوذ إرادته (٣) .

---

(١) ابن عاشور : التحرير والتنوير ج ٢٢ ص ٢٧٩ .

(٢) قال الزمخشري : ضرب البحرين العذب والمالح مثلين للمؤمن والكافـــر . الكشـاف ج ٣ ص ٣٠٣ . والأظهر أن الآية سيقت للاستدلال على الوحدانيـــة من خلال قدرة الله على الخلق والتنويع ، وابراز العناية بالانســـان ، لأن مقصد السورة اثبات الوحدانية لله تعالى ، والى هذا أشار الـــرازي وابن عاشور ، وقال أبو حيان : هذه الآية يستدل بها على كل عاقـــل أنه مما لا مدخل لصنم فيه . البحر المحيط ج ٧ ص ٣٠٤ .

(٣) الفخر الرازي : التفسير الكبير ج ٢٦ ص ١٠ - ١١ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وخلق الله الأنهار تنساب بين العباد بحسب الحاجة إليها من الأقاليم والأمصار ، يشرب منها الإنسان والحيوان ، وينبت النبات الذي فيه غذاء لهما ، وماء الأنهار عذب فرات ، وخلق البحار ، ماؤها ملح أجاج مختلف عن العذب السائغ ، ومع ذلك فللبحار فائدة أخرى ، هي سير السفن الكبار فيها كما يستخرج منها اللؤلؤ والمرجان(١) .

وهذه آية مما يتبلد عليه الحس بحكم الإلف والعادة ... البحر العذب والبحر الملح وهي عجيبة من عجائب الخلق ننساها لأننا - في أحسن أحوالنا - نردها إلى الأسباب الظاهرة ... إلى (قوى الطبيعة) وننسى أن قوى الطبيعة المزعومة هذه لا تخلق ولا تعمل شيئاً من تلقاء ذاتها ، إنما بما أودع في الكون من سنن ربانية يجري الكون عليها .ومن حصيلة هذه السنن ، يوجد ماء عذب يجري في الأنهار - يسميها هنا بحاراً للمشاكلة اللفظية ، وإن كان لا يخرج عن معنى اللفظ في اللسان العربي - وماء ملح تعج به البحار والمحيطات ، وهذا وذاك من خلق الله ، ويتم بمشيئة الله ، واختلافهما وهما من مصدر واحد كان كفيلاً أن يوقظ الحس لحقيقة القدرة الكامنة وراء وجودهما ووراء اختلافهما(٢) .

إن إرادة التنويع في خلق الماء واضحة ، ووراءها حكمة ظاهرة ، فأما الجانب العذب السائغ اليسير التناول ، فنحن نعرف جانباً من حكمة الله فيما نستخدمه وننتفع به ، وهو قوام الحياة لكل حي ، وأما الجانب الملح المر ، وهو البحار والمحيطات ، فيقول أحد العلماء في بيان التقدير العجيب في تصميم هذا الكون الضخم(٣) : وعلى الرغم من الانبعاثات الغازية من الأرض طول الدهور - ومعظمها سام - فإن الهواء باق دون تلويث في الواقع ودون تغير في نسبته المتوازنة اللازمة لوجود الإنسان ، وعجلة الموازنة العظيمة ، هي تلك الكتلة الفسيحة من الماء - أي المحيط - الذي استمدت منه الحياة والغذاء والمطر والمناخ المعتدل ، والنباتات ، وأخيراً الإنسان نفسه (٤) .

فالاختلاف بين البحرين بالعذوبة والملوحة دليل على دقيق صنع

---

(١)د . عبد الله شحادة - تفسير الآيات الكونية ص ٢٣٧ ط دار الاعتصام وسيشار الى هذا المرجع حين وروده فيما بعد هكذا : عبد الله شحاده : تفسير الآيات الكونية .

(٢)محمد قطب : دراسات قرآنية ص ٢٢٧ .

(٣)سيد قطب : الظلال ج ٥ ص ٢٩٣٤ .

(٤)المرجع نفسه ج ٥ ص ٢٩٣٤ . نقلا عن كتاب : الانسان لا يقوم وحده ، تأليف د . أ . كريس . موريسون ، رئيس أكاديمية العلوم بنيويورك ، ترجمة محمود صالح الفلكي بعنوان : العلم يدعو الى الايمان .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

اللـــه ، والتخالف في بعض مستخرجاتها والتماثل في بعضها دليل آخـــر على دقيق الصنع ، وهذا من أفانين الاستـــدلال (١) .

وهذا بعض ما تكشف لنا من حكمة الخلق والتنويع ، واضح فيـــه القصد والتدبير ، ومنظور فيه إلى تناسقات وموازنات يقوم بعضهـــا في حياة هذا الكون ونظامه ، ولا يصنع هذا إلا الله خالق هذا الكـــون وما فيه ومن فيه (٢) .

(ومن كل تأكلون لحماً طرياً وتستخرجون حلية تلبسونها) فكيـف لولا قدرة الله المعجزة يوجد السمك مثلاً - وهو من اللحم الطري المقصـود في الآيـة - في الماء العذب والماء الملح ، وكيف وفى الله بحاجـات الإنسان ، وكيف استطاع أن يستخرج هذا اللحم الطري ويأكلـه ؟

والحلية من اللؤلؤ الموجود في الماء - شأنها كذلك - إنها مـن عجائب الخلق التي لا ينتبه إليها الحس المتبلد ، فيوقظه إليها السيـاق ليذهب عنه تبلده ويحسها بكل دلالتها (٣) .

(وترى الفلك فيه مواخر) أي تمخره وتشقه بحيزومها ، وهـو مقدمها المسنم الذي يشبه جؤجؤ الطير ، وهو صدره (٤) .

وتقدير الظرف في قوله (فيه مواخر) على عكس آية سـورة النحل ، لأن هذه الآية منسوقة مساق الاستدلال على دقيق صنع الله تعالى في المخلوقات ، وأدمج فيه الامتنان بقوله (يأكلون ... وتستخرجـون حلية) وقوله (لتبتغوا من فضله) فكان المقصد الأول من سياقها الاستدلال على عظيم الصنع ، فهو الأهم هنا (٥) .

(يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل ، وسخر الشمس والقمر كل يجري لأجل مسمى) استدلال عليهم بما في مظاهر السموات من الدلائل على بديع صنع الله في أعظم المخلوقات ليتذكروا بذلك أنه الإلـه الواحـد (٦) .

---

(١) ابن عاشور : التحرير والتنوير ج ٢٢ ص ٢٨٠ .
(٢) سيد قطب : الظلال ج ٥ ص ٢٩٣٤ .
(٣) محمد قطب : دراسات قرآنية ص ٢٢٧ .
(٤) الحافظ عماد الدين أبو الفداء اسماعيل بن كثير : تفسير القرآن العظيم ج ٣ ص ٥٥٨ ط دار المعرفة - بيروت - لبنان - ١٩٨٦م .
(٥) ابن عاشور : التحرير والتنوير ج ٢٢ ص ٢٨٠ .
(٦) المرجع نفسه ج ٢٢ ص ٢٨١ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وقال الفخر الرازي : استدلال آخر باختلاف الأزمنة ... وقوله تعالى بعده (وسخر الشمس والقمر) جواب لسؤال يذكره المشركون، وهو أنهم قالوا : اختلاف الليل والنهار بسبب اختلاف القسي الواقعة فوق الأرض وتحتها ، فإن في الصيف تمر الشمس على سمت الرؤوس في بعض البلاد الماثلة في الآفاق ، وحركة الشمس هناك حمائلية فتقع تحت الأرض أقل من نصف دائرة زمان مكثها تحت الأرض ، فيقصر الليل ، وفي الشتاء بالضد فيقصر النهار ، فقال الله تعالى : (وسخر الشمس والقمر) يعني سبب الاختلاف وإن كان ما ذكرتم ، لكن سير الشمس والقمر بإرادة الله وقدرته ، فهو الذي فعل ذلك(١) .

وإيلاج الليل في النهار والنهار في الليل قد يعني ذينك المشهدين الرائعين ، مشهد دخول الليل في النهار ، والضياء يغيب قليلاً قليلاً، والظلام يدخل قليلاً قليلاً حتى يكون الغروب ، وما يليه من العتمة البطيئة الدبيب ، ومشهد دخول النهار في الليل حينما يتنفس الصبح وينتشر الضياء رويداً رويداً ، ويتلاشى الظلام رويداً رويداً حتى تشرق الشمس ويعم الضياء.. كذلك قد يعني طول الليل وهو يأكل من النهار وكأنما يدخل فيه . وطول النهار وهو يأكل من الليل وكأنما يدخل فيه ، وقد يعنيهما معاً بتعبير واحد ، وكلها مشاهد تطوف بالقلب في سكون ، وتغمره بشعور من الروعة والتقوى ، وهو يرى يد الله تمد هذا الخط وتطوي ذاك الخط ، وتشد هذا الخيط وترخي ذاك الخيط في نظام دقيق مطرد لا يتخلف مرة ولا يضطرب ، ولا يختل يوماً أو عاماً على توالي القرون (٢) .

فنحن أمام حركة في الطبيعة تثير النفس وتدفعها إلى التأمل والتصور والتخيل ، وهذه الحركة تبدو في ثنائية الطبيعة في الليل والنهار، في الشروق والغروب ، في الحياة والموت ، فالقرآن يشد الإنسان إلى هذه الحركة ، ويدعوه إلى تتبعها وفهم ما تنطوي عليه من أسرار الخلق والإبداع (٣) .

---

(١) الفخر الرازي : التفسير الكبير ج ٢٦ ص ١١ - ١٢ .
(٢) سيد قطب : الظلال ج ٥ ص ٢٩٣٥ .
(٣) د . محمد على الجوزو : مفهوم العقل والقلب في القرآن والسنة ص ٥٧ ط١ ١٩٨٠ م . دار العلم للملايين . وسيشار الى هذا المرجع حين وروده فيمايعد هكذا . محمد الجوزو : مفهوم العقل .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

إن هذا التضاد الثنائي في الطبيعة ، أو هذا التقابل بين الظواهر الطبيعية كان القاعدة الأولى التي استند إليها القرآن في البرهنة على وجود قوة أو قانون يدل على الخلق والإبداع(١) .

(وسخر الشمس والقمر) أي ذللهما بالطلوع والأفول تقديراً للآجال وإتماماً للمنافع(٢) .

ثم قرر سبحانه نتيجة ما ساقه من الأدلة والبراهين فقال: (ذلكم الله ربكم له الملك ، والذين تدعون من دونه ما يملكون من قطمير) . وهذا الكلام استئناف موقعه موقع النتيجة من الأدلة بعد تفصيلها ، واسم الإشارة موجه إلى من جرت عليه الصفات والأخبار السابقة من قوله (والله الذي أرسل الرياح) الآيات ، فكان اسمه حرياً بالإشارة إليه بعد إجراء تلك الصفات ، إذ بذكرها يتميز عند السامعين أكمل تمييز حتى كأنه مشاهد لأبصارهم ، مع ما في اسم الإشارة من البعد المستعمل كناية عن تعظيم المشار إليه ، ومع ما يقتضيه إيراد اسم الإشارة عقب أوصاف كثيرة من التنبيه على أنه حقيق بما سيرد بعد الإشارة من أجل تلك الصفات ، فأخبر عنه بأنه صاحب الاسم المختص به الذي لا يجهلونه وأخبر عنه بأنه رب الخلائق بعد أن سجل عليهم ما لا قبل لهم بإنكاره من أنه الذي خلقهم خلقاً من بعد خلق، وأن خلقهم من تراب ، وقدر آجالهم ، وأوجد ما هو أعظم منهم من الأحوال السماوية والأرضية مما يدل على أنه لا يعجزه شيء ، فهو الرب دون غيره ، وهو الذي الملك والسلطان له لا لغيره ، أفاد ذلك كله قوله - تعالى - (ذلكم الله ربكم له الملك) فانتهض الدليل(٣) . وتقررت وحدانيه الله - تعالى - وبطل كل ادعاء بالشرك بقوله - سبحانه - (والذين تدعون من دونه ما يملكون من قطمير) .

والقطمير : لفافة النواة ، وهي القشرة الرقيقة الملتفة عليها(٤).

وقال الفخر الرازي : ثم قال تعالى (ذلكم الله ربكم له الملك والذين تدعون من دونه ما يملكون من قطمير) أي ذلك الذي فعل هذه

---

(١) د . محمد الجوزو : مفهوم العقل ص ٥٨ - ٥٩ .
(٢) ابو عبد الله محمد بن احمد الانصاري القرطبي : الجامع لأحكام القرآن ج ١٤ ص ٧٨ ط ١ ١٩٤٥ م ، مطبعة دار الكتب المصرية ، وسيشار الى هذا المصدر حين وروده فيما بعد هكذا . القرطبي : التفسير - ط ١ .
(٣) ابن عاشور : التحرير والتنوير ج ٢٢ ص ٢٨٢ .
(٤) الزمخشري : الكشاف ج ٣ ص ٣٠٤ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الأشيـــاء من فطر السموات والأرض وإرسال الأرواح وإرسال الرياح وخلـــق الإنســان من تراب ، وغير ذلك له الملك كله فلا معبود إلا هو لذاتـــه الكامل ، ولكونه ملكاً ، والملك مخدوم بقدر ملكه ، فإذا كان له الملـــك كله فله العبادة كلها ، ثم بين ما ينافي صفة الإلهية وهو قوله (والذين تدعون من دونه ما يملكون من قطمير) وههنا لطيفة : وهي أن اللـــه تعالى ذكر لنفسه نوعين من الأوصاف أحدهما : أن الخلق بالقـــدرة والإرادة .

والثاني : الملك ، واستدل بهما على أنه إله معبود كما قـــال تعالى : (قل أعوذ برب الناس . ملك الناس . إله الناس) ، ذكر الـــرب والملك ورتب عليهما كونه إلهاً ، أي معبوداً وذكر فيمن أشركوا بـــه سلب صفة واحدة ، وهو عدم الملك ـ بقوله (والذين تدعـــون من دونه ما يملكون من قطمير) ولم يذكر سلب الوصف الآخر ، لوجهين :

أحدهما : أن كلهم كانوا معترفين بأن لا خالق لهم إلا اللـــه ، وإنما كانوا يقولون بأن الله تعالى فوض أمر الأرض والأرضيات إلـــى الكواكب التي الأصنام على صورتها وطوالعها ، فقال : لا ملك لهـــم ، ولا ملكهم الله شيئاً ولا ملكوا شيئاً .

وثانيهما : أنه يلزم من عدم الملك عدم الخلق ، لأنه لو خلـــق شيئاً لملكه ، فاذا لم يملك قطميراً ، ما خلق قليلاً ولا كثيراً (١)

وبذلك نستنتج الاستدلال على تفرد الله سبحانه بالخلق والتصريـــف والتدبير كما يقرر القرآن تجرد المخلوقات من أية سلطة أو صلاحية .

---

(١) الفخر الرازي : التفسير الكبير ج ٢٦ ص ١٢ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

٣- ((ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات مختلفاً ألوانها ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها ، وغرابيب سود . ومن الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه كذلك ، إنما يخشى اللهَ من عباده العلماءُ ، إن الله عزيز غفور)) .

فاطر : ٢٧ ، ٢٨ .

وهذا استدلال بدليل آخر على وحدانية الله وقدرته ... وذكر هذا الدليل على طريقة الاستخبار ، وقال : (ألم تر) وذكر الدليل المتقدم على طريقة الإخبار ، وقال : (والله الذي أرسل الرياح) وفيه وجهان :

الأول : أن إنزال الماء أقرب إلى النفع ، والمنفعة فيه أظهر ، فإنه لا يخفى على أحد في الروّية أن الماء منه حياة الأرض ، فعظم دلالته بالاستفهام ، لأن الاستفهام الذي للتقرير لا يقال إلا في الشيء الظاهر جداً كما أن من أبصر الهلال وهو خفي جداً ، فقال له غيره أين هو ، فإنه يقول له في الموضع الفلاني ، فإن لم يره ، يقول له الحق معك ، إنه خفي وأنت معذور ، وإذا كان بارزاً يقول له أما تراه ، هذا هو ظاهر .

والثاني : وهو أنه ذكره بعد ما قرر المسألة بدليل آخر ، وظهر بما تقدم للمدعو بصارة بوجوه الدلالات ، فقال له : أنت صرت بصيراً بما ذكرناه ولم يبق لك عذر ، ألا ترى هذه الآية ؟ (١) .

ويقول تعالى منبهاً على كمال قدرته في خلقه الأشياء المتنوعة المختلفة من الشيء الواحد وهو الماء الذي ينزله من السماء ، يخرج به ثمرات مختلفاً ألوانها من أصفر وأحمر وأخضر وأبيض ، إلى غير ذلك من ألوان الثمار ، كما هو الشاهد من تنوع ألوانها وطعومها وروائحها ... وخلق الجبال كذلك مختلفة الألوان كما هو المشاهد أيضا من بيض وحمر ، وفي بعضها طرائق ، وهي الجدد جمع جُدّة ، مختلفة الألوان أيضاً (٢) .

إنها لفتة كونية عجيبة من اللفتات الدالة على مصدر هذا الكتاب ، لفتة تطوف في الأرض كلها تتبع فيها الألوان والأصباغ في كل عوالمها ، في الثمرات ، وفي الجبال ، وفي الناس ، وفي الدواب والأنعام (٣) .

---

(١) الفخر الرازي : التفسير الكبير ج ٢٦ ص ١٩ .
(٢) انظر : ابن كثير : التفسير ج ٣ ص ٥٦٠ - ٥٦١ .
(٣) سيد قطب : الظلال ج ٥ ص ٢٩٤٢ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

(ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء) أي لا شيء يشابهه في مماثلة بعضه لبعض ، فلا قدرة لغيره - سبحانه - على تمييز شيء منه إلى ما يصلح لشيء دون آخر (١) .

(فأخرجنا به ثمرات مختلفاً ألوانها ، ومن الجبال جُدَد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود . ومن الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه كذلك ..) التنوع الأول المشار إليه هو في الثمرات المختلفة الألوان ، وهي تسقى بالماء الواحد النازل من السماء .

والتنوع الثاني في الجبال : (ومن الجبال جُدَد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود) .

والتنوع الثالث في الناس والدواب والأنعام : (ومن الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه كذلك) .

فهذه أنواع الكائنات الثلاثة : الجماد ، والنبات والحيوان - ومعه الإنسان - ، والاختلاف حادث فيها جميعاً ، - بمشيئة الله وقدره وقدرته - فما يمكن إلا للإله القادر سبحانه أن يحدث هذا التنويع العجيب في جميع الكائنات .

وهذه الظاهرة ملحوظة ولا شك ، ولكنها من أشد ما يتبلد عليه الحس نتيجة الإلف والعادة والتكرار ، وإن كل واحدة منها لمما يهز الوجدان المتفتح هزاً ، ويتوجه به توجهاً إلى الله الخالق القادر المعجز القدرة .

وقفة واحدة عند الثمرات المختلفة الألوان كفيلة بأن يخشع الوجدان لله .. فما هذه القدرة المعجزة التي تنبت النبات بهذا التنوع الأخّاذ .. كل نبات له لون ، ولا يكاد يلتقي لونان اثنان منها على تعددها الذي يفوق الحصر ، حتى (الخضرة) التي نصف بها النبات ، ما هي خضرة واحدة ، إنما ظلال مختلفة متباينة من الخضرة .. أما (الثمرات) فحدث عن اختلاف ألوانها ما شاء لك الحديث ! واستخدم أدق الألفاظ المعبرة عن الألوان ، وظلال الألوان .. فمتى تفرغ من الوصف ؟ وهذا لون واحد من ألوان التنوع والاختلاف .

ووقفة واحدة عند الجبال المتباينة المتداخلة الألوان تذهل الإنسان عجباً ! يا لله ، ما هذه الدقة العجيبة في التلوين ؟ وكيف تأتى للصخرة الواحدة أن تتداخل فيها الألوان وتتباين بهذه الصورة ؟ وهل هي صخور

---

(١) البقاعي : نظم الدرر ج ١٦ ص ٤٤ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

تلك أم معارض ألوان ؟ وإنها لهكذا منذ ملايين السنين بوقفتها الشامخة هذه وتعدد ألوانها حتى من قبل أن يوجد الإنسان .

ووقفة واحدة عند ألوان البشر المختلفة ، وألوان الدواب والأنعام المختلفة ، حرية بأن تثير العجب والدهشة في قلب الإنسان : هذا الأصفر والأحمر والأبيض والأسود والأسمر ، كلهم بشر ، كلهم من نوع واحد ، ويلتقون بألوانهم المختلفة هذه فيأخذك التقاؤهم وتنوعهم في آن ، كلهم بشر ... تلك نقطة الالتقاء ... وبعد ذلك كل منهم عالم وحده ! تماماً كالجبال التي منها جُدَد بيض وحمر وغرابيب سود .. وكالثمرات المختلفة الألوان ... وكذلك عالم الدواب والأنعام .

ألا إنه للإعجاز في الخلق ... ألا إنها للقدرة القادرة التي تبدع على غير مثال (١) .

واللفتة إلى ألوان الصخور وتعددها وتنوعها داخل اللون الواحد بعد ذكرها إلى جانب ألوان الثمار تهز القلب هزاً ، وتوقظ فيه حاسة الذوق الجمالي العالي ، التي تنظر إلى الجمال نظرة تجريدية ، فتراه في الصخرة كما تراه في الثمرة ، على بعد ما بين طبيعة الصخرة وطبيعة الثمرة ، وعلى بعد ما بين وظيفتيهما في تقدير الإنسان ، ولكن النظرة الجمالية المجردة ترى الجمال وحده عنصراً مشتركاً بين هذه وتلك ، يستحق النظر والالتفات .

ثم ألوان الناس . وهي لا تقف عند الألوان المتميزة العامة لأجناس البشر ، فكل فرد بعد ذلك متميز اللون بين بني جنسه . بل متميز من توأمه الذي شاركه حملاً واحداً في بطن واحدة !

وكذلك ألوان الدواب والأنعام . والدواب أشمل والأنعام أخص، فالدابة كل حيوان . والأنعام هي الإبل والبقر والغنم والماعز ، خصها من الدواب لقربها من الإنسان . والألوان والأصباغ فيها معرض كذلك جميل كمعرض الثمار ومعرض الصخور سواء (٢) .

وذكر الجبال ولم يذكر الأرض كما قال في موضع آخر (وفي الأرض قطع متجاورات) مع أن هذا الدليل مثل ذلك ، وذلك لأن الله تعالى لما ذكر

---

(١) محمد قطب : دراسات قرآنية ص ٢٣٥ .

(٢) سيد قطب : الظلال ج ٥ ص ٢٩٤٢ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

في الأول (أخرجنا به ثمرات) كان نفس إخراج الثمار دليلاً على القدرة ثم زاد عليه بياناً ، وقال : مختلفاً كذلك في الجبال في نفسها دليل للقدرة والإرادة ، لأن كون الجبال في بعض نواحي الأرض دون بعضها ، والاختلاف الذي في هيئة الجبل ، فإن بعضها يكون أخفض وبعضها أرفع ،دليل القدرة والاختيار ، ثم زاده بياناً وقال : جُدَد بيض ، أي مع دلالتها بنفسها هي دالة باختلاف ألوانها ، كما أن إخراج الثمرات في نفسها دلائل واختلاف ألوانها دلائل (١) .

ثم قال تعالى : (ومن الناس والدواب والأنعام) استدلالاً آخر على قدرته وإرادته ، وكأن الله تعالى قسم دلائل الخلق في العالم الذي نحن فيه وهو عالم المركبات ، قسمين : حيوان ، وغير حيوان ، وغير الحيوان إما نبات وإما معدن ، والنبات أشرف . وأشار إليه بقوله (فأخرجنا به ثمرات) ثم ذكر المعدن بقوله (ومن الجبال) ثم ذكر الحيوان وبدأ بالأشرف منها ، وهو الإنسان ، فقال : (ومن الناس) ثم ذكر الدواب ، لأن منافعها في حياتها والأنعام منفعتها في الأكل منها ، أو لأن الدابة في العرف تطلق على الفرس وهو بعد الإنسان أشرف من غيره ، وقوله (مختلف ألوانه) القول فيه كما أنها في أنفسها دلائل كذلك في اختلافها دلائل (٢) .

وإنك ترى من هذه الآيات الكريمة ، بيان تنوع المخلوقات ، ولاشك أن هذا التنوع يتنافى مع كون الأشياء نشأت من المنشيء كما ينشأ المعلول من العلة ، لأن المعلول يجب أن يكون مماثلاً للعلة ، غير مختلف عنها ، وهنا نجد اختلاف الموجودات ، من إنسان يتفكر ويتدبر ، وحيوان ينعق، وطائر يطير ، ومن شمس وقمر يسيران بحسبان ، فكان التنوع الذي ذكره القرآن إبطالاً لما يقرره الفلاسفة من نظرية العلة والمعلول ، والسبب والمسبب .

ضاق بهم مسلكهم فلم يتصوروا غير ذلك ، ولو نظروا إلى الكون وما يجري فيه من أحوال لادركوا بفطرتهم المستقيمة أن المنشيء واحد أحد ، ليس بوالد ولا ولد (٣) .

---

(١) الفخر الرازي : التفسير الكبير ج ٢٦ ص ٢٠ - ٢١ .
(٢) المرجع نفسه ج ٢٦ ص ٢١ .
(٣) الامام محمد ابو زهرة : المعجزة الكبرى (القرآن) ص ٣٩٣ ط دار الفكر العربي . وسيشار الى هذا المرجع حين وروده فيما بعد هكذا: ابوزهرة : المعجزة الكبرى .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

والمراد بالعلماء : العلماء بالله وبالشريعة ، وعلى حسب مقدار العلم في ذلك تقوى الخشية ، فأما العلماء بعلوم لا تتعلق بمعرفة الله وثوابه وعقابه معرفة على وجهها فليست علومهم بمقربة لهم من خشية الله ، ذلك لأن العالم بالشريعة لا تلتبس عليه حقائق الأسماء الشرعية ، فهو يفهم مواقعها حق الفهم ، ويرعاها في مواقعها ، ويعلم عواقبها من خير أو شر ، فهو يأتي ويدع من الأعمال ما فيه مراد الله ومقصد شرعه ، فإن هو خالف ما دعت إليه الشريعة في بعض الأحوال أو في بعض الأوقات لداعي شهوة أهو هوى ، أو تعجل نفع دنيوي ، كان في حال المخالفة موقناً أنه مورط فيما لا تحمد عقباه ، فذلك الإيقان لا يلبث أن ينصرف به عن الاسترسال في المخالفة بالإقلاع أو الإقلال (١).

حقيقة إن من نسميهم في اصطلاحنا الحاضر (علماء) بمعنى رجال العلوم ، هم أحرى أن يدركوا عظمة الخلق وإعجازه ، ولقد آمن بعض هؤلاء بالفعل - بعد إلحاد - لما تكشف لهم في بحوثهم العلمية أن هذه المعجزات الدقيقة في بناء الذرة أو الخلية الحية لا يمكن أن تحدث اتفاقاً وأنه لابد لها من موجد عظيم القدرة دقيق العلم .. هذا كله حقيقة .. ولكن يظل للتعبير القرآني دلالته القرآنية ... ويظل معنى (العلماء) أي الذين يعلمون حقيقة الألوهية على المنهج الإيماني ، فتتحول المعرفة عندهم إلى مشاعر وجدانية وسلوك عملي ... ويمكن أن يدخل في مفهومها رجال العلم هؤلاء ، إذا تفتحت بصيرتهم لقدرة الله المعجزة ، فعلموا من حقيقة الألوهية ما يجعلهم أشد خشية لله ، وأشد امتثالاً لأمره وبهذه الصفة وحدها يصبحون (علماء) (٢) .

---

(١) ابن عاشور : التحرير والتنوير ج ٢٢ ص ٣٠٤ - ٣٠٥ .
(٢) محمد قطب : دراسات قرآنية ص ٢٣٧ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

إن القرآن نزل من عند الله تعالى كتاب هداية للناس ، يدعوهم إلى الإيمان به ، ويحثهم على العمل الصالح الذي فيه سعادتهم في الدنيا والآخرة ، وأسلوب الهداية - كما هو معروف - يقضي بذكر الأدلة والاستشهادات في مواطن حاجتها من العبرة والعظة ، ولا يعنى بالترتيب الزماني ، لذلك جاءت الإرشادات القرآنية إلى المظاهر الكونية مبثوثة في تضاعيف آياته منثورة في مختلف سوره ، تحض الإنسان على النظر والتأمل في حكمة الإبداع وجمال التنظيم وكمال القدرة الإلهية في الخلق والتكوين (١) .

والذي يزيد يقين الإنسان أن الشيء الذي يراه مصنوعاً بشكل علمي وفني ، وتركيبه معقد ومنظم ، يحتاج إلى التدقيق فيه لفهم تكوينه ، كالآلة الحاسبة مثلاً ، فإذا نظر الإنسان إلى السماء كيف صفت فيها النجوم ورتبت وسارت بنظام سيراً أدق من سير عقارب الساعة . ونظر إلى الزهور وألوانها وإبداعها ، أو إلى أي مخلوق ، رأى فيه الإبداع والنظام والدقة في الصنع ، كما وجد أن أي مخلوق قد كلف بعمل لا يحيد في عمله عما أمر به ، فشجرة التفاح لا تثمر خوخاً ولا تلد الناقة خروفاً ، ولا يحل الليل محل النهار ، ولا تتلكأ الشمس في الظهور . وهكذا ، فإذا استعمل الإنسان فطرته دلته على أن صانع هذا الكون عالم خبير ، مبدع قادر مدبر ، واحد لا إله إلا هو(٢) .

هذه هي أدلة القرآن ، تأتي دائماً بشكل لا يتطرق إليه الشك أبداً ، لأنها أدلة وبراهين تعتمد على الحقائق الثابتة ، والوضوح ، والواقعية .

---

(١) عبدالغني الخطيب : أضواء من القرآن على الانسان ونشأة الكون والحياة ص ٧٢ ط ١ ١٩٧٠ مكتبة دار الفتح بدمشق . وسيشار الى هذا المرجع حين وروده فيما بعد هكذا : عبدالغني الخطيب : أضواء من القرآن .

(٢) د . محمد فائز المط : من كنوز الاسلام ص ١٩ - ٢٠ ط ١ ١٩٨٤ مؤسسة الرسالة . وسيشار الى هذا المرجع حين وروده فيما بعد هكذا : محمد المط : من كنوز الاسلام .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

(المبحث الثاني)

مبحث في الملائكة

الملائكة جمع ملك ، وهم مخلوقات نورانية لطيفة ، ليس لها جسم مادي يدرك بالحواس الإنسانية ، ولا يأكلون ، ولا يشربون، ولا ينامون ، ولا يتزاوجون ، ولا يوصفون بذكورة ولا بأنوثة ، مطهرون من الشهوات الحيوانية ، ومنزهون عن الآثام والخطايا ، وليس لهم نفوس تحدثهم بالكفر أو العصيان ، حياتهم عبادة الله - تعالى - وطاعته وتسبيحه والتزام تنفيذ أوامره - تعالى - وأحكامه ، وقد وهبهم الله قوة خارقة ، ولهم قدرة على التمثل بصور مختلفة ، ولا يحصى عددهم إلا الله - تعالى - ، لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون (١) . والآيات الواردة في شأنهم كثيرة تبين أخلاقهم وخلقهم وأعمالهم ... الخ .

قال تعالى : (وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة) البقرة : ٣٠ ، فيها دليل على أن الملائكة مخلوقون قبل آدم .

وقال تعالى : (يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم ناراً وقودها الناس والحجارة ، عليها ملائكة غلاظ شداد لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون) التحريم : ٦ .

وقال تعالى : (إنه لقول رسول كريم . ذي قوة عند ذي العرش مكين . مطاع ثم أمين)التكوير : ١٩ - ٢١ ، في هذه الآيات دليل على عظم خلق الملائكة وقوتهم وأمانتهم وطاعتهم لله - تعالى - .

---

(١) انظر : شيخ الاسلام ابن تيمية : العقيدة الواسطية ص ٨ ط ٧ ١٩٨٥ م دار المجتمع للنشر والتوزيع - جدة . وسيشار الى هذا المصدر حين وروده فيما بعد هكذا : ابن تيمية : العقيدة الواسطية .
وانظر : د. عمر سليمان الاشقر : عالم الملائكة الأبرار ص ٩ وما بعدها ط ٤ ١٩٨٥ م دار الفلاح الكويت ، وسيشار الى هذا المرجع حين وروده فيما بعد هكذا : عمر الاشقر : عالم الملائكة .
وانظر : نديم الملاح : العقائد الاسلامية . ص ٤٧ ط مطبعة دار الايتام الإسلامية الصناعية بالقدس ١٩٥٢. وسيشار الى هذا المرجع حين وروده فيما بعد هكذا : نديم الملاح : العقائد . .
وانظر:وهبي سليمان غوجي الالباني : اركان الايمان ص ١٢٠ ط ١٩٧٧ م مؤسسة الرسالة . وسيشار الى هذا المرجع حين وروده فيما بعد هكذا : وهبي غاوجي : اركان الايمان.
وانظر : عبدالرحمن بن حمد الجطيلي : الاجوبة المفيدة على أسئلة العقيدة ص ٧ ط مكتبة الحرمين . وسيشار الى هذا المرجع حين وروده فيما بعد هكذا : عبدالرحمن الجطيلي : الاجوبة المفيدة .
وانظر : محمد نعيم ياسين : الايمان : اركانه ،حقيقته نواقضه ص ٤٩ وما بعدها ، ط ٤ ١٩٨٥ مكتبة الرسالة - عمان . وسيشار الى هذا المرجع حين وروده فيما بعد هكذا : محمد نعيم ياسين : الايمان .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ومن صفاتهم أنهم لهم أجنحة ، قال تعالى (الحمد لله فاطر السموات والأرض جاعل الملائكة رسلاً أولي أجنحة مثنى وثُلاث ورُباع ، يزيد في الخلق ما يشاء ، إن الله على كل شيء قدير)فاطر : ١ .

ومن صفاتهم أنهم لا يوصفون بذكورة ولا أنوثة ، قال تعالى: (فاستفتهم ، ألربك البنات ولهم البنون ، أم خلقنا الملائكة إناثاً وهم شاهدون ، ألا إنهم من إفكهم ليقولون ،ولد الله وإنهم لكاذبون ، أصطفى البنات على البنين ، ما لكم كيف تحكمون ، أفلا تذكرون . أم لكم سلطان مبين) الصافات : ١٤٩- ١٥٦ .

وقرر علماء التوحيد أن من ينسب الملائكة إلى الأنوثة كفر ، لأنه كذب صريح القرآن ومن نسبهم إلى الذكورة فسق ، لأنه نسب إليهم ما لم يأت به عن الله تعالى ورسوله - صلى الله عليه وسلم - شيء .

وعلى هذا يقال : من اعتقد في صور البنات والنساء الجميلات على أطرافها أجنحة ، والتي تباع في الأسواق ، ويتبادل بها بعض المسلمين التهاني في الأفراح ، والعيدين ، أنها تشبه صور الملائكة كفر ، لظاهر نسبة الملائكة إلى الأنوثة ، ومن اعتقد في صوت المرأة أنه ملائكي ، أو في صورة الممرضة أنها صورة ملاك الرحمة كفر كذلك (١) .

ومن صفاتهم أنهم لا يأكلون ولا يشربون ، قال تعالى : (هل أتاك حديث ضيف إبراهيم المكرمين ، إذ دخلوا عليه فقالوا سلاماً قال سلام قوم منكرون ، فراغ إلى أهله فجاء بعجل سمين ، فقربه إليهم قال ألا تأكلون ، فأوجس منهم خيفة ، قالوا : لا تخف وبشروه بغلام عليم) الذاريات : ٢٤ - ٢٨ .

ومن صفاتهم أنهم يسبحون الله دوماً بلا ملل ولا تعب ، قال تعالى: (يسبحون الليل والنهار لا يفترون) الأنبياء : ٢٠ .

وهم عباد مكرمون ، قال تعالى : (وقالوا اتخذ الرحمن ولداً. سبحانه ، بل عباد مكرمون) الانبياء : ٢٦ .

ومن طاعتهم لله - تعالى - تنفيذ إرادته بتدبير أمور الكون ورعايته بكل ما فيه من مخلوقات (٢) . قال تعالى : (فالمقسمات أمراً) الذاريات : . وقال تعالى : (فالمدبرات أمرا)النازعات :٥ .

---

(١)وهبي غاوجي : اركان الايمان ص ١٢١ . وانظر عمر الاشقر : عالم الملائكة ص ١٣ - ١٤ .

(٢) انظر : محمد نعيم ياسين : الايمان ص ٥٣ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ووكل الله تعالى بكل عبد ملائكة حافظين - سوى الملائكة الكاتبين - فهم يحفظونه من المضار ، فيلازمونه على كل حال بخلاف الكتبة ، فإنهم يفارقونه عند ثلاث مواطن ، عند قضاء الحاجة ، وعند الجماع ، وعند الغسل ، ولا يمنع ذلك من كتب ما يصدر من العبد في هذه المواطن ، إذ يجعل الله تعالى أمارة على ما بدر منه قولاً كان أو فعلاً أو اعتقاداً ، وبخلاف ملائكة الرحمة ، فإنهم لا يدخلون البيت الذي فيه كلب أو جرس أو صورة (١) . قال تعالى : (وإن عليكم لحافظين) الانفطار : ١٠ .

وقال تعالى : (له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله) الرعد : ١١ .

والكاتبان : هما ملكان كل منهما رقيب وعتيد ، لا يتغيران ما دام حياً ، فإذا ما مات قاما على قبره يسبحان ويهللان ويكبران ويكتبان ثوابه إلى يوم القيامة إن كان مؤمناً ، ويلعنانه إن كان كافراً (٢) . قال تعالى : (كراماً كاتبين . يعلمون ما تفعلون) الانفطار : ١١ - ١٢ .

وقال تعالى : (أم يحسبون أنا لا نسمع سرهم ونجواهم ، بلى ورسلنا لديهم يكتبون) الزخرف : ٨٠ .

وهم يدعون للمؤمنين بأن يغفر الله - تعالى - لهم ذنوبهم ، ويقيهم السيئات والخطايا ويدخلهم الجنة مع أهليهم (٣) ، قال تعالى: (الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم ويؤمنون به ، ويستغفرون للذين آمنوا ، ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلماً فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك وقهم عذاب الجحيم . ربنا وأدخلهم جنات عدن التي وعدتهم ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم ، إنك أنت العزيز الحكيم . وقهم السيئات ومن تق السيئات يومئذٍ فقد رحمته ، وذلك هو الفوز العظيم) غافر : ٧ - ٩ .

ويشفعون للمؤمنين في الآخرة شفاعة مقبولة بإذن الله تعالى، قال تعالى : (وكم من ملك في السموات لا تغني شفاعتهم شيئاً إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى) النجم : ٢٦ .

ومن الملائكة جبريل ، وميكائيل ، وإسرافيل ، وملك الموت ،

---

(١) الشيخ ابراهيم الباجوري : شرح جوهرة التوحيد . ص ٣٤٥ . تقديم الاستاذ عبدالكريم الرفاعي . وسيشار الى هذا المرجع حين وروده فيما بعد هكذا : الباجوري : شرح الجوهرة .

(٢) المرجع نفسه ص ٣٤٦ .

(٣) انظر : وهبي غاوجي : أركان الايمان ص ١٢٢ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ورقيب ، وعتيد ، والملكان الموكلان بسؤال القبر ، ومالك ورضوان[١] .

قال تعالى : (من كان عدواً لله وملائكته ورسله وجبريل وميكال فإن الله عدو للكافرين) البقرة : ٩٨ .

وقال تعالى : (ونادوا يا مالك ليقض علينا ربك ، قال إنكم ماكثون) الزخرف : ٧٧ .

وقال تعالى : (قل يتوفاكم ملك الموت الذي وكل بكم ثم إلى ربكم ترجعون) السجدة : ١١ .

أثر الإيمان بالملائكة :

١- إن المؤمن الذي يرى إنعام الله عليه بخلق الملائكة الذين منهم الرسل والحفظة وغيرهم ، ليجد في قلبه دوافع تدفعه إلى الاستقامة على طاعة الله تعالى ، والمبادرة إلى طلب مرضاته على كل حال .

٢- وإنه ليجد في نفسه خجلاً وتمنعاً عن معصية الله تعالى لما يرى من حضور الملائكة معه وعلمهم بأعماله وكتابة ذلك في صحيفة يقرءوها يوم القيامة .

٣- وإنه ليقوى إيمانه بالله تعالى لما يبدو له من أشياء تدل على عظمة الله تعالى في خلق جبريل عليه السلام - وغيره من الملائكة .

٤- وإنه لينشط إلى العبادة والطاعة لما يرى أن الملائكة ذوي القوة والعظمة يسبحون الليل والنهار لا يفترون .

٥- وإنه ليحب الملائكة الكرام ، ويعرف فضلهم ، ويعتقد أنهم عباد الله المكرمون .

٦- وإن الله - سبحانه - بما أطلعنا من أمر هذه الأرواح المؤمنة وأفعالها جنبنا الوقوع في الخرافات والأوهام التي وقع فيها من لا يؤمنون بالغيب ، ولا يتلقون معارفهم عن الوحي الإلهي [٢] .

---

(١) ابن تيمية : العقيدة الواسطية ص ٩ .
(٢) انظر : وهبي غاوجي : أركان الايمان ص ١٢٨ - ١٢٩ .
وانظر : محمد نعيم ياسين : الايمان ص ٦٦ - ٦٧ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

(المبحث الثالث)

مبحث في البعث

اهتم القرآن الكريم بإثبات البعث اهتماماً كبيراً ، فقلما نجد سورة من سوره - باستثناء قصار المفصل - إلا تذكر البعث وتقرره ، وكثير من السور تقوم كلها على موضوع البعث ، فتفيض في بيانه والتذكير به ، وتنفي الشبهات الواردة بشأنه وبضرب الأمثال وتقريب الصورة إلى الأفهام ، ويعود اهتمام القرآن الكريم بهذه القضية التي يجعلها أصلاً من أصول العقيدة ، لأنها أصل عظيم من أصول الصلاح والإصلاح في العالم ، فإن البشر مهما اختلفت ميولهم وأعمالهم لا يخرجون عن صنفين :

صنف يعمل الخير .

وصنف يعمل الشر .

والصنف الذي يعمل الخير قسمان ، انطلاقاً من حديث (إنما الأعمال بالنيات) :

١- قسم يعمل الخير ويركن إلى الصلاح ، حباً في الخير والصلاح ، ويترك الشر والفساد كراهية في الشر والفساد ، يفعل ذلك كله بدافع الإيمان في نفسه ، لا يلتمس جزاء ولا شكوراً في الدنيا حين يفعل الخير ويركن إلى الصلاح ، ولا يخاف حساباً ولا عقاباً حين يترك الشر ويعزف عن الفساد .

٢- وقسم يعمل الخير ويترك الشر ناظراً إلى الجزاء في الدنيا ، مقدراً أن وراء الفعل والترك مصلحة له أو مضرة عليه ، فهو يقدر الأمر بمقدار ما يناله هو ، وينظر إلى العواقب التي تترتب على تصرفه من حيث ما يناله أو يصيبه .

هذان هما القسمان ، وكل يريد أن يكون متمتعاً بالخيرات والحسنات بعيداً عن الشرور والمصائب ، وأمثلهم هو الذي يرجو من وراء الاستقامة رضا الله - تعالى - دون نظر إلى نفع مادي دنيوي .

لهذا اقتضت حكمة الله - تبارك وتعالى - أن يجعل وراء هذه الدار داراً يرى فيها الناس جزاء أعمالهم ، إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر(١).

فكيف يسيغ العقل أن ينفض سوق هذه الحياة وقد نهب فيها من نهب ، وسرق فيها من سرق ، وقتل فيها من قتل ، وبغى فيها من بغى ، وتجبر فيها من تجبر ، ولم يأخذ أحد من هؤلاء عقابه ، بل تستر واختفى ،

---

(١) مجلة الأزهر ج ٢٢ ص ٥٨٨ - ٥٨٩ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فأفلت ونجا ، أو تمكن من إخضاع الناس له بسيف القهر والجبروت ؟

وفي الجانب الآخر : كم أحسن قوم وضحوا وجاهدوا ، ولم ينالوا جزاء ما قدموا ، إما لأنهم كانوا جنوداً مجهولين ، أو لأن الحسد والحقد جعل الناس يتنكرون لهم بدل أن يعرفوا فضلهم ، أو لأن الموت عاجلهم قبل أن ينعموا بثمرة ما عملوا من خير ، وكم من قوم دعوا إلى الحق واستمسكوا به ودافعوا عنه ، فوقف الظالمون في طريقهم ، وأوذوا وعذبوا واضطهدوا وشردوا ، وسقطوا صرعى في سبيله ، وأعداؤهم الطغاة في أمن وعافية ، بل في ترف ونعيم .

ألا يسيغ العقل - الذي يؤمن بعدالة الإله الواحد - بل يطلب أن توجد دار أخرى يجزى فيها المحسن بإحسانه ، والمسيء بإساءته (١) .

والأدلة العقلية التي جاءت في القرآن الكريم لإثبات البعث كثيرة جداً ، منها ، قوله تعالى : (وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما لاعبين . ما خلقناهما إلا بالحق ، ولكن أكثرهم لا يعلمون . إن يوم الفصل ميقاتهم أجمعين .) الدخان : ٣٨ - ٤٠ .

وقوله تعالى : (وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلاً ، ذلك ظن الذين كفروا ، فويل للذين كفروا من النار . أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الأرض ، أم نجعل المتقين كالفجار)ص :٢٧،٢٨.

وقوله تعالى : (أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا لا ترجعون . فتعالى الله الملك الحق ، لا إله إلا هو رب العرش الكريم .) المؤمنون : ١١٥ - ١١٦ .

فتبين هذه الآيات أن الذين ينكرون البعث ، إنما يريدون وصف هذه الحياة بالعبث ، ويرونها مهزلة لا حكمة لها ولا غاية من ورائها ، وذلك هو ظن الذين كفروا في كل زمان ومكان ، فهم يرون الحياة كما يريدون، ويصورونها كما يشتهون ، يريدونها غابة يأكل فيها القوي الضعيف ، ومرتعاً للفجور لا حساب بعده ، وكذبوا فيما زعموا فلابد من البعث ، كما أراد سبحانه لإقامة ميزان العدل ، ولتوفية كل إنسان جزاء ما كسب أو اكتسب ، فقال تعالى : (زعم الذين كفروا أن لن يبعثوا ، قل بلى وربي لتبعثن ثم لتنبؤن بما عملتم ، وذلك على الله يسير)التغابن : ٧ .

وقال تعالى : (وأقسموا بالله جهد أيمانهم لا يبعث الله من يموت، بلى وعداً عليه حقاً ولكن أكثر الناس لا يعلمون . ليبين لهم الذي يختلفون

---

(١) انظر : د . يوسف القرضاوي : الايمان والحياة ص ٤٣ ط ٨ ١٩٨٢ مؤسسة الرسالة ، وسيشار الى هذا المرجع حين وروده فيما بعد هكذا: القرضاوي: الايمان .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فيه ، وليعلم الذين كفروا أنهم كانوا كاذبين . إنما قولنا لشيء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون) النحل : ٣٨-٤٠ .

فهذه الآيات تحوي دليلاً عقليا على ضرورة البعث ، فهي تفند مزاعم الكفار الذين خدعوا أنفسهم بأنه لا حياة بعد الموت ، وانطلقوا على أهوائهم كما يشاؤون ، من هنا كان التأكيد على البعث (قل بلى وربي لتبعثن) (بلى وعداً عليه حقاً)[1] .

ثم إن البعث ليس بعزيز على قدرة الله - تعالى - الذي خلقهم أول مرة من العدم ، قال تعالى : (وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده ، وهو أهون عليه ، وله المثل الأعلى في السموات والأرض ، وهو العزيز الحكيم .) الروم : ٢٧ .

وقال ابن كثير عند تفسيره لقوله تعالى : (ونزلنا من السماء ماء مباركاً ، فأنبتنا به جنات وحب الحصيد . والنخل باسقات لها طلع نضيد . رزقاً للعباد ، وأحيينا به بلدة ميتاً ، كذلك الخروج .) ق : ٩ - ١١ .

قال : وهي الأرض التي كانت هامدة ، فلما نزل عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج ، من أزاهير وغير ذلك مما يحار الطرف في حسنها ، وذلك بعدما كانت لا نبات بها ، فأصبحت تهتز خضراء ، فهذا مثال للبعث بعد الموت والهلاك ، كذلك يحيي الله الموتى ، وهذا الشاهد من عظيم قدرته بالحس أعظم مما أنكره الجاحدون للبعث ، كقوله عز وجل : (لخلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون) غافر : ٥٧ . وقوله تعالى : (أولم يروا أن الله الذي خلق السموات والأرض ولم يعي بخلقهن بقادر على أن يحيي الموتى ، بلى إنه على كل شيء قدير .) الأحقاف : ٣٣ . وقال سبحانه : (ومن آياته أنك ترى الأرض خاشعة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت ، إن الذي أحياها لمحيي الموتى ، إنه على كل شيء قدير .) فصلت : ٣٩ [2] .

وقال عند تفسيره لقوله تعالى : (يوم تشقق الأرض عنهم سراعاً ذلك حشر علينا يسير .) ق : ٤٤ ، قال : وذلك أن الله عز وجل ينزل

---

(١) انظر:د . مصطفى عبدالواحد : الايمان في القرآن ص ١٦٣-١٦٤ ط ١ ١٩٨٦ م دار الصحوة للنشر . وسيشار الى هذا المرجع حين وروده فيما بعد هكذا: مصطفى عبدالواحد : الايمان .

(٢) ابن كثير : التفسير ج ٤ ص ٢٢٢ - ٢٢٣ ط المكتبة التجارية الكبرى بأول شارع محمد علي بمصر ١٩٣٧ م .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

مطراً من السماء ينبت به أجساد الخلائق كلها في قبورها كما ينبت الحب في الثرى بالماء ، فإذا تكاملت الأجساد ، أمر الله - تعالى - إسرافيل فينفخ في الصور ، وقد أودعت الأرواح في ثقب في الصور ، فإذا نفخ إسرافيل فيه خرجت الأرواح تتوهج بين السماء والأرض ، فيقول الله عز وجل : وعزتي وجلالي لترجعن كل روح إلى الجسد الذي كانت تعمره ، فترجع كل روح إلى جسدها فتدب فيه كما يدب السم في اللديغ ، وتنشق الأرض عنهم فيقومون إلى موقف الحساب سراعاً مبادرين إلى أمر الله عز وجل(١).

وأخرج مسلم في صحيحه عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : ما بين النفختين أربعون) قالوا : يا أبا هريرة ، أربعون يوماً ؟ قال : أبيت ، قالوا : أربعون شهراً، قال: أبيت ، قالوا: أربعون سنة؟ قال : أبيت ، (ثم ينزل الله تعالى من السماء ماء فينبتون كما ينبت البقل) قال : (وليس من الإنسان شيء إلا يبلى ، إلا عظماً واحداً ، وهو عجب الذنب ، ومنه يركب الخلق يوم القيامة)(٢) .

لقد بلغت جهالة المشركين وجدالهم في أمر البعث إلى حد أن جاء أحدهم يتحدى النبي - صلى الله عليه وسلم - في شأن البعث ، فقدم إليه قطعة من عظم بال وقال له : يا محمد ، أترى ربك يبعث هذا العظم بعدما رم وبلي ؟ . وكأن هذا الكافر - وهو أبي بن خلف - قد أراد أن يقرن إنكاره للبعث بدليل ملموس ، فهذا هو العظم يتفتت بين أصابعه فكيف يصدق أن الله سيبعثه بعد هذا البلى ؟ فسجل القرآن الكريم هذا الإنكار الجهول الذي يزعم صاحبه أنه يستند إلى وقائع الأشياء ، ورد عليه أبلغ رد (٣) وذلك قوله - سبحانه - (وضرب لنا مثلاً ونسي خلقه قال من يحيي العظام وهي رميم قل يحييها الذي أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم . الذي جعل لكم من الشجر الأخضر ناراً فإذا أنتم منه توقدون . أوليس الذي خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم ، بلى وهو الخلاق العليم ، إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له : كن فيكون فسبحان الذي بيده ملكوت كل شيء وإليه ترجعون) يس : ٧٨ - ٨٣ .

فلو تذكر خلقه الأول لكفاه ذلك عبرة ، ولأدرك أن هذه الخلقة الأولى دليل على إمكان البعث ، فليس له بعد هذه الأدلة إلا أن يسأل عن

---

(١) ابن كثير : التفسير ج ٤ ص ٢٣٠ - ٢٣١ .
(٢) مسلم : الصحيح ج ٣ ص ٢٢٧٠ - ٢٢٧١ - كتاب الفتن وأشراط الساعة حديث (١٤١) .
(٣) انظر : مصطفى عبدالواحد : الايمان ص ١٦٥ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

قدرة الله على البعث ، لأن هذا الخلق الأول يقيم الدليل على إمكان الخلق الآخر (١) .

ثم أشار سبحانه في الإجابة على هذا الجاحد إلى قدرته - سبحانه - بقوله : (قل يحييها الذي أنشأها أول مرة)، ثم أشار سبحانه بعد ذلك إلى علمه بكل شيء بقوله : (وهو بكل خلق عليم).

ثم أشار سبحانه إلى خلق النبات ، وما هو أكبر وأعظم ، وهو خلق السموات والأرض ، فأي شيء حقير وصغير هذا الإنسان إلى عظم السموات والأرض كما قال تعالى : (لخلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس) غافر : ٥٧ .

وكثر في القرآن الكريم ضرب الأمثلة على إمكان البعث ، وأنه يحدث ما يماثله في دنيا الناس المشاهدة لديهم كثيراً ، ومن ذلك أيضاً قوله تعالى في سورة الحج (يا أيها الناس إن كنتم في ريب من البعث فإنا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة لنبين لكم ، ونقر في الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمى ، ثم نخرجكم طفلاً ثم لتبلغوا أشدكم ، ومنكم من يتوفى ومنكم من يرد إلى أرذل العمر لكيلا يعلم من بعد علم شيئاً وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت ، وأنبتت من كل زوج بهيج . ذلك بأن الله هو الحق ، وأنه يحيي الموتى وأنه على كل شيء قدير ، وأن الساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من في القبور)) الحج ٥ - ٧ .

فهذه آيات متجددة يراها الناس في كل بيئاتهم وأزمانهم ، فما بال هؤلاء الجاحدين الذين يزعمون أن الحياة بعد الموت أمر مستحيل ، بينما يرون مثيلاً لها كل يوم ، لكن أبصارهم تغشاها ظلمات التكذيب بالحق ، فيصرون على كفرهم وعنادهم .

ولم يكن هذا شأن مشركي قريش فقط ، بل هو شأن كل كافر قبلهم وبعدهم ، قال تعالى : (أيعدكم أنكم إذا متم وكنتم تراباً وعظاماً أنكم مخرجون . هيهات هيهات لما توعدون . إن هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيى وما نحن بمبعوثين) المؤمنون ٣٥ - ٣٧ .

هذه حكاية أهل الكتاب للمشركين ، ولكن الله سبحانه وتعالى بالمرصاد وسيعاقبهم على كفرهم في اليوم الذي كانوا يكفرون بوقوعه ، قال تعالى : (ويقول الإنسان أإذا ما مت لسوف أخرج حياً . أولا يذكر الإنسان أنا خلقناه من قبل ولم يك شيئاً . فوربك لنحشرنهم والشياطين ثم لنحضرنهم حول جهنم جثياً .) مريم : ٦٦ - ٦٨ . فالله - سبحانه وتعالى - يحشرهم

---

(١) انظر : مصطفى عبدالواحد : الايمان ص ١٦٦ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

للحساب ومعهم الشياطين التي أضلتهم وسولت لهم هذا الجحود والإنكار، وها هم جميعاً حول جهنم ، يرون هولها ويسمعون زفيرها . والعياذ بالله ... نسأل الله العافية .

مما سبق نستخلص أن أسباب إنكار البعث أو الشك فيه يمكن حصرها فيما يلي :

١- كونه أمراً لا تدعو إليه الحاجة ، وليس وراءه مصلحة .

٢- مخالفته لما ألف من السنن ، حيث لم يعهد الأحياء أن ميتاً بعث من قبره .

٣- استبعاده واستعظام أمره ، حيث إن المألوف عند الأحياء أن يروا أجساد الأموات تتفرق وتتحلل .

٤- العناد والمكابرة والإصرار على التكذيب (١) .

وقد عرض القرآن الكريم هذه الشبه كلها أبلغ عرض ، ورد عليها أبلغ رد كما تبين ذلك من خلال المبحث بما لا يدع مجالاً للشك أو الريبة ، والحمد لله رب العالمين .

---

(١) انظر : مجلة الأزهر : ج ٢٢ ص ٥٨٩ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

(المبحث الرابع)

مبحث في العزة

قال ابن زكريا: العين والزاء أصل صحيح واحد يدل على شدة وقوة وما ضاهاهما من غلبة وقهر (١) .

والعز والعزة : الرفعة والامتناع ... وتعزز : تشرف ... وأعززته : أكرمته ... وعز علي : حق واشتد ... وعز يعَز : بالفتح إذا اشتد ... وعز يعُز بالضم : قهره وغلبه (٢) .

وفي المفردات : العزة : حالة مانعة للإنسان من أن يغلب ، من قولهم : أرض عزاز أي : صلبة (٣) .

نلاحظ مما سبق أن العزة تدل على القوة والشدة والغلبة والامتناع ، وتصريفات الأفعال من الكلمة تتلون معانيها بتلون حركاتها - وهذه خصيصة من خصائص اللغة العربية في كثير من الكلمات ، إذ تتبدل حركة حرف واحد في الكلمة فتفيد معنى ، ثم تتبدل فتفيد معنى ثانياً ، ثم تتبدل فتفيد معنى ثالثاً ... وهكذا .

يقال عز الرجل يعِز بكسر العين في المضارع ، أي صار عزيزاً قوياً بعد ذلة وهوان ، فهذا معنى من المعاني ، ويقال عز المنافس خصمه يعُزه بضم العين في المضارع ، أي غلبه وقهره ، وقال في القاموس : عزه يعُزه كمده يمُده ، غلبه في المعازّة (٤) .

ومنه قوله تعالى على لسان أحد الخصمين في سورة (ص) : (وعزني في الخطاب) ص : ٢٣ ، أي غلبني في الاحتجاج ، فذاك معنى ثان من المعاني ، ويقال : عز يعَز : بفتح العين في المضارع أي صعب وثقل واشتد ، مثل قولك لصاحبك : يعز علي أن أسمع عنك ما يؤلمني ، أي : يشتد ويصعب ، فذلك معنى ثالث من المعاني (٥) .

---

(١) ابن زكريا: معجم مقاييس اللغة جـ ٤ ص ٣٨ .

(٢) ابن منظور : لسان العرب - مادة عزز جـ ٥ ص ٣٧٤ .

(٣) الراغب : المفردات ص ٣٣٢-٣٣٣ . وانظر : الفيروزأبادي: البصائر جـ٤ ص ٦١ .

(٤) مجد الدين بن محمد بن يعقوب الفيروز ابادي : القاموس المحيط جـ ٢ ص ١٨٩ ط دار الجيل - بيروت . وسيشار الى هذا المصدر حين وروده فيما بعد هكذا : الفيروزأبادي : القاموس .

(٥) انظر : مجلة الازهر جـ ٢٥ ص ٢٢٦ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

والسمة الغالبة على حديث العزة في القرآن ، هي أن العزة لله وحده ، قال تعالى : (من كان يريد العزة فلله العزة جميعاً) فاطر : ١٠ . وهذه هي العزة الحقيقية الباقية وما عداها فعزة باطلة أو زائلة ، وتؤدي إلى سوء منقلب وشر مصير ، اللهم إلا إذا كانت العزة هبة من الله لعباده ، فإن الله يشملها بتأييده وعونه ، ولذلك تأتي نسبة العزة لغير الله تبعاً لنسبة العزة لله ، قال تعالى : (ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين) المنافقون : ٨ .

وقال الشهيد (سيد قطب) : إنها حقيقة أساسية من حقائق العقيدة الإسلامية ، وهي حقيقة كفيلة بتعديل القيم والموازين ، وتعديل الحكم والتقدير ، وتعديل النهج والسلوك وتعديل الوسائل والأسباب ، ويكفي أن تستقر هذه الحقيقة وحدها في أي قلب لتقف به أمام الدنيا كلها عزيزاً كريماً ثابتاً في وقفته غير مزعزع ، عارفاً طريقه إلى العزة ، طريقه الذي ليس هنالك سواه .

إنه لن ينحني رأسه لمخلوق متجبر ، ولا لعاصفة طاغية ، ولا لحدث جلل ، ولا لوضع ولا لحكم ، ولا لدولة ولا لمصلحة ، ولا لقوة من قوى الأرض جميعاً ، وعلام ؟ والعزة لله جميعاً ، وليس لأحد منها شيء إلا برضاه .

ومن هنا يذكر الكلم الطيب والعمل الصالح : (إليه يصعد الكلم الطيب ، والعمل الصالح يرفعه) ولهذا التعقيب المباشر بعد ذكر الحقيقة الفخمة مغزاه وإيحاؤه ، فهو إشارة إلى أسباب العزة ووسائلها لمن يطلبها عند الله ، القول الطيب ، والعمل الصالح . القول الطيب الذي يصعد إلى الله في علاه ، والعمل الصالح الذي يرفعه الله إليه ويكرمه بهذا الارتفاع ، ومن ثم يكرم صاحبه ويمنحه العزة والاستعلاء .

والعزة الصحيحة حقيقة تستقر في القلب قبل أن يكون لها مظهر في دنيا الناس ، حقيقة تستقر في القلب فيستعلي بها على كل أسباب الذلة والانحناء لغير الله ، حقيقة يستعلي بها على نفسه أول ما يستعلي ، يستعلي بها على شهواته المذلة ، ورغائبه القاهرة ، ومخاوفه ومطامعه من الناس وغير الناس ، ومتى استعلى على هذه فلن يملك أحد وسيلة لإذلاله وإخضاعه ، فإنما تذل الناس شهواتهم ورغباتهم ، ومخاوفهم ومطامعهم ، ومن استعلى عليها فقد استعلى على كل وضع ، وعلى كل شيء وعلى كل إنسان ، وهذه هي العزة الحقيقية ذات القوة والاستعلاء والسلطان .

إن العزة ليست عناداً جامحاً يستكبر على الحق ويتشامخ بالباطل ، وليست طغياناً فاجراً يضرب في عتو وتجبر وإصرار . وليست اندفاعاً باغياً

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

للشهوة ، وليست قوة عمياء تبطش بلا حق ولا عدل ولا صلاح ... كلا . إنما العزة استعلاء على شهوة النفس ،واستعلاء على القيد والذل ، واستعلاء على الخضوع الخانع لغير الله ، ثم هي خضوع لله وخشوع ، وخشية لله وتقوى ، ومراقبة لله في السراء والضراء ، ومن هذا الخضوع لله ترتفع الجباه ، ومن هذه الخشية لله تصمد لكل ما يأباه ومن هذه المراقبة لله لا تعنى إلا برضاه (١) .

وللأستاذ محمد قطب كلام بديع عند قوله تعالى (من كان يريد العزة فلله العزة جميعاً) في كتابه (دراسات قرآنية) لا أجد مناصاً من نقله بشيء من الاختصار ، قال : "إن الجاهلية تأبى الدخول في الإيمان حرصاً على العزة التي في أيديها ، والتي تظن أن الإيمان سيضيعها عليها بصورة من الصور .

فأما السادة أو الملأ - كما يسميهم القرآن - ، ففي أيديهم بالفعل سلطة وسيادة مغتصبة من صاحبها الحقيقي ، وهو الله - سبحانه وتعالى - سلطة يتحكمون بها في رقاب الناس ، أي في رقاب (العبيد) الذين يستعبدونهم لأنفسهم ولأهوائهم ، ولو كان ذلك تحت شعار (الحرية والإخاء والمساواة) كما تصنع الرأسمالية منذ القرن الماضي ، فتستعبد ملايين البشر لأهوائها ومصالحها ، وهي ترفع ذلك الشعار الخداع ... أو تحت شعار (الديمقراطية الحقيقية) كما تصنع الشيوعية منذ أوائل هذا القرن ، فتستعبد ملايين من البشر للدولة والنظام وللزعيم ، وهي ترفع شعار الديمقراطية ... أو تحت أي شعار مما تفنن الملأ دائماً في رفعه ليستعبدوا به العبيد .

هؤلاء السادة يرفضون الدخول في الإيمان حرصاً على هذه العزة التي في أيديهم والتي يحسون أنهم سيفقدونها حين يرضخون لعبادة الله الواحد، الذي تتساوى في العبودية له جميع النفوس وجميع الرؤوس .

ولاشك أنهم بالفعل سيفقدون ذلك السلطان المغتصب الذي يتحكمون به في رقاب الناس بالباطل ... ولكن نفوسهم الملتوية وفطرتهم المنكوسة لا تستطيع أن تدرك جملة الحقائق الإيمانية التي يدركها - بالفطرة والنفس المستقيمة - كل من دخل في دين الله .

أول هذه الحقائق وأعظمها ، أن العزة لله جميعاً .

هو سبحانه وحده العزيز بحق ، المالك للعزة بحق ، وأما هذه السلطة المغتصبة التي يعتز بها الملأ في الجاهلية وتصدهم عن الإيمان بالله ، فهي

---

(١)سيد قطب : في ظلال القرآن . جـ٥ ص ٢٩٣٠ - ٢٩٣١ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

سلطة زائفة ، فضلاً عن أن الله هو الذي أمدهم بها إملاء واستدراجاً (ليحملوا أوزارهم كاملة يوم القيامة) النحل : ٢٥ ، وهي سلطة موبقة لأنها تؤدي بهم إلى جهنم وبئس المهاد(١) .

ثم قال : أما الحقيقة الثانية المستمدة من الحقيقة الأولى ،فهي: " أن العزة لله ولرسوله وللمؤمنين ، وتلك حقيقة أخفى على الفطر المنكوسة والنفوس الملتوية من الحقيقة الأولى ، ذلك أنهم يرون المؤمنين - في أول عهد الدعوة - لا حول لهم ولا قوة ، مشردين في الأرض ، معذبين بأيدي الملأ أنفسهم ، لا سلطان لهم في الأرض ، ولا وزن لهم في مجرى الأمور ، فيغشي ذلك بصيرتهم عن حقيقتين كبيرتين : أن المؤمنين - حتى في عذابهم ذلك وانعدام السلطة في أيديهم - أعز بما لا يقاس من جبابرة الأرض المتمكنين في الأرض بالباطل ، لأنهم يعتزون بالله ، وبالإيمان بالله ، فيرخص في نفوسهم كل متاع الأرض الزائل ، الذي يستعبد الجبابرة فيذلون له ، ويبيعون آخرتهم من أجله ، ويستعلي في قلوبهم الإيمان، فيجسون في قرارة أنفسهم أنهم أكبر من كل ذلك الباطل المستعلي بجبروته ، وأنهم أعظم في واقع الأمر من معذبيهم ، لأنهم يملكون الحق، وأولئك يملكون الباطل ، ولأن معذبيهم لا يملكون منهم إلا أجسادهم الفانية ، أما أرواحهم فهي طليقة معتزة .. معتزة بالإيمان بالله .

وأما الحقيقة الثانية التي يغفل عنها الملأ فهي : أن ميزان السلطة لا يظل إلى الأبد في أيديهم ، وأن هذه الفترة التي يستعلون فيها بالباطل ، ويذيقون المؤمنين العذاب ، هي فترة يقدرها الله لحكمة عنده ، وليست ناشئة من سلطة ذاتية في يد الملأ غير قابلة للزوال ، إنما هي فترة يتمحص فيها المؤمنون بالابتلاء ، ليتم تجردهم لله ، وليُعِدّوا لحمل الأمانة الضخمة ، وهي إقامة الحق والعدل بين الناس في الأرض ، وعندئذ ينتقل ميزان السلطة بقدر الله الغالب ، من أيدي الجبابرة المتحكمين بالباطل ، إلى أيدي المؤمنين الذين أعدهم الله على عينه - في فترة الابتلاء - لتسلم السلطة من أولئك المتجبرين ،وعندئذ تتحقق العزة واقعاً ملموساً للمؤمنين ، بعد أن تحققت من قبل مشاعر مستعلية بالإيمان .

تلك قضية العزة بالنسبة للملأ في كل جاهلية ، أما العبيد ، فقد كان المظنون أن يسارعوا إلى الإيمان ، لأنه هو الذي يخلصهم من ذل العبودية للعبيد ، حين ينقلهم إلى عزة العبودية الحقة لله ، ومع ذلك

---

(١)محمد قطب : دراسات قرآنية ص ٢٢٢ - ٢٢٣ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فإنهم هم كذلك قلما يستجيبون في مبدأ الأمر ، إنهم عبيد جاهلية ، وليس معنى كونهم مستضعفين ومستذلين ومظلومين أنهم على الحق ، كما تحاول أن تقول لهم الدعوات الخادعة لتستميلهم إلى جانبها ، ريثما تستعبدهم من جديد لحسابها . إنهم عبيد جاهلية ، يستهويهم السلطان الجاهلي فيرتضون العبودية له ، وينخدعون بظاهر السلطة الموقوتة فيحسبون أنها دائمة ، ويرفضون الخروج عليها خوفاً منها : (وقالوا إن نتبع الهدى معك نتخطف من أرضنا) القصص : ٥٧ ، فيعلمون أنه الهدى ، ومع ذلك يأبون الدخول فيه خوفاً من سلطان الأرض الزائف ، ولا يصدقون أن العزة لله جميعاً ، وأن العزة لله ولرسوله وللمؤمنين ، وينسون أن الملأ لم يصيروا أصحاب سيادة وتجبر ، إلا لأنهم هم - العبيد - قد ارتضوا أن يكونوا عبيداً لهم ، ورفضوا أن يكونوا عبيداً لله أعزة بالإيمان .

من أجل ذلك يقول السياق القرآني لهم جميعاً ، سادة وعبيداً ، (من كان يريد العزة فلله العزة جميعاً) فلا ترجى العزة الحقيقية إلا بالالتجاء إليه ، سبحانه ، ولا يتذوقها إلا الذين يؤمنون بالله حق الإيمان ، فيستعلون بالإيمان على أولئك العبيد ، الذين يسمون أنفسهم سادة ذوي سلطان ، أو سادة ذوي جبروت "(١) .

نسأل الله أن يجعلنا أعزة بالإيمان ، وأن يجعلنا ممن قال فيهم : (فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه ، أذلة على المؤمنين ، أعزة على الكافرين يجاهدون في سبيل الله ، ولا يخافون لومة لائم ، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ، والله واسع عليم) المائدة : ٥٤ .

---

(١) محمد قطب : دراسات قرآنية ص ٢٢٣ - ٢٢٥ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

المتشابه والمشكل في السورة

وردت في السورة مجموعة من الآيات تتشابه لفظياً مع آيات أخرى من سور أخرى من حيث السياق ، غير أنها تتغاير في بعض النظم من حيث التقديم والتأخير ، أو الزيادة والنقصان .

كما وردت في السورة مجموعة من الآيات التي أشكل معناها على كثير من الناس .

وسأتناول في هذا المبحث هذين النوعين من الآيات في السورة ذاكراً ما قاله العلماء فيها .

أولاً : المتشابه :

قوله تعالى : (والله الذي أرسل الرياح) فاطر : ٩ ، بلفظ الماضي في قوله (أرسل) ، وجاء في سورة الفرقان كذلك بلفظ الماضي في قوله تعالى : (هو الذي أرسل الرياح بُشراً بين يدي رحمته)الفرقان:٤٨، وجاء في سورة الأعراف والروم بلفظ المستقبل ، ففي الأعراف قوله تعالى: (وهو الذي يرسل الرياح) الأعراف : ٥٧ ، وفي الروم قوله تعالى: (الله الذي يرسل الرياح فتثير سحاباً) الروم : ٤٨ .

ففي سورة الأعراف جاء قبلها ذكر الخوف والطمع ، وهو قوله تعالى: (وادعوه خوفاً وطمعاً)الأعراف : ٥٦ وهما يكونان في المستقبل لا غير، فكان (يرسل) بلفظ المستقبل أشبه بما قبله .

وأما في سورة الروم فجاء قبلها قوله تعالى : (ومن آياته أن يرسل الرياح مبشرات وليذيقكم من رحمته ولتجري الفلك بأمره) الروم : ٤٦ ، فجاء بلفظ المستقبل موافقاً لما قبله .

وأما في سورةالفرقان ، فإن قبلها : (كيف مد الظل) الفرقان: ٤٥، وقوله : (وهو الذي جعل لكم) الفرقان : ٤٧، وبعدها : (وهو الذي مرج البحرين) الفرقان : ٥٣ و : (وهو الذي خلق من الماء بشراً) الفرقان: ٥٤ فكان الماضي ألبق بها .

وأما في هذه السورة فهو مبني على أولها : (الحمد لله فاطر السموات والأرض ، جاعل الملائكة رسلاً أولي أجنحة) فاطر : ١ ، وهما بمعنى الماضي لا غير ، فبنى على ذلك فقال : (أرسل) بلفظ الماضي ،ليكون

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الكل على مقتضى اللفظ الذي خص به (١) .

قوله تعالى : (وترى الفلك فيه مواخر) فاطر : ١٢ بتقديم (فيه) على (مواخر) وجاء في سورة النحل : (وترى الفلك مواخر فيه لتبتغوا) النحل : ١٤ بتأخير فيه .

ما في سورة النحل جاء على القياس ، فإن الفلك المفعول الأول لـ(ترى) ، ومواخر المفعول الثاني ،و (فيه) ظرف ، وحقه التأخر ، والواو في (ولتبتغوا) للعطف على لام العلة في قوله : (لتأكلوا منه)النحل:١٤.

أما في هذه السورة فقدم (فيه) موافقة لما قبله ، وهو قوله : (ومن كل تأكلون لحماً طرياً) فاطر : ١٢ ، فوافق تقديم الجار والمجرور على الفعل والفاعل ، ولم يزد الواو على (لتبتغوا) ، لأن اللام في (لتبتغوا) هنا لام العلة ، وليست بعطف على شيء قبله .

ثم إن قوله : (فيه مواخر) في هذه السورة ، و(مواخر فيه) في النحل ، اعتراض في السورتين يجري مجرى المثل ، ولهذا وحد الخطاب فيه وهو قوله (وترى) وقبله وبعده جمع وهو قوله (تأكلون ـ تستخرجون) وفي النحل (لتأكلوا ـ وتستخرجوا ـ ولتبتغوا) ومثله في القرآن كثير (٢) .

قوله تعالى : (جاءوا بالبينات وبالزبر وبالكتاب المنير)فاطر : ٢٥، بزيادة الباءات . وفي سورة آل عمران : (جاءوا بالبينات والزبر والكتاب المنير) آل عمران : ١٨٤ بباء واحدة ، لأنه في سورة آل عمران وقع في كلام مبني على الاختصار ، وهو إقامة لفظ الماضي في الشرط مقام لفظ المستقبل ، ولفظ الماضي أخف ، وبني الفعل للمجهول ، فلا يحتاج إلى ذكر الفاعل ، وهو قوله (فإن كذبوك فقد كُذِّب رسل من قبلك) آل عمران: ١٨٤ ، لذلك حذفت الباءات ليوافق الأول في الاختصار بخلاف ما في هذه السورة فإن الشرط فيه بلفظ المستقبل ، والفاعل مذكور مع الفعل ، وهو قوله : (وإن يكذبوك فقد كذب الذين من قبلهم) فاطر : ٢٥ ، ثم ذكر بعدها الباءات ليكون كله على نسق واحد (٣) .

---

(١) انظر : محمود الكرماني : أسرار التكرار في القرآن ص ٧٢ و ص ١٦٤ ط ١ ، وسيشار الى هذا المصدر حين وروده فيما بعد هكذا: الكرماني : أسرار التكرار .

(٢) انظر : المرجع نفسه ص ١١٠ وص ١٦٤ .

(٣) انظر : المرجع نفسه ص ٤٧ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

قوله تعالى : (مختلفاً ألوانها) وبعده (ألوانها) فاطر:٢٧، ثم(ألوانه) فاطر : ٢٨ ، لأن الأول يعود إلى (ثمرات) من قوله تعالى (فأخرجنا به ثمرات مختلفاً ألوانها) فاطر : ٢٧ ،والثاني يعود إلى (الجبال) من قوله تعالى : (ومن الجبال جُدَد بيض وحمر مختلف ألوانها) فاطر : ٢٧ ، وقيل : يعود إلى (حمر) ، والثالث يعود إلى بعض الدال عليه (من) في قوله تعالى : (ومن الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه) فاطر : ٢٨ ، لأنه ذكر (من) ولم يفسره كما فسره في قوله (ومن الجبال جدد بيض وحمر) فاختص الثالث بالتذكير [١] .

قوله تعالى : (إن الله بعباده لخبير بصير) فاطر : ٣١ ، بالتصريح باسم الله وبزيادة اللام ، وفي سورة الشورى : (إنه بعباده خبير بصير) الشورى : ٢٧ ، لأن الآية في هذه السورة لم يكن فيها ذكر الله ، فصرح باسمه سبحانه ، أما في الشورى فهو متصل بقوله تعالى: (ولو بسط الله الرزق) الشورى : ٢٧ ، فخص بالكناية .

ودخول اللام في الخبر موافقة لقوله: (إن ربنا لغفور شكور) فاطر : ٣٤ ، ولم تدخل اللام في الخبر في سورة الشورى موافقة لقوله (إن الله غفور شكور) الشورى : ٢٣ [٢] .

قوله تعالى : (هو الذي جعلكم خلائف في الأرض ، فمن كفر فعليه كفره) فاطر : ٣٩ ، وقال في سورة الأنعام : (وهو الذي جعلكم خلائف الأرض) الأنعام ١٦٥ ، فأضاف خلائف إلى (الأرض) بغير واسطة (في) وهناك نكرها وأضافها بـ (في) .

السائل أن يسأل عن التعريف أولاً ، والتنكير ثانياً ، وعما خص كل مكان بما اختص به .

والجواب : أن الذي في سورة الأنعام أجري مجرى المعرفة ، لأنه بعد ذكر متكرر ، وخطاب مترد مبتدأ من مبتدأ قوله : (قل تعالوا

---

(١) انظر : الكرماني : اسرار التكرار ص ١٦٤ . وانظر : الفيروزابادي: البصائر ج ١ ص ٣٨٧ .

(٢) انظر : الكرماني : اسرار التكرار ص ١٦٤ - ١٦٥ .
وانظر : الفيروزابادي : البصائر ج ١ ص ٣٨٨ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أتل ما حرم ربكم عليكم) الأنعام : ١٥١ ، فلما خوطبوا بألفاظ المعارف اتبع ما في هذه الآية من ذكرهم في موضع النكرة وهو المفعول الثاني من (جعلكم) ذكر المعرفة فكسى لفظها فصار التقدير ، وهو الذي جعل كل واحد منكم الخليفة في الأرض التي ورثها عمن تقدمه ، فمنكم الأعلى، ومنكم الأوسط ، ومنكم الأسفل .

وليس الأمر كذلك في هذه السورة ، لأن ما تقدم هذه الآية منها ذكر أهل النار من مبتدأ قوله : (والذين كفروا لهم نار جهنم لا يقضى عليهم فيموتوا ، ولا يخفف عنهم من عذابها) فاطر : ٣٦ ، إلى قوله : (فذوقوا فما للظالمين من نصير . إن الله عالم غيب السموات والأرض ، إنه عليم بذات الصدور) فاطر : ٣٧ - ٣٨ .

ثم قال : (هو الذي جعلكم خلائف في الارض) فاطر : ٣٩ ، فأخرج لفظ خلائف مخرج النكرة ، كأنه قال : جعلكم خلفاً لمن تقدم غير معلوم إلا عند الله ما يكون من أمركم ، فأنتم مجهولون عند أشباهكم وأمثالكم فمن كفر منكم فضرر كفره راجع عليه ، فكان التنكير أولى بهذا المكان، لأنه لم يتقدمه من الأسماء المضمرة التي للخطاب المعرفة بحكم الإضمار ما تقدم في سورة الأنعام ثم نزلهم منزلة قوم مجهولين يتوقع ما يكون من أمرهم عن إيمانهم أو كفرهم ، فلم يجعلوا في حكم الخطاب الأول في قوم بأعيانهم للانقسام الواقع عليهم (١) .

قوله تعالى : فلن تجد لسنة الله تبديلاً ، ولن تجد لسنة الله تحويلاً) فاطر : ٤٣ ، كرر في هذه السورة ، وقال في سورة الفتح: (ولن تجد لسنة الله تبديلاً) الفتح : ٢٣ ، وقال في سورة الإسراء: (ولا تجد لسنتنا تحويلاً) الاسراء : ٧٧ .

والتبديل : تغيير الشيء عما كان عليه ، قيل : مع بقاء مادة الأصل ، كقوله تعالى : (بدلناهم جلوداً غيرها) النساء ٥٦ ، وكذلك: (يوم تبدل الأرض غير الأرض) إبراهيم : ٤٨ .

---

(١) انظر : الخطيب الاسكافي : درة التنزيل وغرة التأويل في بيان الآيات المتشابهات في كتاب الله العزيز ص ٣٨٨ - ٣٨٩ . ط ١ دار الآفاق الجديدة ١٩٧٣ م ، وسيشار الى هذا المرجع حين وروده فيما بعد هكذا: الاسكافي : درة التنزيل .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

والتحويل : نقل الشيء من مكان إلى مكان آخر .

وسنة الله لا تتبدل ولا تتحول ، فخص هذا الموضع بالجمع بين الوصفين لما وصف الكفار بوصفين ، وذكر لهم غرضين ، وهو قوله : (ولا يزيد الكافرين كفرهم عند ربهم إلا مقتاً ، ولا يزيد الكافرين كفرهم إلا خساراً) فاطر : ٣٩ ، وقوله تعالى : (استكباراً في الأرض ومكر السيء) فاطر : ٤٣ .

وقيل : هما بدلان من (نفوراً) فاطر : ٤٢ ، فكما ثنى[1] الأول والثاني ثنى الثالث ، ليكون الكلام كله على غرار واحد .

وقال في سورة الفتح : (ولن تجد لسنة الله تبديلاً) الفتح : ٢٣ ، فاقتصر على مرة واحدة لما لم يكن للتكرار موجب .

وخص سورة الإسراء بقوله (تحويلاً) ، لأن قريشاً قالوا لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - : لو كنت نبياً لذهبت إلى الشام ، فإنها أرض المبعث والمحشر ، فهم النبي - صلى الله عليه وسلم - بالذهاب إليها ، فهيأ أسباب الرحيل والتحويل ، فنزل جبريل عليه السلام بهذه الآيات : (وإن كادوا ليستفزونك من الأرض ليخرجوك منها) الإسراء : ٧٦-٧٧ ، وختم الآيات بقوله : (تحويلاً) تطبيقاً للمعنى[2] .

قوله تعالى : (أولم يسيروا في الأرض) فاطر : ٤٤ بالواو ، وكذلك في سورة الروم : ٩ وفي سورة غافر : ٢١ بالواو .

وفي سورة يوسف : (أفلم يسيروا في الأرض) يوسف : ١٠٩ بالفاء لأن الفاء تدل على الاتصال والعطف ، والواو تدل على العطف المجرد ، ففي سورة يوسف قد اتصلت بالأول لقوله : (وما أرسلنا من قبلك إلا رجالاً نوحي إليهم من أهل القرى ، أفلم يسيروا في الأرض فينظروا) يوسف : ١٠٩ ، حال من كذبهم وما نزل بهم من العذاب ، وليس كذلك في هذه السورة والروم وغافر ، لأن ما قبلها في سورة فاطر : (ولن تجد لسنة الله تحويلاً) فاطر : ٤٣ ، وبعدها : (وما كان الله ليعجزه من شيء) فاطر : ٤٤ فوافق ما قبله .

---

(١) المراد : ذكر اثنين من الصفات : (نذيراً ، نفوراً) - (استكباراً ، مكر السيء) - تبديلاً ، تحويلاً) .

(٢) انظر : الكرماني : أسرار التكرار ص ١٦٥-١٦٦ ، وانظر : الفيروز ابادي : البصائر ج ١ ص ٣٨٨ - ٣٨٩ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وأما ما جاء في آخر سورة غافر : (أفلم يسيروا في الأرض) غافر : ٨٢ ، فوافق ما قبله وما بعده ، وكان بالفاء ، وهو قوله : (فأي آيات الله تنكرون) غافر : ٨١ ، وبعده (فما أغنى عنهم) غافر : ٨٢ (١) .

قوله تعالى : (ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابة) فاطر : ٤٥ ، وفي سورة النحل : (ولو يؤاخذ الله الناس بظلمهم ما ترك عليها من دابة) النحل : ٦١ .

فالهاء في سورة النحل كناية عن الأرض ، ولم يتقدم ذكرها ، والعرب تجوز ذلك في كلمات ، منها : الأرض ، تقول : فلان أفضل من عليها ، ومنها السماء ، تقول : فلان أكرم من تحتها ، ومنها الغداة ، تقول : إنها اليوم لباردة ، ومنها الأصابع ، تقول : والذي شقهن خمساً من واحدة يعني الأصابع من اليد ، وإنما جوزوا ذلك لحصولها بين يدي كل متكلم وسامع .

ولما كان كناية عن غير مذكور لم يزد معه الظهر لئلا يلتبس بالدابة ، لأن الظهر أكثر ما يستعمل في الدابة ، قال عليه الصلاة والسلام : (إن المنبت لا أرضاً قطع ، ولا ظهراً أبقى) (٢) .

وأما في هذه السورة ، فقد تقدم ذكر الأرض في قوله : (أولم يسيروا في الأرض) فاطر : ٤٤ وبعدها (ولا في الأرض) فاطر : ٤٤ ، فكان كناية عن مذكور سابق ، فذكر الظهر حيث لا يلتبس (٣) .

---

(١) انظر : الكرماني : اسرار التكرار ص ١٠٢ .

(٢) اخرجه البزار والحاكم في علومه والبيهقي وأبو نعيم والقضاعي عن جابر مرفوعا . انظر : الحافظ محمد بن عبدالرحمن السخاوي : المقاصد الحسنة ص ٣٩١ ط مكتبة الخانجي بمصر - وسيشار الى هذا المصدر حين وروده فيما بعد هكذا . السخاوي : المقاصد الحسنة .

(٣) انظر : الكرماني : اسرار التكرار ص ١١٢ - ١١٣ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ثانيـــاً : المشكـــــل :

قوله تعالى : (والله الذي أرسل الرياح فتثير سحاباً فسقنـــــاه إلى بلد ميت) فاطر : ٩ .

قال ابن قتيبة : هذا من باب مخالفة ظاهر اللفظ معناه ، والمراد: أي فنسوقـــه (١) .

قوله تعالى : (من كان يريد العزة فلله العزة جميعاً) فاطر: ١٠ .

قال ابن قتيبة : فيه اختصار ، والمعنى : أي يعلم أن العـــــزة لمن هـــي (٢) .

قوله تعالى : (وما يعمر من معمر ولا ينقص من عمره إلا فـــــي كتاب) فاطر : ١١ .

الضمير في قوله (عمره) يظهر رجوعه إلى المعمر ، فشكل معنـــى الآية ،لأن المعمر والمنقوص من عمره ضدان ، فيظهر تنافي الضميـــــر ومفسره .

والجواب : أن المراد بالعمر هنا جنس المعمر الذي هو مطلـــــق الشخص ، فيصدق بالذي لم ينقص من عمره ، وبالذي نقص من عمره ، فصـــار المعنى : لا يزاد في عمر شخص ولا ينقص من عمر شخص إلا في كتاب (٣) .

قوله تعالى : (إن الله يسمع من يشاء ، وما أنت بمسمع من فـــي القبـــور إن أنت إلا نذير) فاطر : ٢٢ ، ٢٣ .

قال القاضي عبدالجبار : لا ظاهر له يصح تعلقهم في أن الكافر الذي لا يقبل ممنوع من سماع ذلك ، بل ظاهره يوجب أنهم موتى في القبور،وذلك ما لا يقوله أحد ، وإنما المراد به المبالغة في ذمهم لإعراضهم عـــــن النظر والاستدلال والقبـــــول (٤) .

---

(١) انظر : ابن قتيبة : تأويل مشكل القرآن ص ٢٩٦ ط المكتبة العلميـــة وسيشار الى هذا المصدر حين وروده فيما بعد هكذا : ابن قتيبـــــة : تأويل المشكل .غ

(٢) انظر : المرجع نفسه ص ٢٢٣ .

(٣) انظر : محمد الامين الشنقيطي : دفع ايهام الاضطراب عن آيات الكتاب: ص ٢٤٦ ط مطبعة المدني ، وسيشار الى هذا المرجع حين وروده فيما بعد هكذا : الشنقيطي : دفع الايهام .

(٤) انظر : القاضي عبدالجبار : متشابه القرآن ج ٢ ص ٥٧٢ ط دار التراث ، وسيشار الى هذا المصدر حين وروده فيما بعد هكذا : عبدالجبـــار: المتشابـــــه .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

قوله تعالى : (إنما يخشى الله من عباده العلماء) فاطر : ٢٨ .

قال القاضي عبدالجبار : وربما قيل فيها : كيف يصح ، ومن ليس بعالم قد يخشى عقاب الله ؟ والجواب : أن المراد الخشية الصحيحة فإنها لا تقع إلا من عالم بالله تعالى على حقه ، ومن عالم بثوابه وعقابه ، ومن عالم بما تؤدي هذه الخشية من العبادات ، وبما معه يثبت ما يخشاه ، فهذا معنى الكلام .

ثم إنه تعالى رغب في طاعته نهاية الترغيب بأفصح قول ، فقال تعالى : (إن الذين يتلون كتاب الله وأقاموا الصلاة وأنفقوا مما رزقناهم سراً وعلانية يرجون تجارة لن تبور ، ليوفيهم أجورهم ويزيدهم من فضله ، إنه غفور شكور) فاطر : ٢٩ - ٣٠ [1] .

---

(١) انظر : القاضي عبدالجبار : تنزيه القران عن المطاعن ص ٣٤٣ ط دار النهضة ، وسيشار الى هذا المصدر حين وروده فيما بعد هكذا : عبدالجبار : تنزيه القرآن .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

(الفصـــــل الرابـــــع)

الصـراع بيـن الحـق والبـاطـل فـي السـورة

أولاً : معنـى الحـق :

لغـة : الحاء والقاف : أصل واحد يدل على إحكام الشيء وصحته (١).

وفي اصطلاح أهل المعاني : هو الحكم المطابق للواقع ، يطلق على الأقوال والعقائد والأديان والمذاهب باعتبار اشتمالها على ذلك (٢) .

وقيل : الحق ، هو الثابت الذي لا يجوز إنكاره (٣) .

ثانيـاً : البـاطـل :

لغة : الباء والطاء واللام أصل واحد ، وهو ذهاب الشيء وقلة مكثه ولبثه (٤) .

وهو نقيض الحق ، والجمع أباطيل ، وأبطل فلان : جاء بكذب (٥) .

وفي المعنى الشرعي : ما لا يكون مشروعاً لا بأصله ولا بوصفه ...

وقيل : هو ما أشعر بمناقضة الصحة ، ومخالفة الشرع (٦) .

---

(١) ابن زكريا : معجم مقاييس اللغة ج ٢ ص ١٥ .

(٢) علي بن محمد الشريف الجرجاني : كتاب التعريفات ص ٩٤ ط ١٩٨٥ م مكتبة لبنان - بيروت - وسيشار الى هذا المصدر حين وروده فيما بعد ،هكذا الجرجاني : التعريفات .

(٣) محمد رواس قلعجي ، وحامد صادق قنيبي : معجم لغة الفقهاء ، عربي انجليزي ، ص ١٨٢ ط ١ ١٩٨٥ دار النفائس - بيروت ، وسيشار قلعجي : معجم لغة الفقهاء

(٤) ابن زكريا : معجم مقاييس اللغة ج ١ ص ٢٥٨ .

(٥) ابن منظور : لسان العرب ج ١١ص ٥٦ .

(٦) سعيد ابو حبيب : القاموس الفقهي لغة واصطلاحا ص ٣٨ ط ١ ١٩٨٢ ،دار الفكر - دمشق . وسيشار الى هذا المرجع حين وروده فيما بعد هكذا : سعيد ابو حبيب : القاموس الفقهي .

وانظر : قلعجي : معجم لغة الفقهاء ص ١٠٣ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الصراع بين الحق والباطل قديم قدم البشرية ، وباق إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ، لأنه سنة من سنن الله - تعالى - في هذا الكون، وسنن الله ثابتة لا تتبدل ولا تتحول على مر التاريخ ،والنصر الثابت حليف الحق دائماً ، بل هو نتيجة طبيعية له ، فإذا فقد الحق ، صار النصر حليف القوة المادية ، لأن قوة الله وجنده لا يتدخلون إلا في الحق ولنصرة الحق، فسنة الله كذلك .

وسنة الله هذه - التي لا تتبدل ولا تتحول - هي علاقة قائمة بين النصر وبين مجموعة من الشروط والقضايا والمواصفات ، وضحت من خلال الآيات المتفرقة ، وجمعت على وجه الإجمال في قوله تعالى : (وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءهم نذير ليكونن أهدى من إحدى الأمم ، فلما جاءهم نذير ما زادهم إلا نفوراً . استكباراً في الأرض ومكر السيء ولا يحيق المكر السيء إلا بأهله ، فهل ينظرون إلا سنت الأولين ، فلن تجد لسنة الله تبديلاً ، ولن تجد لسنة الله تحويلاً .) فاطر : ٤٢،٤٣[1] .

والغرض من ذكر سنة الأولين وقصصهم ، التنبيه على سنة الله - تعالى - في عباده ، نظراً إلى أنها نماذج من تصاريف الله وحكمته في مجازاة عباده ، وقال تعالى : (أولم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم ، وكانوا أشد منهم قوة ، وما كان الله ليعجزه من شيء في السموات ولا في الأرض ، إنه كان عليماً قديراً)فاطر : ٤٤.

فليقيسوا أحوالهم وأعمالهم على أحوال وأعمال من سبقهم من الكافرين ، وليعلموا أن سنة الله لها صفة الثبات ، وأن عقاب الله سينزل بهم كما نزل بالذين من قبلهم إذا استمروا على ما هم عليه من كفرهم ومقاومتهم للحق ، أصروا على ذلك وعاندوا الحق بالباطل ، وكان عنادهم ناشئاً عن موقف سلبي ، يتجلى في أنهم لم يفتحوا عقولهم للدعوة الجديدة ، وتلك طبيعة الجاهلية في كل مكان وزمان ، تعتز بالمكاسب المادية أحياناً ، الطبقية أحياناً ، الناتجة عن الزعامة القبلية التي يخافون أن تخرج من أيديهم لو كان الدين في غير قبيلتهم ، ناشئاً عن الجمود الفكري في كثير من الأحيان .

---

(١) انظر : محمد باقر الصدر : المدرسة القرآنية ص ٦٤ ط ٢ ١٩٨١م . دار المعارف للمطبوعات - بيروت . وسيشار الى هذا المرجع حين وروده فيما بعد ، هكذا : محمد باقر الصدر : المدرسة القرآنية .

(٢) انظر : عبدالرحمن الميداني : الأمثال القرآنية ص ١٤.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وإذا ألقينا نظرة على أسباب هذا العناد المطلق ، نجد منابعها من كل ذلك : عناد من أجل العناد - فقط - ، النفس المقفلة لا تتفتح على أية دعوة جديدة (١) .

قال تعالى : (ولو نزلنا عليك كتاباً في قرطاس فلمسوه بأيديهم لقال الذين كفروا إن هذا إلا سحر مبين) الأنعام : ٧ .

وقال تعالى : (ولو فتحنا عليهم باباً من السماء فظلوا فيه يعرجون . لقالوا إنما سكرت أبصارنا بل نحن قوم مسحورون) الحجر: ١٤-١٥ .

وقال تعالى : (استكباراً في الأرض ومكر السيء ، ولا يحيق المكر السيء إلا بأهله فهل ينظرون إلا سنت الأولين ، فلن تجد لسنة الله تبديلاً ولن تجد لسنة الله تحويلاً) فاطر : ٤٣ .

وهذه الآيات تشخص حالة العناد السخيف ، والمكابرة العمياء التي لا يجدي معها حجة ولا برهان ، فتبرز نموذجاً إنسانياً في هذه الكلمات(٢).

ولم يكن هذا العناد هو جماع موقف الكافرين من الدعوة ، ولكنه ارتقى إلى درجة الجدل المنطقي أحياناً ، أو الجدل العقيم الفارغ من الحجة أحياناً أخرى ، وفي الوقت الذي يبرهن هذا الجدل على وجود نماذج بشرية تحاول أن تفكر - ولو تحت تأثير أفكار مسبقة - في الدعوة الدينية ، في هذا الوقت يتخذها القرآن مناسبة ليجادلهم بالحجة والبرهان ، وليؤكد تفاهة المنطق الذي يعتمدون عليه ، وليفضح محاولتهم بأنها غير فكرية ولا سليمة ، فالجدل مع الكافرين كان إذن مناسبة لتوضيح العقيدة وشرح الفكرة ، والرد على الشبهات والأضاليل .

ويمكن أن يعتبر هذا الجدال من أقوى وسائل الإثبات التي استعملها القرآن للغزو النفسي ضد الكافرين - مشركين وأهل كتاب - ، ولم يستعمل القرآن هذه المحاجة مع المشركين وأهل الكتاب في زمن النبي - صلى الله عليه وسلم - فحسب ، بل إنه اتخذ من قصص الأنبياء مناسبة ليفضح كل الحجج التي تقدم بها خصوم الدعوة آنذاك ، وذلك لكسب المعركة مع خصوم الدعوة في عهد محمد - صلى الله عليه وسلم - ، لأن النموذج المعاند واحد .

---

(١) انظر: عبدالكريم غلاب : صراع المذهب والعقيدة في القرآن ، ص ٣٥٢، ط ١ سنة ١٩٧٣م ، دار الكتاب اللبناني - بيروت ، وسيشار الى هذا المرجع حين وروده فيما بعد هكذا : عبدالكريم غلاب : صراع المذهب .

(٢) انظر : سيد قطب : التصوير الفني في القرآن ص٤٣ ط ٣ دار المعارف - بمصر وسيشار الى هذا المرجع حين وروده فيما بعد هكذا: سيد قطب : التصوير الفني .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ولطبيعة الجدل في الإنسان ، وواقع الجدل الذي اتبعه الكافرون من المشركين وأهل الكتاب ، والمعارضين للدعوة ، ناقش القرآن الكريم اعتراضاتهم عن طريق الجدل والمناقشة ، وإعطاء الحجة والرد على شبهاتهم وحججهم ، سواء فيما يتصل بإثبات وحدانية الله - تعالى - ، أو فيما يعبدونه من دون الله ، أو ما ينكرونه على الدين ، أو في تحديهم للإسلام والمسلمين، وللأنبياء السابقين ، أو في جدالهم يوم القيامة حينما تواجههم الحقيقة ، فيبدأون في التملص من المسئولية أملاً أن ينفعهم ذلك في التخلص من عقاب الآخرة (١) .

وقال سيد قطب : والتصوير هو الأداة المفضلة في أسلوب القرآن ، فهو يعبر بالصورة المحسة المتخيلة عن المعنى الذهني، والحالة النفسية ، وعن الحادث المحسوس ، والمشهد المنظور، وعن النموذج الإنساني والطبيعة البشرية ، ثم يرتقي بالصورة التي يرسمها فيمنحها الحياة الشاخصة ، أو الحركة المتجددة فإذا المعنى الذهني هيئة أو حركة ، وإذا الحالة النفسية لوحة أو مشهد ، وإذا النموذج الإنساني شاخص حي ، وإذا الطبيعة البشرية مجسمة مرئية ، فأما الحوادث والمشاهد ، والقصص والمناظر ، فيردها شاخصة حاضرة ، فيها الحياة ، وفيها الحركة ، فإذا أضاف إليها الحوار فقد استوت لها كل عناصر التخييل ، فما يكاد يبدأ العرض حتى يحيل المستمعين نظارة ، وحتى ينقلهم نقلاً إلى مسرح الحوادث الأول ، الذي وقعت فيه أو ستقع ، حيث تتوالى المناظر ، وتتجدد الحركات ، وينسى المستمع أن هذا كلام يتلى ، ومثل يضرب ، ويتخيل أنه منظر يعرض، وحادث يقع (٢) .

---

(١) انظر : عبدالكريم غلاب : صراع المذهب ص ٣٥٦ وما بعدها .

(٢) سيد قطب : التصوير الفني ص ٣٤ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وقال أيضاً : هناك غرض من أغراض القرآن يبدو بطبيعته بعيداً عن الأسلوب التصويري ، لأنه منطق وجدل ودعوة إلى الدين ، كان يتبادر إلى الفهم أن يكون الأسلوب الذهني هو الذي يتبع فيه ، فاستخدام الأسلوب التصويري - حتى في هذا الغرض - له دلالته الخاصة على أن التصوير هو الأداة المفضلة في أسلوب القرآن(١) .

ولقد كان في مقدمة ما يهتم به القرآن في هذا الجدل المنطقي مع الكافرين عموماً ، هو مناقشتهم تشككهم في إثبات وحدانية الله - تعالى - ولو لم يأتوا بحجة على إنكارهم لهذه الحقيقة ، وأكبر حجة كان يستخدمها القرآن هي ما يضعه بين أيديهم من نماذج الخلق والإبداع ، وتسيير الكون ورعاية المخلوقات والعناية بهم ، وقد تحدثت بإسهاب وتفصيل حول هذا الموضوع ، في الفصل الثاني من هذه الرسالة (أدلة الوحدانية) والذي هو محور هذه السورة(٢) .

وسأعرض بعض الأمثلة من الجدل التصويري في السورة ، حتى تتضح الأفكار الواردة في هذا الفصل ، ثم أتبعها الحديث عن نقض إلهية ما يعبدون من دون الله ، ثم إثبات البعث ، ثم عرض لمشاهد القيامة الواردة في السورة ، وبذلك يكون البحث قد احتوى جوانب الموضوع - إن شاء الله تعالى - .

أولاً : مشهد من مشاهد الطبيعة الصامتة ، يلفت النظر إليه دليلاً على قدرة الله الواحد - سبحانه - (الحمد لله فاطر السموات والأرض جاعل الملائكة رسلاً أولي أجنحة مثنى وثلاث ورباع ، يزيد في الخلق ما يشاء ، إن الله على كل شيء قدير) فاطر : ١ .

هذه لوحة طبيعية منسقة معروضة في كل حين ، السموات والأرض ، ولكنك تقرأ هذه الآية فتلتفت إليها كأنما تعرض أول مرة في هذا الوجود وتلك طريقة القرآن في كل ما يوجه إليه النظر من مشاهد الطبيعة ومشاهد الحياة في جميع المناسبات (٣) .

---

(١) سيد قطب : التصوير الفني ص ٥٨ .

(٢) يراجع في هذا الموضوع : عبدالكريم غلاب : صراع المذهب ص ٣٥٩ .

(٣) انظر : سيد قطب : المرجع السابق ص ٥٨ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ثانياً: صورة أخرى من مشاهد الطبيعة الصامتة كذلك : (ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات مختلفاً ألوانها ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود . ومن الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه كذلك ، إنما يخشى اللهَ من عباده العلماءُ، إن الله عزيز غفور) فاطر : ٢٧، ٢٨ .

فهذا المشهد قديم مكرور ، تمر عليه العيون في غفلة والنفوس ، ولكنه يعرض هنا كأنه جديد وإنه لكفيل حين تتملاه العين أن يوقع في النفس تأثراً وجدانياً خاصاً ، فهذا الماء ينزل من السماء ، وهذه الثمرات تخرج به من الأرض ، طعومها مختلفة وألوانها مختلفة ، وكذلك الجبال والناس والدواب والأنعام ... وأيا ما كانت هذه الملاحظات فمردها الأول إلى المشاهدة ، مشاهدة هذه اللوحة الطبيعية التي يوجه إليها الأنظار ،لتراها بالبداهة الملهمة ، والحس البصير ، بعد أن تتملاها الأبصار(١) .

ثالثاً : نقض إلهية ما يعبدون من دون الله : (والله خلقكم من تراب ثم من نطفة ثم جعلكم أزواجاً ، وما تحمل من أنثى ولا تضع إلا بعلمه ، وما يعمر من معمر ولا ينقص من عمره إلا في كتاب ، إن ذلك على الله يسير . وما يستوي البحران هذا عذب فرات سائغ شرابه وهذا ملح أُجاج ، ومن كل تأكلون لحماً طرياً وتستخرجون حلية تلبسونها ، وترى الفلك فيه مواخر لتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون . يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل ، وسخر الشمس والقمر كل يجري لأجل مسمى ذلكم الله ربكم له الملك ، والذين تدعون من دونه ما يملكون من قطمير. إن تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم ، ولو سمعوا ما استجابوا لكم ، ويوم القيامة يكفرون بشرككم ، ولا ينبئك مثل خبير) فاطر : ١١ - ١٤ .

في ظل تلك المشاهد المتنوعة ، العميقة الدلالة ، القوية السلطان، يعقب بتقرير حقيقة الربوبية ، وبطلان كل ادعاء بالشرك ، وخسران عاقبته يوم القيامة .

---

(١) انظر : سيد قطب : التصوير الفني ص ٥٩ . ويراجع الظلال : ج ٥ ص ٢٩٤٢ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ذلكم الذي خلقكم من تراب ، والذي جعلكم أزواجاً ، والذي يعلم ما تحمل كل أنثى وما تضع ، والذي يعلم ما يعمر وما ينقص من عمره ، والذي خلق البحرين ، والذي يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل، وسخر الشمس والقمر ، كل يجري لأجل مسمى ذلكم هو (الله ربكم) (له الملك) (والذين تدعون من دونه ما يملكون من قطمير) ...

ثم يمعن في الكشف عن حقيقة أمرهم : (إن تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم) فهم أصنام ، أو أوثان ، أو أشجار ، أو نجوم ، أو كواكب أو ملائكة ، أو جن ، وكلهم لا يملكون بالفعل قطميراً ، وكلهم لا يسمعون لعبادهم الضالين سواء كانوا لا يسمعون أصلاً ، أو لا يسمعون لكلام البشر .

(ولو سمعوا ما استجابوا لكم) كالجن والملائكة ، فالجن لا يملكون الاستجابة ، والملائكة لا يستجيبون للضالين .

هذه في الحياة الدنيا ، فأما يوم القيامة فيبرأون من الضلال والضالين : (ويوم القيامة يكفرون بشرككم).

فهذه المشاهد في تلك العوالم ، يعود القلب البشري منها بزاد يكفيه حياته كلها لو ينتفع بالزاد ، وإنه لحسب القلب البشري مقطع واحد من سورة واحدة لو كان الذي يريد هو الهدى ، ولو كان الذي يطلب هو البرهان (١) .

رابعاً : ثم ماذا يصنع أولئك الآلهة الآخرون ؟ هذه هي الأرض ، وتلك هي السماء ، فما آثارهم هنا أو هناك ؟(٢)

(قل أرأيتم شركاءكم الذين تدعون من دون الله ، أروني ماذا خلقوا من الأرض ، أم لهم شرك في السموات ، أم آتيناهم كتاباً فهم على بينة منه ، بل إن يعد الظالمون بعضهم بعضاً إلا غروراً)فاطر:٤٠ .

فالحجة واضحة والدليل بين ، فهذه الأرض بكل ما فيها ومن فيها ، هذه هي مشهودة منظورة ، أي جزء فيها أو أي شيء يمكن أن يدعي مدع أن أحداً - غير الله - خلقه وأنشأه ! إن كل شيء يصرخ في وجه هذه الدعوى لو جرؤ عليها مدع ، وكل شيء يهتف بأن الذي أبدعه هو الله ، وهو

---

(١)راجع : سيد قطب : الظلال ج ٥ ص ٢٩٣٥ - ٢٩٣٦ .

(٢)راجع : سيد قطب : التصوير الفني ص ١٨٨ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

يحمل آثار الصنعة التي لا يدعيها مدع ، لأنه لا تشبهها صنعة ، مما يعمل العاجزون أبناء الفنا ء .

(أم لهم شرك في السموات) ولا هذه من باب أولى ، فما يجرؤ أحد على أن يزعم لهذه الآلهة المدعاة مشاركة في خلق السموات ، ولا مشاركة في ملكية السموات ، كائنة ما كانت(١) .

وهكذا تشترك مشاهد الأرض والسما ء ، مع ما يقع لهم من الأحداث كل يوم ، مع الأحاسيس الفطرية التي تلجيء الإنسان إلى القوة الكبرى عند الشدة تشترك في مخاطبة الحس والخيال ، ولمس البصيرة والوجدان لتركيز عقيدة التوحيد في النفوس (٢) .

فهي صورة أخرى من صور الجدل المنطقي يستخدم فيها القرآن المناقشة المنطقية مع المشركين في هذا الذي يشركونه مع الله ، فيقيم بهذا الجدال الحجة عليهم في أن هذا الذي يشركونه مع الله ليس له خاصية من خاصيات الألوهية في الخلق والإبداع أو الملك والتصرف(٣) .

خامساً : أثبت القرآن ما كان من جدل الأولين في البعث ورد عليه بالمنطق الذي يثبته النظر الحر والبصيرة المميزة والتأمل الواعي ، دون أن يحتاج الإنسان فيه إلى ظروف خاصة أو وسيلة من وسائل المعرفة الكسبية ، إن أتيحت لعدد من الناس في بيئة معينة أو عصر خاص ، فليست بحيث تتاح لكل إنسان على اختلاف المستويات الحضارية والعلمية .

وأقرب ما يلفتنا إليه القرآن ، ما نراه في الواقع المشهود من حياة الأرض بعد موتها ، وما نبصره بأعيننا من خروج الحي من الميت ، توطئة للإقناع بأن الحياة بعد الموت ليست من المستحيل العقلي أو المستحيل العادي (٤) .

---

(١) انظر : سيد قطب : الظلال ج ٥ ص ٢٩٤٧- ٢٩٤٨ .

(٢) انظر : سيد قطب : التصوير الفني ص ١٨٩ .

(٣) راجع : عبدالكريم غلاب : صراع المذهب ص ٣٦٢ .

(٤) د . عائشة عبدالرحمن (بنت الشاطيء) : القرآن وقضايا الانسان ص ١٦١ بتصرف بسيط ، ط ١ ١٩٧٢ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

قال تعالى : (والله الذي أرسل الرياح فتثير سحاباً فسقناه إلى بلد ميت فأحيينا به الأرض بعد موتها ، كذلك النشور) فاطر : ٩ .

هكذا ، لوحة بعد لوحة ، إرسال الرياح ، إثارة السحاب ، سوق السحاب إلى بلد ميت ، إحياء الأرض بعد موتها ، لينتقل من هذه المشاهد المتتابعة بعد استعراضها للعين والخيال ، وبعد تركها تؤثر في النفس على مهل ، إلى (كذلك النشور) فيجيء هذا التقرير في أنسب الأوقات للتقرير (١) ، فلا سبيل إلى المكابرة فيه ، لأنه يهز القلوب حقاً حين تتملاه وهي يقظى ويلمس المشاعر لمساً موحياً حين تتجه إلى تأمله ، وهو مشهد بهيج جميل مثير ، وبخاصة في الصحراء ، حيث يمر عليها الإنسان اليوم وهي محل جدب جرداء ، ثم يمر عليها غداً وهي ممرعة خضراء من آثار الماء .

والقرآن يتخذ موحياته من مألوف البشر المتاح لهم مما يمرون عليه غافلين ، وهو معجز معجب حين تتملاه البصائر والعيون ... وهم مع وقوع هذه الخارقة في كل لحظة يستبعدون النشور في الآخرة ، وهو يقع بين أيديهم في الدنيا ، (كذلك النشور) في بساطة ويسر ، وبلا تعقيد ولا جدل بعيد (٢) .

وهكذا يعرض عليهم في كل مرة مشاهد مألوفة : محسوسة أو معروفة ، تطالع حواسهم في كل لحظة ، وتواجه بديهتهم في كل نظرة ، وتتصل بحياتهم ومعاشهم ، وتلمس شعورهم ووجدانهم ، وتسلك طريقها هينة إلى نفوسهم ، وهو يوجههم إلى هذه المشاهد ، يعرضها عليهم كأنها مشاهد جديدة ، وإن مشاهد الطبيعة لجديدة أبداً عند من ينظر إليها بحس مرهف وعين مفتوحة ، دون أن يثير ذلك الجدل الذهني ، الذي قد يعتمد على المهارة أكثر مما يعتمد على الحقيقة (٣) .

سادساً : وفي الأرض مشاهد أخرى لعل من أشدها أثراً في الحس والنفس ، تلك الرسوم الدوارس ، والربوع الخوالي ، وما تخيله للحس من صور الحياة الغابرة ، ومن أشباح الأحياء الداثرة ، فهي مشاهد للعين

---

(١) انظر : سيد قطب : التصوير الفني ص ٥٩ .
(٢) انظر : سيد قطب : الظلال ج ٥ ص ٢٩٢٩ .
(٣) انظر : سيد قطب : التصوير الفني ص ١٩٠-١٩١ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

في الظاهر ، وللنفس في الضمير ، والقرآن يوجه إليها النظر ثم يرد الخيال إلى الحياة الغابرة فيها ، الداثرة منها (١) .

(أولم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم ، وكانوا أشد منهم قوة ، وما كان الله ليعجزه من شيء في السموات ولا في الأرض ، إنه كان عليماً قديراً) فاطر : ٤٤ .

والسير في الأرض بعين مفتوحة وقلب يقظ ، والوقوف على مصارع الغابرين ، وتأمل ما كانوا فيه وما صاروا إليه ، كل أولئك خليق بأن تستقر في القلب ظلال وإيحاءات ومشاعر وتقوى .

ومن ثم هذه التوجيهات المكررة في القرآن للسير في الأرض والوقوف على مصارع الغابرين ، وآثار الذاهبين ، وإيقاظ القلوب من الغفلة التي تسدر فيها ، فلا تقف ، وإذا وقفت لا تحس ، وإذا أحست لا تعتبر ، وينشأ عن هذه الغفلة غفلة أخرى عن سنن الله الثابتة ، وقصور عن إدراك الأحداث وربطها بقوانينها الكلية ، وهي الميزة التي تميز الإنسان المدرك من الحيوان البهيم ، الذي يعيش حياته منفصلة اللحظات والحالات لا رابط لها ، ولا قاعدة تحكمها ، والجنس البشري كله وحدة أمام وحدة السنن والنواميس .

وأمام هذه الوقفة التي يقفهم إياها على مصارع الغابرين قبلهم ، وكانوا أشد منهم قوة - فلم تعصمهم قوتهم من المصير المحتوم ، أمام هذه الوقفة يوجه حسهم إلى قوة الله الكبرى ، القوة التي لا يغلبها شيء ولا يعجزها شيء ، والتي أخذت الغابرين ، وهي قادرة على أخذهم كالأولين : (و ما كان الله ليعجزه من شيء في السموات ولا في الأرض)... ويعقب على هذه الحقيقة بما يفسرها ويعرض أسانيدها : (إنه كان عليماً قديراً) يحيط علمه بكل شيء في السموات والأرض ، وتقوم قدرته إلى جانب علمه ، فلا يند عن علمه شيء ، ولا يقف لقدرته شيء ، ومن ثم لا يعجزه شيء في السموات ولا في الأرض ، ولا مهرب من قدرته ، ولا استخفاء من علمه : (إنه كان عليماً قديراً) (٢) .

---

(١) انظر : سيد قطب : التصوير الفني ص ٦١ .

(٢) سيد قطب : الظلال ج ٥ ص ٢٩٥٠ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

سابعاً : وفي السورة مشهدان من مشاهد القيامة متقابلان - على عادة القرآن - مشهد المنعمين في الجنة ، ومشهد المعذبين في النار ، وهما في تقابلهما يطبعان أثرين مختلفين في النفس ، ولكنهما يلتقيان منها في مكان واحد ، وينحازان بها إلى موقف فرد .

قال تعالى : (جنات عدن يدخلونها ، يحلون فيها من أساور من ذهب ولؤلؤاً ، ولباسهم فيها حرير . وقالوا الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن ، إن ربنا لغفور شكور . الذي أحلنا دار المُقامة من فضله ، لا يمسنا فيها نصب ولا يمسنا فيها لغوب) فاطر : ٣٣ - ٣٥ .

الأولون في الجنة ، وقد تكشف المشهد عن نعيم مادي ملموس ، ونعيم نفسي محسوس ، فهم (يحلون فيها من أساور من ذهب ولؤلؤاً ، ولباسهم فيها حرير) وذلك بعض المتاع المادي الذي يلبي رغبة الترف في كثير من النفوس ، وبجانبه ذلك الرضى وذلك الأمن ، وذلك الاطمئنان . : (الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن) ، والدنيا بما فيها من قلق على المصير ، ومعاناة للأمور تعد حزناً بالقياس إلى هذا النعيم المقيم ، والقلق يوم الحشر على المصير مصدر حزن كبير (إن ربنا لغفور شكور) غفر لنا وشكر لنا أعمالنا بما جازانا عليها ، (الذي أحلنا دار المقامة) للإقامة والاستقرار (من فضله) فما لنا عليه من حق ، إنما هو الفضل يعطيه من يشاء (لا يمسنا فيها نصب ولا يمسنا فيها لغوب) بل يجتمع لنا فيها النعيم والراحة والاطمئنان ... فالجو كله يسر وراحة ونعيم(١).

وقال تعالى : (والذين كفروا لهم نار جهنم ، لا يقضى عليهم فيموتوا ، ولا يخفف عنهم من عذابها ، كذلك نجزي كل كفور . وهم يصطرخون فيها ، ربنا أخرجنا نعمل صالحاً غير الذي كنا نعمل ، أولم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر وجاءكم النذير ، فذوقوا فما للظالمين من نصير) فاطر : ٣٦ - ٣٧ .

هذا ما نراه في الجانب الآخر ، نرى القلق والاضطراب وعدم الاستقرار على حال (والذين كفروا لهم نار جهنم ، لا يقضى عليهم

---

(١)سيد قطب : مشاهد القيامة في القرآن ص ١٠٠ ط دار الشروق ، وسيشار الى هذا المرجع حين وروده فيما بعد هكذا: سيد قطب : مشاهد القيامة .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فيموتوا ، ولا يخفف عنهم من عذابها) فلا هذه ولا تلك ، حتى الراحة بالموت لا تنال (كذلك نجزي كل كفور) .

ثم ها نحن أولاء يطرق أسماعنا صوت غليظ محشرج مختلط الأصداء، متناوح من شتى الأرجاء ، إنه صوت المنبوذين في جهنم (وهم يصطرخون فيها) وجرس اللفظ نفسه يلقي في الحس هذه المعاني جميعاً ، فلنتبين من ذلك الصوت الغليظ المختلط ماذا يقول : (ربنا أخرجنا نعمل صالحاً غير الذي كنا نعمل) إنه الإنابة والاعتراف والندم إذن ، ولكن بعد فوات الأوان ، فها نحن أولاء نسمع الرد الحاسم يحمل التأنيب القاسي : (أولم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر) فلم تنتفعوا بهذه الفسحة من العمر، وهي كافية للتذكر (وجاءكم النذير) زيادة في التنبيه والتحذير ، فلم تتذكروا ولم تحذروا ، (فذوقوا فما للظالمين من نصير) .

إنهما لصورتان متقابلتان : صورة الأمن والراحة ، تقابلها صورة القلق والاضطراب ، ونعمة الشكر والدعاء ، تقابلها ضجة الاصطراخ والنداء، ومظهر العناية والتكريم ، يقابله مظهر الإهمال والتأنيب ، والجرس الليّن والإيقاع الرتيب يقابلهما الجرس الغليظ والإيقاع العنيف ، فيتم التقابل، ويتم التناسق في الجزئيات وفي الكليات سواء(١) .

وهذا المشهد - الثاني - يعتبر مثالاً على الجدال مع الكافرين والمشركين في يوم القيامة ، بعد أن تنكشف لهم الحقيقة ، ويرون نتيجة إنكارهم وجحودهم ، والقرآن يسترجع هذا الواقع المنتظر ليواجه حججهم الفاشلة من جهة ، وليضعهم أمام الحقيقة وكأنها واقعة ، وليكون ذلك درساً للذين يغترون بهذه الحجج ، وينساقون وراء الحملة التي كان يقوم بها الكافرون والمشركون ، فلم يترك القرآن حجة من حججهم إلا واجهها ، ولم يترك موقفاً من مواقفهم في إنكار الساعة وإنكار التبشير بها والإنذار إلا واجهه بالمنطق والحجة والبرهان (٢) .

---

(١) سيد قطب : مشاهد القيامة من ١٠٠ - ١٠١ .

(٢) انظر : عبدالكريم غلاب : صراع المذهب ص ٣٦٤ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ولقد عرضت السورة لبعض الصفات التي يتحلى بها أهل الحق (المؤمنون) ولبعض الصفات التي يوصم بها أهل الباطل (الكافرون) ، وسأذكر هذه الصفات مكتفياً بذكر الآيات الدالة عليها ، وفي بعض الأحيان أذكر بعض الأحاديث النبوية الشريفة ، أو بعض كلام العلماء حول بعض هذه الصفات ، لأنني تحدثت في أكثر الموضوع في فصل (التفسير التحليلي للسورة) ، حتى لا يكون في رسالتي هذه شيء من التكرار - إن شاء الله تعالى - .

أولاً : صفات أهل الحق (المؤمنين) :

١- الإخلاص والصدق :

(ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها ، وما يمسك فلا مرسل له من بعده وهو العزيز الحكيم) فاطر : ٢ .

هذه الآية تدعو إلى الانقطاع إلى الله - تعالى - وإخلاص العبودية له - سبحانه - .

والإخلاص : إفراد الله في الطاعة بالقصد ، وهو أن يريد بطاعته التقرب إلى الله - تعالى - دون شيء آخر من التصنع لمخلوق ، أو اكتساب محمدة عند الناس ، أو منحة مدح من الخلق ، أو معنى من المعاني سوى التقرب إلى الله - تعالى - (١) .

والصادق يدور مع الحق كيف كان ، فإذا رأى الفضل الشرعي من أمر عمل به ، وإن خالف ما كانت عليه عادته ، وإذا عرض أهم منه في الشرع ولا يمكن الجمع بينهما انتقل إلى الأفضل ، ولا يزال هكذا ، وربما كان في اليوم الواحد على مائة حال ، أو ألف وأكثر ، على حسب تمكنه في المعارف وظهور الدقائق واللطائف (٢) .

٢- ذكر النعمة وشكرها :

(يا أيها الناس اذكروا نعمة الله عليكم .. الآية) فاطر : ٣ .

---

(١) الامام : ابو زكريا يحيى بن شرف النووي : بستان العارفين ص ٧٣ ط ٣ ١٤٠٥ مطبعة زيد بن ثابت - دمشق - تحقيق : محمد الحجار ، وسيشار الى هذا المرجع حين وروده فيما بعد هكذا : النووي : بستان العارفين .

(٢) المرجع نفسه ص ٧٧ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وقوله تعالى : (لتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون) فاطر : ١٢ .

فهاتان الآيتان تدعوان إلى شكر نعمة الله - سبحانه - وفضله ، بالإيمان به وطاعته بامتثال أوامره واجتناب نواهيه .

٣- عداوة الشيطان ، وعدم الاغترار بالدنيا :

(يا أيها الناس إن وعد الله حق ، فلا تغرنكم الحياة الدنيا ، ولا يغرنكم بالله الغرور . إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدواً ، إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير .) فاطر : ٥ ، ٦ .

وعد الله - تعالى - بالبعث حق ثابت ، ولابد أن يجازى كل فرد بما عمل ، فيجب علينا أن نتصف بالزهد بما في هذه الدنيا ، ويجب أن نكون أعداء للذي يزينها لنا ، لأنه كاذب ، إنه الشيطان ، إنه مخلد في النار ،ويريدنا أن نكون معه ، فالمؤمنون لا يطيعونه في شيء ، بل يطيعون الله الذي له الملك والأمر ، ولا يفتنون بمغريات الدنيا .

وعن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال : سمعت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول : ألا إن الدنيا ملعونة ، وملعون ما فيها ، إلا ذكر الله وما والاه ، وعالم أو متعلم)[1] .

٤- التعزز بالله :

(من كان يريد العزة فلله العزة جميعاً ... الآية) فاطر : ١٠ .
وقد أفردت أحد المباحث في الفصل الثاني لموضوع العزة .

٥- خشية الله :

(إنما تنذر الذين يخشون ربهم بالغيب) فاطر : ١٨ .
(إنما يخشى الله من عباده العلماء) فاطر : ٢٨ .

فخشية الله تعالى بالغيب مقياس الإخلاص والصلاح ، وهي الرقيب على الإنسان في نفسه .

وعن أبي هريرة - رضي الله عنه - عن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال : (سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله ، الامام العادل ،وشاب نشأ في عبادة ربه ، ورجل قلبه معلق في المساجد ، ورجلان تحابا في الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه ، ورجل طلبته ذات منصب وجمال ،

---

(١)رواه الترمذي : السنن ج ٤ ص ٥٦١ كتاب الزهد باب ١٤ ح ٢٣٢٢ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فقال : إني أخاف الله ، ورجل تصدق أخفى حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه ، ورجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه)[١] .

٦- إقام الصلاة :

(إنما تنذر الذين يخشون ربهم بالغيب ، وأقاموا الصلاة) فاطر : ١٨ . (إن الذين يتلون كتاب الله وأقاموا الصلاة)فاطر : ٢٩ .

وعن ابن عمر - رضي الله عنهما - قال : (قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بُني الإسلام على خمس ، شهادة أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ، وإقام الصلاة ،وإيتاء الزكاة ، وحج البيت ، وصوم رمضان)[٢] .

فالصلاة هي الركن الذي يلي الشهادتين في الإسلام ، لأنها أهم الأعمال الدالة على الإيمان وأعظمها أجراً .

٧- تلاوة القرآن :

(إن الذين يتلون كتاب الله ، وأقاموا الصلاة ، وأنفقوا مما رزقناهم سراً وعلانية ، يرجون تجارة لن تبور) فاطر : ٢٩ .

وتلاوة القرآن هي أفضل الأذكار ، والمطلوب : القراءة بالتدبر وينبغي أن يحافظ على تلاوته ليلاً ونهاراً ، سفراً وحضراً ، وقد كان للسلف - رضي الله عنهم - عادات مختلفة في القدر الذي يختمون فيه ،فكان جماعة منهم يختمون في كل شهرين ختمة ، وآخرون في كل شهر ختمة ، وآخرون في كل سبع ليال ختمة ، وهذا فعل الأكثرين من السلف ، وآخرون في كل ست ليال ختمة ، وآخرون في خمس ليال ختمة ، وآخرون في أربع ليال ختمة ، وكثيرون في كل ثلاث ختمة ، وكان كثيرون يختمون في كل يوم وليلة ختمة ....

والمختار أن ذلك يختلف باختلاف الأشخاص ، فمن كان يظهر له بدقيق الفكر لطائف ومعارف فليقتصر على قدر يحصل له معه كمال فهم ما يقرأ، وكذا من كان مشغولاً بنشر العلم أو فصل الحكومات بين المسلمين أو غير ذلك من مهمات الدين ، والمصالح العامة للمسلمين ، فليقتصر على قدر

---

(١)رواه البخاري : الصحيح ج ١ ص ١٦١ كتاب الأذان باب ٣٦ .
(٢)رواه البخاري : الصحيح ج ١ ص ٨ كتاب الايمان باب ٢ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

لا يحصل بسببه إخلال بما هو مرصد له ، ولا فوات كماله ، ومن لم يكن من هؤلاء المذكورين فليستكثر ما أمكنه من غير خروج إلى حد الملل أو الهذرمة في القراءة (١) .

٨- الإنفاق من رزق الله سراً وعلانية :

(وأنفقوا مما رزقناهم سراً وعلانية) فاطر : ٢٩ .

وفيه حديث أبي هريرة السابق في السبعة يظلهم الله في ظله : (..ورجل تصدق أخفى حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه ..) (٢) .

٩- العلم :

(إنما يخشى اللهَ من عباده العلماءُ) فاطر : ٢٨ .

وحديث أبي هريرة - رضيَ الله عنه - قال : (سمعت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول : ألا إن الدنيا ملعونة ، وملعون ما فيها ، إلا ذكر الله وما والاه ، وعالم أو متعلم) (٣) .

ثانياً : صفات أهل الباطل (الكافرين) :

١- تكذيب الرسل - صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين - :

(وإن يكذبوك فقد كُذِّبت رسل من قبلك ، وإلى الله ترجع الأمور) فاطر : ٤ . (وإن يكذبوك فقد كذب الذين من قبلهم ، جاءتهم رسلهم بالبينات وبالزبر وبالكتاب المنير) فاطر : ٢٥ .

وهذه الصفة هي أسوأ ما يتصف به الكافرون من صفات ، لأنهم بها أصبحوا كافرين ، منكرين للتوحيد ، مناهضين لدعوة الله ، وبها حقت عليهم كلمة العذاب ، وفي سبيلها اندفعوا إلى كل سوء بعدها .

٢- موالاة الشيطان ، والاغترار بالدنيا :

(يا أيها الناس إن وعد الله حق ، فلا تغرنكم الحياة الدنيا ولا يغرنكم

---

(١) محي الدين أبي زكريا يحيى بن شرف النووي : الاذكار المنتخبة من كلام سيد الابرار ص ١٧٤ - ١٧٥ ط ١ ١٩٨٣ دار الفكر - دمشق . تحقيق احمد راتب عرموش . وسيشار الى هذا المرجع حين وروده فيما بعد هكذا: النووي: الاذكار .

(٢) رواه البخاري : الصحيح ج ١ ص ١٦١ كتاب الاذان باب ٣٦ .

(٣) رواه الترمذي : السنن ج ٤ ص ٥٦١ كتاب الزهد باب ١٤ ح ٢٣٢٢ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

بالله الغرور . إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدواً ، إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير) فاطر : ٥ - ٦ .

فأهل الباطل هم الشيطان ومن والاه ، وهم حزب الشيطان ، يخالفون أمر الله باتخاذه عدواً ، فيجرهم معه إلى السعير والعياذ بالله .

٣- التعزز بغير الله :

(من كان يريد العزة فلله العزة جميعاً)

وأهل الباطل يطلبون العزة بمخالفتهم لمحمد - صلى الله عليه وسلم - فيتعززون عليه بالأصنام التي يعبدونها ، ولكن خسئوا ، فلا عزة إلا من الله وبالله .

٤- المكر السيء :

(والذين يمكرون السيئات لهم عذاب شديد . ومكر أولئك هو يبور) فاطر : ١٠ . (استكباراً في الأرض ومكر السيء ، ولا يحيق المكر السيء إلا بأهله) فاطر : ٤٣ .

لم يكفهم أنهم كفروا بالله وكذبوا رسله ، بل زادوا على ذلك سوءاً أنهم لا يريدون أحداً يؤمن بالله ورسله ، فهم يحاولون دائماً الصد عن سبيل الله ، ولكن خابوا ، لأن مكرهم يبور ، ويحيق بهم في نهاية الأمر .

وعن أبي بكر الصديق - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم : (ملعون من ضار مؤمناً أو مكر به)[1] .

٥- الكذب :

(بل إن يعد الظالمون بعضهم بعضاً إلا غروراً) فاطر : ٤٠ .

(وأقسموا بالله جَهد أيمانهم ، لئن جاءهم نذير ليكونن أهدى من إحدى الأمم ، فلما جاءهم نذير ما زادهم إلا نفوراً) فاطر : ٤٢ .

وعن صفوان بن سليم أنه قال : قيل لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - أيكون المؤمن جباناً ؟ فقال : (نعم) ، فقيل له : أيكون المؤمن بخيلاً ؟ فقال : نعم ، فقيل له : أيكون المؤمن كذاباً ؟ فقال: لا)[2] .

---

(١) رواه الترمذي : السنن ج ٤ ص ٣٣٢ كتاب البر والصلة باب ٢٧ ج ١٩٤١ .

(٢) رواه مالك بن أنس : الموطأ ص ٩٩٠ كتاب الكلام باب ٧ ح ١٩ . الطبعة التركية ، وسيشار الى هذا المصدر حين وروده فيما بعد هكذا : مالك: الموطأ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وعن عبدالله بن مسعود - رضي الله عنه - أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : (ألا وإياكم والكذب ، فإن الكذب لا يصلح بالجد ولا بالهزل ، ولا يعد الرجل صبيه ثم لا يفي له ، فإن الكذب يهدي إلى الفجور ، وإن الفجور يهدي إلى النار ، وإن الصدق يهدي إلى البر ، وإن البر يهدي إلى الجنة ، وإنه يقال للصادق : صدق وبر ، ويقال للكاذب : كذب وفجر ، ألا وإن العبد يكذب حتى يكتب عند الله كذاباً)[١] .

وعن عبدالله بن مسعود كان يقول :(لا يزال العبد يكذب وتنكت في قلبه نكتة سوداء ، حتى يسود قلبه كله ، فيكتب عند الله من الكاذبين)[٢].

٦- الاستكبار في الأرض :

(فلما جاءهم نذير ما زادهم إلا نفوراً . استكباراً في الأرض ومكر السيء) فاطر : ٤٢ - ٤٣ .

ما رفضوا الحق إلا لأنهم أخذتهم نشوة الاستكبار على أن يأخذوا الحق ممن اختاره الله لتبليغه ، فهم يريدون الحق من غير الذي اختاره الله له ، يريدون أحد الأكابر في مقاييسهم الجاهلية . ولكن أولئك الذين يرون أنفسهم أكبر وأفضل من المؤمنين المستضعفين ما هو مصيرهم إنه كما ورد في الحديث الشريف عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده ، عن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال : يحشر المتكبرون يوم القيامة أمثال الذر في صور الرجال ، ويغشاهم الذل من كل مكان ، فيساقون إلى سجن في جهنم يسمى بولس تعلوهم نار الأنيار ، يسقون من عصارة أهل النار ، طينة الخبال)[٣] .

٧- الجهل :

(إنما يخشى الله من عباده العلماء) فاطر : ٢٨ .

فالذين لا يخشون ربهم لا يعلمون ، وأكثر ما يكون الإنسان جاهلاً إذا كان كافراً ، فلو علم قدرة الله على الخلق والإبداع ، ولو علم قدرة الله على الكافرين وأخذه لهم لما كفر ، فبالكفر يصمون أنفسهم بأقصى درجات الجهل ، وكما قال تعالى في سورة الملك (وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير) الملك : ١٠ .

والحمد لله الذي جعلنا مؤمنين، ونسأله تعالى الثبات على الإيمان وأن يلحقنا بالصالحين آمين يا رب العالمين .

---

(١)رواه ابن ماجة . أبو عبدالله محمد بن يزيد القزويني : السنن ج١ ص ١٨ المقدمة باب ٧ ح ٤٦ . الطبعة التركية .
والدارمي : أبو محمد عبدالله بن عبدالرحمن بن الفضل بن بهرام الدارمي : السنن ص ٦٩٥ كتاب الرقاق باب ٧ الطبعة التركية .
(٢)رواه مالك : الموطأ ص ٩٩٠ كتاب الكلام باب ٧ ح ١٨ .
(٣)رواه الترمذي : السنن ج ٤ ص ٦٥٥ كتاب صفة القيامة باب ٤٧ ح ٢٤٩٢.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

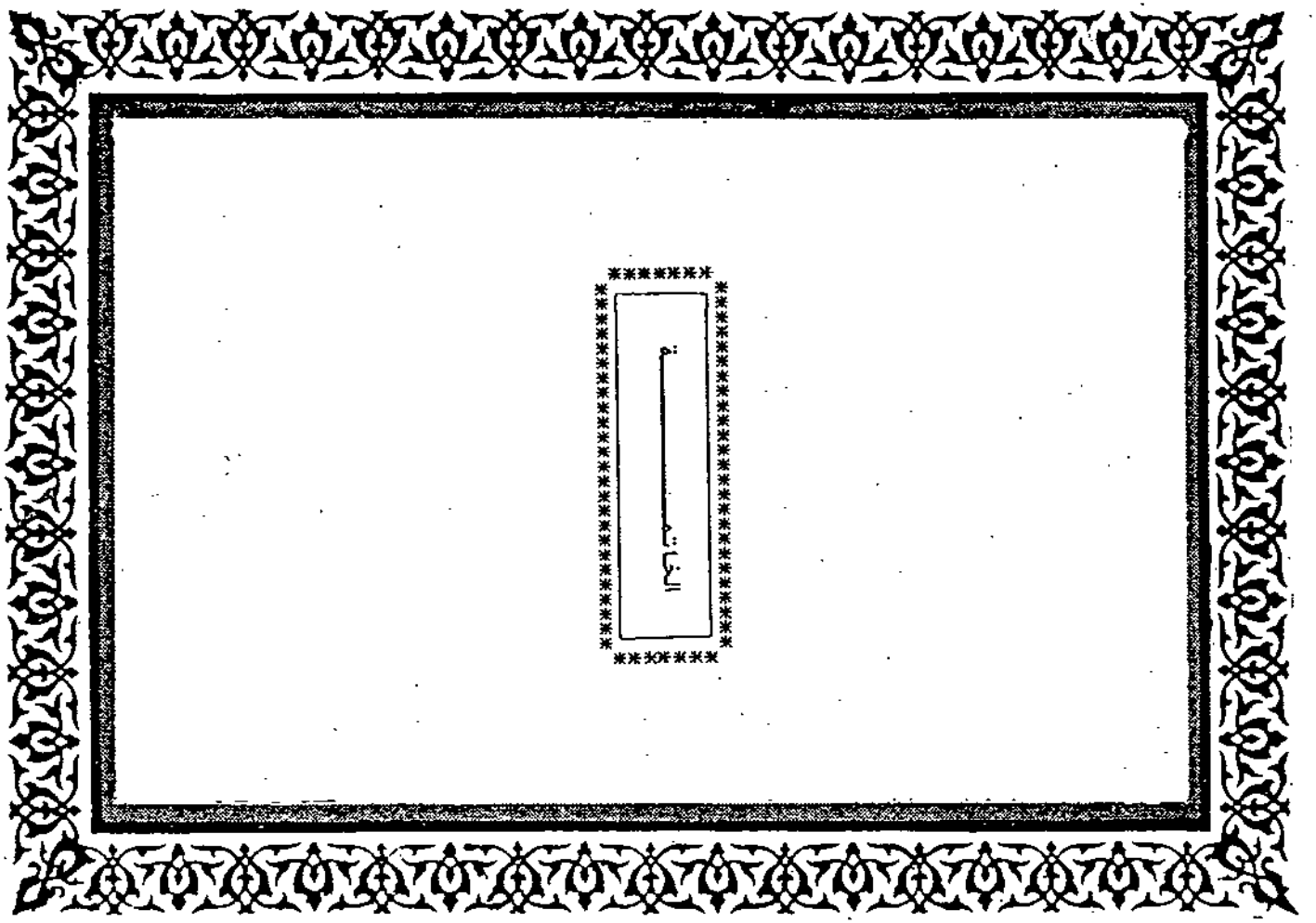

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الخاتمـــــــة

بعد أن اكرمني الله - عز وجل - بإتمام هذا البحث ، تبين لـــي من خلاله ما يلي :

التمهيـــــد :

للسورة اسمان (سورة فاطر) و (سورة الملائكة) .

السورة كلها مكية ، وآياتها خمس وأربعون ، وهي السورة الخامســة والثلاثون في ترتيب المصحف ، والثالثة والأربعون في ترتيب النزول .

نزلت السورة في المرحلة السرية للدعوة الإسلامية ، أي قبل السنـــة الثالثة للبعثة في جو تداعى فيه المشركون على المسلمين .

وعلاقة السورة بالتي قبلها والتي بعدها واضحة ، وكذلك علاقتهـــا بالسور المفتتحة بالحمد .

الفصل الأول :

تنقسم السورة إلى اثني عشر مقطعاً مترابطة متناسقة ، تدور كلهـــا في فلك غرضها الأساسي ، وتخدم تحقيق موضوعها الرئيس (أدلة وحدانيـــة اللـه - تعالى -) .

الفصل الثانـــي :

عرضت السورة عدة موضوعات هامة ، وقد بحثت بالتفصيـــــــل الموضوعات التالية :

١- أدلة وحدانية الله - تعالى - .

وهو موضوع السورة الرئيس ، والأدلة في السورة تنحصر في نوعين :

أ) دلالة الخلق والاختراع .

ب) دلالة العناية والقصد .

وانقسمت آيات الأدلة في السورة إلى ثلاثة أقسام :

أ - آيات تضمنت التنبيه على دلالة الخلق والاختراع على وحدانيـــة الله - تعالى - .

ب - آيات تضمنت التنبيه على دلالة العناية والقصد على وحدانية اللـــه - تعالى - .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

جـ - آيات تضمنت التنبيه على الأمرين من الدلالة جميعاً .

وتضمن القسم الأول ما يلي :

أ) لفت الأنظار إلى قدرة الله وحده على إبراز الخلق إلى الوجود، والزيادة والنقصان فيه .

ب) لفت الأنظار إلى قدرة الله وحده على خلق الإنسان وتكوينه وتحديد نوع النسل ، وكذلك الزيادة والنقصان في الآجال .

وتضمن القسم الثاني ما يلي :

أ - لفت الأنظار إلى سلطان الله ومالكيته لأبواب الرحمة والرزق والتصرف في الخلق .

ب - لفت الأنظار إلى نعمة الله وقدرته في إرسال الرياح وتسخيرها لإثارة السحاب وحمله من مكان إلى آخر حسبما تقتضيه الحكمة .

وتضمن القسم الثالث ما يلي :

أ) لفت الأنظار إلى خلق الكون وتسخيره لمصالح العباد ، وحفظه من الزوال .

ب) لفت الأنظار إلى قدرة الله وحده على خلق البحار رغم تعدد طعومها واختلاف مساحاتها وتسخيرها لمصالح العباد حسبما تقتضيه الحكمة .

جـ) لفت الأنظار إلى خلق الشمس والقمر والليل والنهار وتسخيرها لمصالح العباد .

د) لفت الأنظار إلى إنزال الماء من السماء وإخراج النبات به واختلاف ألوان النباتات والجمادات والحيوانات .

٢- الملائكة .

٣- البعث .

٤- العزة .

الفصل الثالث :

في السورة عدد من الآيات تتشابه لفظياً مع آيات أخرى من سور أخرى وفيها أيضاً بعض الآيات التي يشكل معناه على الكثيرين .

الفصل الرابع :

الحق نقيض الباطل ، والصراع بينهما قديم قدم البشرية ، وهو سنة ربانية لابتلاء الخلق .

تشخيص القرآن للنفسية الجاهلية يبين أن الإصرار على الباطل هو عناد من أجل العناد فقط ، واستكبار عن قبول الحق بغير وجه حق .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وقد جادل القرآن أهل الباطل وناقشهم شبهاتهم ورد أباطيلهم بشكل لا يتطرق إليه الشك أبداً ، واشتمل النقاش والجدل على القضايا التالية :

١- إثبات الوحدانية لله - تعالى - .
٢- إثبات البعث .
٣- نقض إلهية ما يعبدون من دون الله .
٤- عرض لمشاهد القيامة - النعيم ،والجحيم .

وعرضت السورة لمجموعة من صفات أهل الحق ، وأخرى من صفات أهل الباطل . أما صفات أهل الحق فهي :

١) الإخلاص والصدق .
٢) ذكر النعمة وشكرها .
٣) عداوة الشيطان وعدم الاغترار بالدنيا .
٤) التعز ز بالله .
٥) خشية الله .
٦) إقام الصلاة .
٧) تلاوة القرآن .
٨) الإنفاق من رزق الله سراً وعلانية .
٩) العلم .

أما صفات أهل الباطل فهي :

١) تكذيب الرسل - صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين - .
٢) موالاة الشيطان والاغترار بالدنيا .
٣) التعز ز بغير الله .
٤) المكر السيء .
٥) الكذب .
٦) الاستكبار في الأرض .
٧) الجهل .

هذا ما يسره الله - سبحانه وتعالى - لي ، فما كان صواباً فمن الله وحده لا شريك له ، وما كان خطأ فمن نفسي ومن الشيطان ، وأستغفر الله العظيم وأتوب إليه ، والحمد لله رب العالمين .

وليد محمد حسن العمودي

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فهـــــــرس الموضوعـــــات

الموضـــــــوع	الصفحـــة
المقدمـــة	١
التمهيـــد	٦
تعريف عام بسورة فاطر	٧
متى نزلت سورة فاطـــر	٧
الجو الذي نزلت فيه السورة	٨
أين نزلت ســورة فـاطر	٩
علاقة السورة بالتي قبلـها	٩
علاقة السورة بالتي بعدها	١٠
علاقة سورة فـاطر بالسور المفتتحة بالحمد	١١
الفصل الأول : التفسيـــر التحليلـــي للســـورة	١٧
الآيـات (١ ــ ٣)	١٨
الآيـــة (٤)	٢٩
الآيـات (٥ ــ ٨)	٣١
الآيـات (٩ ــ ١٠)	٣٧
الآيـات (١١ ــ ١٤)	٤٣
الآيـات (١٥ ــ ١٨)	٥٠
الآيـات (١٩ ــ ٢٦)	٥٥
الآيـات (٢٧ ــ ٣٠)	٦١
الآيـات (٣١ ــ ٣٥)	٦٦
الآيـات (٣٦ ــ ٣٩)	٧٣
الآيـات (٤٠ ــ ٤١)	٧٩
الآيـات (٤٢ ــ ٤٥)	٨٥
الفصل الثـاني : مبـاحـث موضوعيـــــة	٩١
المبحث الأول : أدلـة الوحدانيةكما تعرضها سوة فـاطر	٩٢
توطئة : القرآن يخاطب العقل بالحجة البينة	٩٢
الوحدانية لغة واصطلاحا	٩٣
دليل الوحدانية	٩٤
القـــدرة لغـة	٩٤

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الموضـــــــوع	الصفحـــة

القدرة اصطلاحا ٩٥
دليل القدرة ٩٥
أدلـــة الوحـــدانية كما تعرضها سورة فاطر..... ٩٦
أولا : الآيات التي تتضمن التنبيه على دلالة الخلـــق والاختـــراع..... ١٠١
الدليل الأول ١٠١
الدليل الثاني..... ١٠٣
الدليل الثالث ١٠٦
ثانيا : الآيات التي تتضمن التنبيه على دلالة العناية.... ١٠٩
الدليل الاول ١٠٩
الدليل الثاني..... ١١٠
الدليل الثالث ١١٤
ثالثا : الآيات التي تضمنت التنبيه على دلالتي الاختراع والعناية..... ١١٥
الدليل الاول ١١٦
الدليل الثاني ١١٩
الدليل الثالث ١٢٥
المبحـــث الثـــاني : مبحث في الملائكـة ١٣١
المبحـــث الثـــالث : مبحث في البعـــث ١٣٥
المبحـــث الرابـــع : مبحث في العـــزة ١٤١
الفصـــل الثالـــث : المتشابـه والمشكل في السورة ١٤٦
أولا : المتشابـــــه ١٤٧
ثانيا : المشكـــــل..... ١٥٣
الفصـــل الرابـــع : الصراع بين الحق والباطل في السورة ١٥٥
معنى الحق لغة واصطـلاحا ١٥٦
معنى الباطل لغة واصطلاحا ١٥٦
تاريخ الصراع بين الحق والباطـل ١٥٧
الصراع بين الحق والباطل سنة ربانية ١٥٧
أسباب الصـــراع ١٥٨

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الموضـــــــــــوع	الصفحـــة
جدال القرآن ومناقشاته للمشركين (المثال الأول)	١٦٠
المثال الثاني	١٦١
المثال الثالث	١٦١
المثال الرابع	١٦٢
المثال الخامس	١٦٣
المثال السادس	١٦٤
المثال السابع	١٦٦
صفـــات أهـــل الحـــق	١٦٨
صفـــات أهل الباطل	١٧١
الخاتمـــــــة	١٧٤
فهرس الموضوعات	١٧٨
ثبت بالمراجـــع	١٨١
ملخص الرسالة باللغة الانجليزية	3 - 1

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ثبـــــت بالمراجـــــع

- الإسكافي ـ الخطيب : درة التنزيل وغرة التأويل في بيان الآيات المتشابهات في كتاب الله العزيز . ط ١ دار الآفاق الجديدة .
- الأشقر ـ عمر سليمان : عالم الملائكة الأبرار ط ٤ ١٩٨٥ دار الفلاح/ الكويت .
- الأصفهاني ـ الراغب : المفردات في غريب القرآن . ط دار المعرفة .
- الألوسي ـ أبو الفضل شهاب الدين السيد محمود : روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني ط دار إحياء التراث العربي ـ بيروت .
- ابن أنس ـ مالك : الموطأ . الطبعة التركية .
- الباجوري ـ إبراهيم : شرح جوهرة التوحيد ـ تقديم الأستاذ عبدالكريم الرفاعي .
- البخاري ـ محمد بن إسماعيل : الصحيح ـ الطبعة التركية .
- البغوي ـ أبو محمد الحسين بن مسعود الفراء : التفسير المسمى (معالم التنزيل) ط دار المعرفة ـ بيروت .
- البقاعي ـ برهان الدين أبو الحسن إبراهيم بن عمر : نظم الدرر في تناسب الآيات والسور ط ١٩٦٩/١ م مجلس دائرة المعارف العثمانية بحيدرآباد ـ الدكن ـ الهند .
- البوطي ـ محمد سعيد رمضان : كبرى اليقينيات الكونية ط ٨ ١٤٠٢ هـ دار الفكر .
- بوكاي ـ موريس : التوراة والانجيل والقرآن والعلم . ط١٩٧٨ دار الكندي للطباعة /بيروت .
- الترمذي ـ الجامع ـ الطبعة التركية .
- ابن تيمية ـ أحمد : العقيدة الواسطية ط ٧ ١٩٨٥ م دار المجتمع للنشر والتوزيع ـ جدة .
- الجاوي ـ محمد نووي : التفسير المنير لمعالم التنزيل ، المسمى (مراح لبيد لكشف معنى قرآن مجيد) ط ٣ ١٩٥٥ م شركة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده ـ بمصر .
- الجرجاني ـ علي بن محمد الشريف : كتاب التعريفات ط ١٩٨٥ م مكتبة لبنان
- ابن الجزري ـ محمد بن محمد بن يوسف : النشر في القراءات العشر . ط دار الكتب العلمية ـ بيروت .
- ابن الجزري : تقريب النشر في القراءات العشر ط ١ ١٩٦١ ، مصطفى البابي .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

- ابن الجزري : تحبير التيسير في قراءات الأئمة العشرة. ط ١ ١٩٧٢ ، دار الوعي - حلـــــــب .

- الجصاص - أبو بكر أحمد بن علي : أحكام القرآن ط ١٣٤٧ هـ ، المطبعـــــــة البهية المصريـــة .

- الجطيلـــي - عبدالرحمن بن حمد : الأجوبة المفيدة على أسئلة العقيدة ،ط مكتبة الحرمين .

- الجوزو - محمد علي : مفهوم العقل والقلب في القرآن والسنة ط ١٩٨٠ م ، دار العلم للملايين - بيروت .

- ابن الجوزي - أبو الفرج عبدالرحمن بن علي بن محمد : زاد المسير في علـــــم التفسير ط ١٩٦٥ ، المكتب الإسلامي للطباعة والنشر .

- الجوهري - إسماعيل بن حماد : الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية ط ٢ ١٩٧٩ دار العلم للملايين - بيروت .

- ابو جيـــب - سعيد : القاموس الفقهي لغة واصطلاحاً ط ١ ١٩٨٢ م ، دار الفكر - دمشـــــــق .

- ابن الحجـاج - مسلم : الصحيح - الطبعة التركية .

- الحنفي - العلامة أبو المعز : شرح العقيدة الطحاوية ط ١ ١٩٨٣ م ، المكتـــب الإسلامي للطباعة والنشر .

- ابن حيان - ابو عبدالله محمد بن يوسف بن علي بن يوسف الشهير بأبي حيان : التفسير الكبير المسمى بالبحر المحيط ط ١ ١٣٢٨ هـ مطبعة دار السعادة - بمصر .

- الخازن - علاء الدين علي بن محمد بن إبراهيم : لباب التأويل في معانـــي التنزيل - ط دار الفكر .

- ابن خالويه : الحجة في القراءات السبع ط ١٩٧١ دار الشروق - بيروت .

- خان - صديق حسن : فتح البيان في مقاصد القرآن ط عبد المحيي علي محفوظ .

- الخطيب - عبدالكريم : الله ذاتاً وموضوعاً ط ٣ ١٩٧٥ - دار المعرفة للطباعة والنشر.

- الخطيب - عبدالغني : أضواء من القرآن على الإنسان ونشـــأة الكون والحياة ط ١ مكتبة دار الفتح بدمشـــــــق .

- الدارمي - أبو محمد عبدالله بن عبدالرحمن بن الفضل بن بهرام : السنـــــن - الطبعة التركية .

- الدبـــاغ : مصطفى : وجوه من الإعجاز القرآني ط ١ ١٩٨٢ م مطبعة المنار - الزرقاء - الأردن .

- دروزة - محمد عزت : التفسير الحديث ط ١٩٦٢ م مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

- ابن دريد - أبو بكر محمد بن الحسن الأزدي البصري : جمهرة اللغة ط ١٣٤٥ هـ مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية بحيدرأباد - الدكن - الهند .

- دسوقي - فاروق أحمد : محاضرات في العقيدة الإسلامية ط دار الدعوة-الاسكندرية .

- الرازي - الفخر : التفسير الكبير . ط دار إحياء التراث العربي - بيروت و ط استانبول ١٣٠٧ هـ دار الطباعة العامرة .

- ابن رشد - ابو الوليد محمد بن أحمد : المقدمات الممهدات لبيان ما اقتضته رسوم المدونة من الأحكام الشرعيات ط ١ دار السعادة بمصر .

- ابن رشد : مناهج الأدلة في عقائد الملة ط ٢ ١٩٦٤ م مكتبة الأنجلو المصرية

- رضا - محمد رشيد : تفسير القرآن الحكيم ، الشهير بتفسير المنار ط ٢ دار المعرفة للطباعة والنشر - بيروت .

- الزبيدي - السيد محمد مرتضى الحسيني : تاج العروس من جواهر القاموس ط ١٩٧٠ مطبعة الحكومة بالكويت .

- الزركشي - بدر الدين : البرهان في علوم القرآن ط ١٩٥٧ م مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر .

- ابن زكريا - أبو الحسين أحمد بن فارس : معجم مقاييس اللغة ط ٣ ١٩٨١ م مكتبة الخانجي - بمصر .

- الزمخشري - أبو القاسم جار الله محمود بن عمر الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الاقاويل في وجوه التأويل ط دار المعرفة للطباعةوالنشر - بيروت .

- ابو زهرة - محمد : المعجزة الكبرى (القرآن) ط دار الفكر العربي .

- السائح - عبدالحميد : عقيدة المسلم وما يتصل بها ط ١ ١٩٧٨ م ، مطابع وزارة الاوقاف والشئوون والمقدسات الإسلامية - عمان - الاردن .

- السخاوي : محمد بن عبدالرحمن : المقاصد الحسنة ط مكتبةالخانجي - بمصر .

- السعدي - عبدالرحمن بن ناصر : تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان .

- السيوطي - جلال الدين : الإتقان في علوم القرآن ط ٣ ١٩٥١م مصطفى البابي الحلبي وشركاه بمصر .

- السيوطي : الدر المنثور في التفسير بالمأثور ط ٢ ١٩٨٣م دار الفكر - لبنان .

- السيوطي : لباب النقول في أسباب النزول . بهامش تفسير الجلالين .

- شحادة - عبد الله : تفسير الآيات الكونية ط دار الاعتصام .

- الشربيني - الخطيب : السراج المنير في الإعانة على معرفة بعض معاني كلام ربنا الحكيم الخبير .

- شعراوي - محمد متولي : معجزة القرآن .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

- الشنقيطي - محمد الأمين : دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب . ط مطبعة المدني .
- الشوكاني - محمد بن علي بن محمد : فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدرا ة من علم التفسير . ط محفوظ العلمي .
- الصابوني - محمد علي : صفوة التفاسير ط ٤ ١٩٨١ دار القرآن الكريم - بيروت .
- الصابوني - مختصر تفسير ابن كثير ط ٧ دار القرآن الكريم - بيروت ١٩٨١.
- الصدر - محمد باقر : المدرسة القرآنية ط ٢ ١٩٨١ م دار المعارف للمطبوعات - بيروت .
- صدقي - محمد توفيق : الدين في نظر العقل الصحيح ط ٢ ١٣٤٦ هـ مطبعة المنار بمصر .
- صدقي - نعمت : معجزةالقرآن ط ٢ ١٩٧٨ م دار الاعتصام .
- الطبرسي - أبو علي الفضل بن الحسن : مجمع البيان في تفسير القرآن ط دار المعرفة .
- الطبري - أبو جعفر محمد بن جرير : جامع البيان في تفسير القرآن ط ١ ١٣٢٩هـ المطبعة الكبرى الاميرية ببولاق - مصر .
- طعيمة - صابر : العقل والإيمان في الإسلام ط ١ ١٩٧٩ م دار الجيل - بيروت .
- طنطاوي - محمد السيد : تفسير سورة الأنعام ط٣سنة١٩٨٣م ،مطبعة السعادة، بمصر .
- ابن عاشور - محمد الطاهر : تفسير (التحرير والتنوير) ط الدار التونسية .
- عبد الباقي - محمد فؤاد : المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم .
- عبدالباقي - مفتاح كنوز السنة .
- عبدالجبار - القاضي : متشابه القرآن ط دار التراث .
- عبدالجبار - القاضي : تنزيه القرآن عن المطاعن ط دار النهضة .
- عبد الرحمن - عائشة (بنت الشاطيء) : القرآن وقضايا الإنسان ط ١ ١٩٧٢م دار العلم للملايين .
- عبدالواحد - مصطفى : الإيمان في القرآن ط ١ ١٩٨٦ م دار الصحوة للنشر .
- ابن العربي - أبو بكر محمد بن عبدالله : أحكام القرآن ط ١٩٧٤ م دار الفكر.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

- العمادي - أبو السعود محمد بن محمد : إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم ط دار إحياء التراث العربي - بيروت .
- غاوجي - وهبي سليمان : أركان الإيمان ، ط ١٩٧٧ م مؤسسة الرسالة .
- الغزالي - أبو حامد : تهافت الفلاسفة ط المطبعة الكاثوليكية ١٩٦٢ م ، بيروت
- غلاب - عبدالكريم : صراع المذهب والعقيدة في القرآن . ط ١ ١٩٧٣ م دار الكتاب اللبناني - بيروت .
- الفراء - أبو زكريا : معاني القرآن ط الدار المصرية .
- الفيروزأبادي - مجد الدين بن محمد بن يعقوب : القاموس المحيط ط دار الجيل - بيروت .
- الفيروزأبادي : بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز ط المكتبة العلمية - بيروت .
- القاسمي - محمد جمال الدين : محاسن التأويل ط مصطفى البابي الحلبي وأولاده .
- ابن قتيبة - أبو محمد عبدالله بن مسلم : تأويل مشكل القرآن ط المكتبة العليمة .
- القرضاوي - يوسف : الإيمان والحياة ط ٨ ١٩٨٢ م مؤسسة الرسالة .
- القرطبي - أبو عبدالله محمد بن أحمد الأنصاري : الجامع لأحكام القرآن ط ١٩٤٥م مطبعة دار الكتب المصرية.
- قطب - سيد : في ظلال القرآن ط ١٠ ١٩٨١م دار الشروق .
- = = : التصوير الفني في القرآن ط ٣ دار المعارف - بمصر .
- = = : مشاهد القيامة فيالقرآن ط دار الشروق .
- قطب - محمد : دراسات قرآنية ط ٢ ١٩٨٠ م دار الشروق .
- قلعجي - محمد رواس : معجم لغة الفقهاء (عربي - انجليزي) ط ١ ١٩٨٥م دار النفائس - بيروت .
- القمي - نظام الدين الحسن بن محمد بن حسين : تفسير غرائب القرآن ورغائب الفرقان . بهامش جامع البيان للطبري ط ١٣٢٩ هـ المطبعة الكبرى الأميرية ببولاق - بمصر .
- ابن قيم الجوزية - شمس الدين أبو عبدالله محمد بن أبي بكر الزرعي : زاد المعاد في هدي خير العباد ط ١٢ ١٩٨٦ مؤسسة الرسالة .
- كارل - الكسيس : الإنسان ذلك المجهول .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

- ابن كثير - أبو الفداء إسماعيل : تفسير القرآن العظيم ، ط١ دار المعرفة بيروت ١٩٨٦م ، وط المكتبة التجارية الكبرى بأول شارع محمد علي - بمصر١٩٣٧م .
- ابن كثير : السيرة النبوية ط ٢ ١٩٧٨م دار الفكر - بيروت .
- الكرماني - أحمد حميد الدين : مجموعة رسائل الكرماني ، ط١ ١٩٨٣م ، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر - بيروت .
- الكرماني - محمود : أسرار التكرار في القرآن ط ١ .
- الكيالهراسي - عماد الدين بن محمد الطبري : أحكام القرآن ط دار الكتب العلمية .
- الكيلاني - إبراهيم زيد : تصور الألوهية كما تعرضه سورة الأنعام ط ١ ١٩٨١م مكتبة الأقصى .
- ابن ماجة - أبو عبدالله محمد بن يزيد القزويني : السنن - الطبعة التركية .
- المبارك - محمد : الإسلام والفكر العلمي ط ١ ١٩٧٨م دار الفكر - بيروت .
- = = : نظام الإسلام (العقيدة والعبادة) ط ٢ ١٩٨١م دار الفكر - بيروت .
- مجموعة من المستشرقين : المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي الشريف .
- المط - محمد فائز : من كنوز الإسلام ط ١ ١٩٨٤م مؤسسة الرسالة .
- مغنية - محمد جواد : التفسير المبين (بهامش المصحف) ط ٢ ١٩٨٣م مؤسسة عز الدين للطباعة والنشر - بيروت .
- الملاح - نديم : العقائد الإسلامية ط مطبعة دار الأيتام الإسلامية الصناعية بالقدس ١٩٥٢ م .
- ابن منظور - أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم : لسان العرب ط دار صادر - بيروت .
- ابن المنيير - أحمد بن محمد بن المنير الاسكندري المالكي : الانصاف فيما تضمنه الكشاف من الاعتزال - حاشية الكشاف ط دار المعرفة - بيروت .
- موريسون - كريسي : الإنسان لا يقوم وحده - ترجمة محمود صالح الفلكي ، بعنوان العلم يدعو إلى الإيمان ط ٥/١٩٦٥م/مكتبة النهضة المصرية - القاهرة .
- الميداني - عبدالرحمن حسن حبنكة : العقيدة الإسلامية وأسسها ط ٢ ١٩٧٩ م دار القلم - دمشق .
- الميداني : الأمثال القرآنية دراسة وتحليل وتصنيف ورسم لأصولها وقواعدها ومناهجها - تأملات ط ١ ١٩٨٠ دار القلم - دمشق .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

- النسفي ـ أبو البركات عبدالله بن أحمد بن محمود : تفسير القرآن الجليل ، المسمى بمدارك التنزيل وحقائق التأويل ط وزارة التربيةوالتعليم ـ بمصر ١٩٦٢ ،الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية .

- النووي : أبو زكريا يحيى بن شرف : بستان العرفين ط ٣ ١٤٠٥ هـ مطبعة زيد بن ثابت ـ دمشق .

- النووي : الأذكار المنتخبة من كلام سيد الأبرار ط ١ ١٩٨٣ م دار الفكر دمشق .

- ابن هشام ـ أبو محمد عبدالملك : السيرة النبوية ط دار الجيل ـ بيروت .

- ياسين ـ محمد نعيم : الإيمان (أركانه ، حقيقته ، نواقضه) ط ٤ ١٩٨٤م مكتبة الرسالة ـ عمان .

- مجلة الأزهر ج ١٩ ،ج ٢٢ ،ج ٢٥ .

- مجلة الوعي الإسلامي سنة (١٨) عدد (٢٠٦) .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit